

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر باتنة

قسم التاريخ وعلم الآثار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ثورة واحة العامري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن التاسع عشر

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير

في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر

تخصص تاريخ الأوراس

إشراف الدكتور:

علي آجقو

إعداد الطالبة:

شهرزاد شلي

لجنة المناقشة :

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أحمد صاري	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	رئيساً
علي آجقو	أستاذ التعليم العالي	جامعة بسكرة	مشرفاً ومقرراً
صالح لميش	أستاذ محاضر	جامعة مسيلة	عضواً مناقشاً
حفظ الله بوبكر	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضواً مناقشاً

السنة الجامعية 2009/2008

!

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا

تبدلاً ﴾

سورة الأحزاب الآية: 23

إهداء

إلى الذين زرعوا بذرة الحرية

وسقوها بمائهم

شهداء ثورة واحة العامري

شكر و عرفان

قد يقف المرء عاجزا على رد الجميل لذوي الفضل، وقد لا تطاوعه أساليب التعبير ليعبر عن معاني الشكر والتقدير، الشكر لله أولا وأخيرا، ومن باب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

من لا يشكر الناس لا يشكر الله ﷺ

أتوجه بالشكر الجزيل و وافر الامتنان و العرفان إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد، لإنجاز هذا العمل المتواضع وأخص بالذكر.

الأستاذ المشرف علي أجقو الذي كان لي نبراسا ومرشدا ونورا أنار طريقي لأخر لحظة من إنجاز هذه المذكرة .

وإلى جميع أساتذة قسم التاريخ جامعة باتنة .

تحية شكر وتقدير وأرجو من المولى أن يجزيهم عني أحسن الجزاء.

لقد كان الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830 جزءا من التحرك الاستعماري الأوروبي ، الذي نشط خلال القرن التاسع عشر وبرزت فيه حمى التسابق في الحصول على المستعمرات كل دولة حسب مطامعها ، و مصالحها فكان بالتالي التوجه الفرنسي نحو الجزائر .

وقد تعددت الأسباب التي ساققتها فرنسا لتبرير غزوها للجزائر ، فتراوحت هذه الذرائع بين حماية شرف فرنسا الذي أهين من قبل الداوي ، والقضاء على حركة الجهاد البحري التي كانت تنزعها الجزائر في حوض البحر الأبيض المتوسط ، مع محاولة فرنسا إبراز جهودها وتقانيها في خدمة المسيحية أمام الدول الأوروبية .

و بتاريخ 14 جوان 1830 نزلت القوات البحرية الفرنسية في شبه جزيرة سيدي فرج بالقرب من الجزائر العاصمة ، وقد انتصر الجيش الفرنسي على الجيش الجزائري في معركة سطوالي، وبرج الحسن بن عزوز، كما أجبر الداوي حسين على توقيع معاهدة الاستسلام في 05 جويلية 1830 .

ومما ساعد على نجاح الحملة الفرنسية الضعف الذي ظهر وبشكل واضح على القوات الجزائرية ، وذلك نظرا لفارق التسليح والإمكانيات ، فتمكنت القوات الفرنسية من احتلال جل المناطق الساحلية (الجزائر ، عنابه ، وهران) ، وهذا ما شجع المستعمر على المواصلة في زحفه معتقدا أن الطريق أصبح معبدا أمامه ، إلا أن الجيوش الفرنسية لاقت صعوبة كبيرة أثناء توغلها في المناطق الداخلية حيث ولدت الحملة الفرنسية في الجزائر شعورا قويا بالمقاومة بمجرد أن أدرك الشعب الجزائري نوايا فرنسا الاستعمارية ، فاضطر العدو لمواجهة نوعين من المقاومة السياسية والعسكرية :

1. المقاومة السياسية : قامت بها طبقة التجار والعلماء والأعيان.
2. المقاومة المسلحة : والتي قادها زعماء دينيون. وهي بدورها يقسمها المؤرخون إلى نوعين :

- المقاومة المسلحة المنظمة : ومثلها الأمير عبد القادر في الغرب ووسط الجزائر ، وانتهت باستسلامه في 23 ديسمبر 1847 ، وفرار أتباعه إلى الصحراء لمواصلة الجهاد ، والحاج أحمد باي في الشرق والتي انتهت، باتصال القائد أحمد باي بسان جرمان Saint

German طالبا الأمان ، فاقْتيد إلى بسكرة ومنها إلى قسنطينة حيث مكث فيها ثلاثة أيام ، ليرحل بعدها إلى الجزائر في انتظار السماح له بالسفر إلى البلاد المقدسة ، ولكن فرنسا لم تف بوعدها وبقي ينتظر في هذا الوهم الكاذب ، إلى أن توفي في شهر أوت 1850، بسبب كبر سنه وتمكن المرض منه .

• **المقاومة الشعبية غير المنظمة :** وتطلق على تلك الانتفاضات التي امتدت من النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين ، وبلغت حوالي 160 انتفاضة ، وقد شملت كافة أنحاء الوطن وكانت في الغالب تتتابع في المكان والزمان ، كما أن زعماءها كانوا شيوخا لطرق صوفية ، وجماهيرها كانت مدفوعة بفكرة الجهاد ، وقد امتدت هذه الانتفاضات إلى الجنوب ، الذي شهد مقاومة أهالي الزيبان، التي صمد أهلها وشكلوا مقاومة عنيفة ، رغم قلة العدد والعدة التي يملكونها ، وهذا ما سبب إحباطا للقادة الفرنسيين ، الذين تكبدوا خسائر فادحة في عدة معارك ، لعل أهمها معركة واد براز سنة 1849 التي قتل فيها الرائد سان جرمان **Saint German** .

دوافع اختيار البحث

تمثل هذه الثورات محطة هامة في مقاومة سكان المنطقة بصفة خاصة والشعب الجزائري بصفة عامة للاحتلال الفرنسي ، إلا أنها تكاد تكون مجهولة لدى الكثير من الباحثين والطلبة ، إضافة إلى قلة اهتمام الباحثين بهذه الثورات ، وعدم إعطائهم لها ما تستحق من الدراسة وهذا ما سبب نقصا في المراجع حول الموضوع، باستثناء بعض الكتابات الفرنسية ، ولعل هذا ما دفعني لتسليط الضوء على جوانب منه قصد إعطاء صورة واضحة حول ثورة العامري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن التاسع عشر ، ولم يكن الهدف من هذه الدراسة التجزئة ، وإنما اختياري لمنطقة الزيبان بهدف الانطلاق من الجزء إلى الكل ، إضافة إلى تناولي لموضوع المقاومة الشعبية في منطقة الزيبان في القرن التاسع عشر في مذكرة ليسانس ، دفعني للتوسع في البحث لإدراك خباياه ، كما رأيت أن هذه المنطقة جديرة بالدراسة قصد إبراز مدى الكفاح المرير الذي قاده الشعب الجزائري ومنه سكان منطقة الزيبان ضد المستعمر الفرنسي .

الإشكالية

إن هذا البحث يتعرض لتاريخ منطقة الزيبان التي مازالت مجهولة عند الدارسين ، وعليه سنحاول معرفة مدى مساهمة هذه المنطقة في المقاومة الشعبية ، وخاصة ثورة واحة العامري من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية :

- ماهي الدوافع الحقيقية للاستعمار الفرنسي عند احتلال عاصمة الزيبان ؟
- كيف كان رد فعل السكان على هذا الاحتلال ؟
- ماهي نتائج هذه الثورات ؟
- كيف تعامل القادة الفرنسيون مع رموزها ؟
- هل هذه الثورات كانت امتدادا لثورات سابقة أم أنها مجرد ردة فعل على الاحتلال وسياسته الاستعمارية ؟

منهج البحث

نظرا لطبيعة الموضوع ، ومن أجل الوصول إلى الهدف المنشود ، وللإجابة عن كل هذه التساؤلات والإلمام بجوانب الموضوع ، اعتمدت على بعض المناهج وأذكر منها:

- **المنهج التحليلي النقدي** : وذلك بتحليل بعض الحقائق قدر الإمكان أو نقد بعض ما قيل فيها ، اعتمادا على المصادر الأخرى ، إضافة إلى ربطها بمسبباتها والتعرف على تطوراتها .
- **المنهج المقارن** : و اعتمدت عليه في المقارنة بين أسباب ونتائج المقاومة للوصول إلى تحديد العلاقة بينها.
- **المنهج الوصفي** : في سرد الأحداث بطريقة وصفية كرونولوجية ، في محاولة لدراسة الأحداث التاريخية بالتسلسل .

دراسة المراجع

أما المراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث فيمكن تصنيفها من حيث الأهمية كما يلي:

* **محتوى أرشيف مدينة بسكرة** ، الذي يعتبر من أهم مصادر البحث وقد تم الاعتماد عليه بشكل كبير في دراسة أوضاع المنطقة قبل ثورة العامري ، إضافة إلى بعض الوثائق المتعلقة بنتائج هذه الثورة .

أما الوثائق التي حظيت بالدراسة فهي:

- نص البلاغ الحربي : الذي أرسله عبد الحفيظ الخنقي إلى السيد محمد الخيرانى، و استفادت منه الدراسة في تحديد عدد شهداء معركة واد براز ، وتحديد مصير عبد الحفيظ الخنقي .
- وثيقة حول إعادة إسكان البوازيد في واحة العامري عام 1890 ، وتضمنت قرار العفو الذي استفاد منه البوازيد ، وكيف تعاملت الإدارة الفرنسية مع أملاكهم بعد عودتهم .

* الرواية الشفوية

- شهادة إبراهيم جغابة : حيث تم الاستماع إلى شهادته في شريط مسجل له ، بمناسبة الذكرى المئوية لثورة العامري 1976 .

- شهادة بوزيدي إسماعيل: (حفيد بوزيدي عبد الله : أحد مجاهدي ثورة العامري)

- شهادة بن عيسى سعيد : (نقلا عن السيدة بن عيسى يمينه عمته ، إحدى سكان واحة الزعاطشة 1849).

واعتمدت في الدراسة على بعض المراجع ، من بينها كتاب شارل روبير أجرون 1919* Les Algériens Musulmans et la France 1871 الذي يعتبر من المراجع الهامة التي لا يستغني عنها الباحث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر و يتكون هذا المرجع من جزأين ، و وقد اعتمد صاحب الدراسة فيه على الوثائق الأرشيفية بعد زيارته لمنطقة سيدي بلعباس سنة 1947، وتمكنه من الإطلاع على الأرشيف قبل نقله إلى فرنسا ، فتحدث بكل موضوعية عن مصير الجزائريين المسلمين ، كما انفرد هذا المرجع بذكر مقاومة العامري ، حيث قام المؤلف بدراسة أسباب الثورة ، إلا أنه لم يذكر أي تفاصيل عن مراحلها

كما اعتمدت على كتاب عبد الحميد وزو:

L AURES AU TEMPS DE LA France COLONIALE EVOLUTION

، **POLITIQUE ECONOMIQUE ET SOCIALE 1837*1939** ، ويعد هذا الكتاب من

أشهر مؤلفاته ، حيث قام بدراسة منطقة لأوراس دراسة تفصيلية ، كما أنه قام بذكر أحداث لا توجد في مراجع أخرى ، لأن الكثير من الأخبار الواردة فيه تعد مفسرة ومكملة لبعض المراجع ، ومما زاد من قيمة الكتاب هو اعتماد المؤلف على المصادر الأرشيفية لدراسة المنطقة وقد اعتمدت على هذا المصدر في مختلف فصول الرسالة ، فقدم لي معلومات تاريخية مفصلة عن مقاومة الزعاطشة وعبد الحفيظ الخنقي ، إلا أنه أهمل ثورة العامري .

كما اعتمدت في الدراسة على المجلة الإفريقية (Revue Africaine) ، التي بدأت في الصدور سنة 1856 ، وتضم 105 عدد ، وتكمن أهمية هذا المرجع في احتوائه على بعض التقارير للضباط الفرنسيين ، واعتمدت عليها في دراسة الاهتمام الفرنسي بمنطقة الزيبان بالإضافة إلى حديثها عن المقاومة الشعبية بالمنطقة .

أما الرسائل الجامعية فقد اعتمدت على البعض ومن ذلك :

- محمد أوجرتي " أسرة بن قانة ومكانتها السياسية و الاجتماعية خلال العهد العثماني " .

- معاذ عمراني " أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين 19 و 20م " .

أما الدوريات فاعتمادي عليها كان بشكل كبير ، ونذكر منها :

الأصالة التي تصدرها وزارة الشؤون الدينية .

مجلة الثقافة التي تصدرها وزارة الإعلام والثقافة .

كما تم الاعتماد على بعض الملتقيات الدولية والوطنية التي لها علاقة بموضوع الدراسة

صعوبات البحث

أما عن الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث فيعرفها كل من عني بدراسة المقاومة الشعبية في القرن التاسع عشر ، فالبحث في تاريخ منطقة الزيبان في هذه الفترة الزمنية لم يكن سهلا وميسورا للأسباب التالية:

- قلة المراجع التاريخية التي تطرقت للموضوع ، وكل ما وجد منها لا يعدوا إلا إشارات مقتضبة وردت في دراسات عامة أو في مقالات وهذه القلة اضطررتني إلى قبول الشهادة الشفوية ، ولكن بعد إخضاعها لعملية التمهيص .

• إضافة إلى التضارب في المعلومات في هذه المراجع ، وتداخل الأحداث و الاختلاف في التواريخ والإحصاءات فيما بينها ، مما صعب في كثير من الأحيان عملية التخلص من ظاهرة التكرار.

• إن البحث في هذا الموضوع يحتاج إلى الإطلاع على الأرشيف الفرنسي خاصة وأن الدراسات العربية قليلة إن لم أقل نادرة .

ولكن الرغبة في إخراج تاريخ المنطقة إلى حيز الوجود ، جعلني أقوم بهذا المجهود المتواضع علني أستطيع تنوير الدارسين والمهتمين ولو بشكل يسير ، بتاريخ المنطقة وتراثها .

خطة البحث

قمت بتقسيم العمل إلى أربعة فصول : بالإضافة إلى تمهيد وخاتمة ، وقد تناولت في التمهيد أصل تسمية الزاب و الحدود الجغرافية لبلاد الزاب ، كما تحدثت فيه وبإيجاز عن الاهتمامات الفرنسية بالصحراء الجزائرية بصفة عامة ومنطقة الزيبان بصفة خاصة .

أما الفصل الأول فتطرق فيه إلى الاحتلال الفرنسي للزيبان سنة 1844 ، و الذي بدء التخطيط له مع سقوط قسنطينة سنة 1837 ، وفرار أحمد باي إلى المنطقة ، وقد بدأت بذكر أوضاع الزيبان قبل الاحتلال الفرنسي ، وما ميزها من الصراعات العائلية حول المشيخة بين (بن قانة وأولاد بوعكاز) ، والتي تطورت إلى حد التحالف مع العدو ثم تحدثت عن سقوط بسكرة في يد الفرنسيين يوم 4 مارس سنة 1844 ، وفيه توضيح للحملة الفرنسية ، بقيادة العقيد بوتافاكو **BUTTAFAKO** ، كما تعرضت لردود الأفعال الأولية حول احتلال عاصمة الزيبان ، والمتمثل في معركة مشونش في 15 مارس سنة 1844 بقيادة الشيخ الصادق بن الحاج ، ثم معركة بسكرة في ماي 1844 ، بقيادة محمد الصغير بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر .

أما الفصل الثاني فخصص لدراسة المقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في الفترة الممتدة بين (1844،1859) ، وقد بدأت بالحديث عن ثورة الزعاطشة سنة 1849 و أسباب هذه الثورة مع التركيز على الأسباب السياسية ، بغرض تكذيب الإدعاءات الفرنسية على أن أسبابها اقتصادية ، ثم تطرقت إلى الاستعدادات التي قام بها الثوار لتفجيرها ، والمراحل الثلاث التي مرت بها بدءا بمرحلة التفوق ووصولاً إلى مرحلة التراجع ، وفي الأخير تم الحديث عن القمع الفرنسي لهذه الثورة ، بالتركيز على إعطاء أمثلة حقيقية لإبراز شدة هذا القمع .

ثم درست مقاومة الزاب الشرقي التي تم تقسيمها إلى قسمين : القسم الأول والمتعلق بثورة عبد الحفيظ الخنقي (1849،1850) هذه الثورة التي كانت رمزا قويا لروح التضحية والصمود ، وأهم مراحلها هي معركة واد براز 17 سبتمبر 1849 بسريانة . و التي كان من نتائجها مقتل الرائد سان جرمان **Saint Germain** ، أما القسم الثاني فتحدثت فيه عن انتفاضة الصادق بن الحاج سنة 1859 ، مع عرض أهم المحطات التاريخية التي قادها الشيخ قبل تفجير الانتفاضة الكبرى سنة 1858 ، والمتمثلة في مساندته لواحة الزعاطشة 1849 ، وأخيرا تم التطرق إلى الانتفاضة الكبرى من حيث الأسباب والمراحل والنتائج ، والتي لم تختلف كثيرا من حيث القمع والتخريب عما حدث في واحة الزعاطشة .

أما الفصل الثالث فقد خصص للحديث عن ثورة العامري 1876 ، و فيه تم الحديث عن أصل البوازيد ، ثم قمت بدراسة الأسباب الرئيسية في تفجير الثورة ، كما تم تتبع مجرياتها ، وكيف أن العدو سخر كل الإمكانيات للقضاء عليها ليتمكن في الأخير من حرق الواحة وتهجير وتشريد عرش البوازيد عبر مناطق عديدة من الوطن وحتى خارجه لينتهي مصير الواحة إلى البيع بالمزاد العلني.

وجاء الفصل الرابع والأخير ليدرس العلاقة بين ثورة العامري والمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن التاسع عشر، فتم عرض العلاقة من الناحية السياسية ، و تحليل السياسة الفرنسية في المنطقة ، والتي كانت من أهم الأسباب المباشرة في قيام هذه الثورات

وكذا تم التطرق إلى العلاقة من الناحية الدينية و الاجتماعية ، والتي لعب فيها الوازع الديني الدور الأكبر و الفاعل ، ثم تناولنا دور زعماء الطرق الصوفية في تعبئة الجماهير الشعبية .

وأنهيت دراستي بخاتمة والتي كانت عبارة عن حوصلة للنتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة .

وفي ختام هذه المقدمة أرى من الوفاء لي ولهذه الدراسة توجيه الشكر، والتقدير و الامتنان لأستاذي الدكتور : **علي آجقو** الذي سدد خطاي في هذا البحث ، ولم يبخل علي بفيضه العلمي ، ولا بإثراء المنهج بتوجيهاته القيومية وبفضله خرج هذا البحث إلى الوجود .

قائمة المختصرات

ج: جزء.

ع : عدد .

ب ت ط : بدون سنة طبع .

ب د ط : بدون دار طبع .

مج:مجلد.

ط: طبعة.

ع ت :عدد تجريبي .

ع خ :عدد خاص .

RA : Revue Africaine

SD : Sans Date

DE : Deuxième Edition

R H M : Revue D'histoire Maghrébine

الفصل الأول

الاحتلال الفرنسي لمنطقة الزيبان

المبحث الأول : الأوضاع العامة لمنطقة الزيبان قبل

الاحتلال

الفرنسي.

المبحث الثاني: سقوط بسكرة في أيدي الفرنسيين 04 مارس

1844.

المبحث الثالث : رد فعل سكان الزيبان من الاحتلال الفرنسي

المبحث الأول : الأوضاع العامة لمنطقة الزيبان قبل الاحتلال الفرنسي

خضعت عاصمة الزيبان بسكرة لحكم الدولة الجزائرية في النصف الأول من القرن 17، حيث أوكلت إدارة المنطقة إلى عائلة بوعكاز¹ في الشمال وبني جلاب² في الجنوب . كما شكلت المنطقة تجمعا سكانيا تحت الإدارة السياسية لمدينة بسكرة ، وأهم ما ميز هذه التجمعات هو الطابع البدوي المعتمد على نظام العشابة ، و تبادل الخدمات في النقل بواسطة الإبل في مقابل دفع ضريبة أخوية³ .

كما شهدت المنطقة في هذه الفترة من الحكم صراعات عائلية حول المشيخة (بن قانة وأولاد بوعكاز) ، وذلك بسبب السياسة العثمانية التي اعتمدت على تقريب أسرة على حساب أسرة أخرى ، والتي لعبت دورا فاعلا في تغذية هذه الصراعات ، وكرد فعل لهذه السياسة عملت الأسر على التحالف فيما بينها، من أجل تجنب الخطر الذي أصبح يترتبها، ويعتبر التحالف الذي وقع بين ابن شنوف و أولاد بوعكاز ، نموذجا لنظام الحماية من جهة والأخذ بالثأر من جهة أخرى.⁴

حيث أن السياسة التي انتهجها الحاج أحمد باي في المنطقة تجاه بعض العائلات (أولاد مقـرّان في مدجانة وبن قانة في الزاب) ، كان لها الدور البارز في هذه الصراعات والنزاعات ، حيث قام الحاج أحمد باي سنة 1830 بإسناد منصب

¹ _عائلة بوعكاز : تتحدر جذورها من بني هلال ،وهي أسرة عريقة في المنطقة ،تميزت بالشرف والشجاعة ،أشهر زعمائها فرحات بن السعيد ، وتضم أولاد صاولة و الداودة أنظر:صالح فركوس : «مرجع سابق ،ص295.

² _ فترة حكم بني جلاب لمنطقة الزيبان تمتد من النصف الثاني من القرن 14 ميلادي إلى غاية بداية القرن 15،وتتحدّر جذور هذه العائلة إلى الأمير بن غانية من بني مرين وقد توجه إلى واد ريغ حيث اتخذها مقرا له،أنظر

Feraud (ch):« Notes Historique sur la province de Constantine, les bendjellab sultans de Touggourt »,RA,n°23,Alger, 1879,p164

كما تعاونت هذه الأسرة مع الإدارة الفرنسية ،حيث راسل السلطان عبد الرحمان شيخ توقرت الحاكم العام الجنرال فوارول VOIROL عارضا عليه ولائه، كما دفع له ضريبة الولاء المقدرة ب20الف فرنك أنظر، معاذ عمراني :« أسرة بني جلاب في منطقة واد ريغ خلال القرنين 19و20م،دراسة سيّلسية اجتماعية »،رسالة ماجستير،التاريخ الحديث و المعاصر،جامعة الأمير عبد القادر ،الجزائر، 2003 ،ص58.

³ _ أندري برنيان وآخرون : مرجع سابق ،ص383.

⁴ _ يعود سبب هذا التحالف لرغبة أحمد باي بن شنوف لثأر من عائلة بن قانة التي قتلت والده .أنظر : صالح فركوس :مرجع سابق ،ص296.

"شيخ العرب" ¹ بإقليم الصحراء لبوعزيز بن قانة²، وهذا ما اعتبرته عائلة بوعكاز إهانة في حقها كونها تزعمت المنطقة ولمدة طويلة، وهذا ما حمل زعيم أولاد بوعكاز³ على الرفض القاطع لقرارات الباي والإصرار على أحقيته بالمشيخة، فتحوّلت هذه الرغبة في القيادة إلى صراعات دموية بين العائلتين⁴.

ففي سنة 1831 رأى الحاج أحمد باي ضرورة تأديب فرحات بن السعيد⁵ نتيجة عصيانه، فاحتّمى هذا الأخير في واحة الزعاطشة، التي كانت تحت قيادة بوزيان بطل ثورة

¹ _ حسب فيرو: فإن أول من حمل اللقب هو أمير الذواودة والرياح علي بن بوعكاز بن السخري، ومنحه هذا الشرف باي قسنطينة، وجاء هذا اللقب الجديد ليخلف لقب أمير العرب. أنظر

Feraud (L) : « Les Descendants D un Personnage des mille et une nuits en Algérie », RA, n°32, Alger, 1878, p 233.

² _ وتتحدّر أسرة بن قانة من السلالة الشريفة " الشريف السيد الحاج بن قانة بن علي بن سليمان بن عبد العزيز بن محمد بن عمر بن خالد بن يونس بن إبراهيم بن منصور المكنى قانة بن محمد بن عبد الله بن عبد الملك بن العابد بن الحبيب بن أحمد بن عيسى ابن يوسف بن عدنان بن يوسف بن محمد بن داود بن عبد الغفار بن عيسى بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن علي بن عيسى بن داود بن المهدي بن مسعود بن موسى بن عزوز بن عبد العزيز بن جبار بن عمران بن سالم بن عبد الله بن أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة الزهراء " أنظر الملحق رقم 7 .

وأصل تسميتهم تعود إلى الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فكانوا يلفون على المنازل ويراقبون السكان (كنوات) ، خوفا من ردتهم وعندما يسأل عنهم يجابون بهذا لفظ: كان وكان. ولكن مع مرور الوقت تغيرت اللهجات، ومنطق الألسن للكنوات. أنظر الشارق عبد الله بن محمد :سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول ،المطبعة التونسية،تونس، 1929، ص150.

وحسب Féraud فإن جذور عائلة بن قانة تعود إلى "قرية كوكو المتواجدة في جبال جرجرة، أين كانت تعيش امرأة

اسمها قانة (ولهذا أصبح أبنائها وأحفادها يلقبون بن قانة) "وقد انتقلت للعيش بعرض العناقطة وتزوجت برجل من هناك

أنظر: Feraud (ch) : Le Sahara de Constantine, op.cit, pp88,

كما عمل محمود بن قانة في مهنة الحدادة، وتعرف من خلالها على أحمد القلي، هذا الأخير قصد لإصلاح حدائد فرسه، فتطورت العلاقة بينهما إلى حد المصاهرة حيث تزوج أحمد القلي بمباركة بنت بن قانة (والدة أحمد باي) أنظر محمد خير الدين :مذكرات ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، (ب ت ط)، ص 64.

³ - أنظر الملحق رقم : 19.

⁴ _ صالح فركوس: الحاج أحمد باي قسنطينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 48.

⁵ _ هو فرحات بن أحمد بن محمد بن السخري المدعو فرحات بن السعيد، ولد سنة 1786 نشأ في بيت عمه مع أولاده في سيدي خالد، أمه هي جرجة بنت الشيخ الحداد، تولى مشيخة العرب سنة 1821 ويعتبر آخر من تولى هذا المنصب من الذواوة والرياحين، وقتل بفعل الخديعة سنة 1842. أنظر فريدة قاسي : «الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1832*1847»، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، 1999، ص 197 .

1849، وقد رفض أتباع فرحات بن السعيد (أهل بن علي والغمرة) تسليمه، هذا ما اضطر بن قانة إلى ضرب حصار على الواحة، ولكن قواته فشلت في تحقيق النصر واقتحام الواحة، مما جعله يفقد خلال هذا الحصار وما تبعه من مناوشات يقارب 400 رجل¹.

وتعتبر سنة 1837 هي بداية المقاومة في منطقة الزاب، فبعد توقيع الأمير عبد القادر معاهدة التافنة شهر ماي من نفس السنة مع المستعمر الفرنسي، توجهت أنظار هذا الأخير نحو إقليم الشرق، الذي كان تحت سلطة الحاج أحمد باي، فعمل على توسيع نفوذه بالمنطقة فكون ثلاث ولايات.

1- ولاية برج حمزة: بزعامة أحمد الطيب بن سالم، وتضم جبال جرجرة، حوض الصومام وجزء من جبال البنيان الغربية.

2- ولاية مجانة: تحت قيادة محمد بن عبد السلام المقراني ثم أحمد بن عمر العيساوي والخروبي، وتضم الجزء الشرقي من جبال بنيان وسهول سطيف ومسيلة وجبال الحضنة.

3- ولاية الزيبان والصحراء الشرقية: وولى عليها على التوالي، فرحات بن السعيد والحسن بن عزوز و محمد الصغير بن عبد الرحمان بن أحمد بلحاج وتضم كل الواحات الصحراوية الشرقية، وعلى رأسها مدينة بسكرة².

كما تمكنت القوات الفرنسية في هذه السنة من إجهاض ثورة أحمد باي، وإسقاط آخر معاقل الدولة الجزائرية، بعد الحملة الثانية على مدينة قسنطينة يومي 13، 14 أكتوبر 1837، بالرغم من بسالة الأهالي في مواجهة القوات الغازية حيث أنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمامها، وإنما واجهوها بكل قوة وبسالة، واشتبكوا معها في قتال دموي عنيف، لم يقدر له النجاح بسبب اختلال ميزان القوى بين الجانبين، وتخاذل باقي مناطق الجزائر في الدفاع عن هذا المعقل نظر لضيق الأفق وعدم الخبرة السياسية، بل الأكثر

¹ _ محمد أوجرتي : مرجع سابق، ص 126

² _ يحيى بوعزيز : « مظاهر المقاومة ورواها في الشرق القسنطيني ضد الاستعمار الفرنسي في القرن 19»، الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ع79، 1980، ص89.

من ذلك توقيع معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر والسلطات الفرنسية ، والتي كان الغرض الأساسي منها تجنب منطقة الغرب ، خاصة بعد هزيمة فرنسا سنة 1836. وبهذا تمكنت القوات الفرنسية من السيطرة على المدينة ومد نفوذها، ولم يجد أحمد باي بديلا سوى التوجه رفقة بعض من أقاربه على رأس جزء بسيط من جيشه إلى الجنوب مستجدا بأصهاره من عائلة بن قانة في مدينة بسكرة¹. في محاولة منه لاستتفار القبائل الصحراوية، قصد تقديم يد العون والمساعدة لاسترجاع مدينة قسنطينة. وقد اقترح أحمد باي على مرافقيه التوجه إلى بسكرة من أجل الحصول على قوة يمكن الاعتماد عليها، ثم تكون بعد ذلك العودة إلى قسنطينة عن طريق عنابة، بضرب حصار على العدو وقطع الإمدادات عنه لإضعافه والقضاء عليه، إلا أن خاله بوعزيز بن قانة عارض هذا الاقتراح، وطلب من أحمد باي التوجه إلى الصحراء أولا للقضاء على الخطر المتربص بهم هناك، والتمثل في عدوهم التقليدي فرحات بن السعيد من عائلة بوعكاز وشيخ العرب في الزيبان وطرده، ومن ثم التوجه لمهاجمة القوات الفرنسية بقسنطينة ، واسترجاع الملك الضائع².

ورغم أن أحمد باي لم يقتنع بالنصيحة، إلا أنه لم يكن له شخص أقرب من بوعزيز بن قانة يعتمد عليه خاصة وأنه لم يتوقع منه أن يقترح عليه أمرا لا يحقق ما يريده أحمد باي ، ولكن بوعزيز بن قانة كان يهدف من وراء إحضاره إلى الصحراء الاستيلاء على أمواله، وخوفا من سيطرة خصمه فرحات بن السعيد على منطقة الزاب بعد فشل مشروع الباي، كما ذكر ذلك أحمد باي في مذكراته³.

حينما كان أحمد باي يستعد لتنفيذ اقتراح خاله و ذلك بعد يومين من سقوط قسنطينة، اتصل به مبعوث من قبل قائد القوات الفرنسية في معسكره - بأم الأصناب - حيث قدم

¹ _ إبراهيم مياسي: «احتلال بسكرة 1844»، الخلدونية، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر، ع02، 2003، ص36

² _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، ط1، دار البعث، الجزائر، 1980، ص45.

³ _ أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة : مذكرات، ترجمة محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، ص ص76، 77.

له رسالة جاء فيها: "تعالوا أطلبوا الأمان ، استسلموا سرّيا سنبعثكم إلى فرنسا"¹. رغم أن أحمد باي رفض هذا الطلب ، لكن القائد الفرنسي استمر في إرسال الوفود لإقناعه. إلا أن هذه الاتصالات باءت بالفشل لأن أحمد باي كان أمّله في نجدة السلطان محمود الثاني له كبيراً²، لكن الباب العالي خيب أمّله ، ورغم اليأس والإحباط الذي اكتنف الباي ، إلا أنه بقي صامداً، وتجلّى ذلك الصمود في رفضه إبرام الاتفاقية التي اقترحها عليه فالي (Valée)³ بل صمم على استرجاع بايلكه لآخر نفس⁴.

ورغم أن أحمد باي لم يكن مقتنعاً بفكرة خاله بالتوجه إلى الصحراء ، إلا أنه رضخ في الأخير ، حيث توجه إلى بسكرة ماراً بالقنطرة ومنها إلى الأوراس حيث شرع في تنظيم المقاومة، وعند حلوله ببلدة لوطاية علم بالتحالف الذي أبرمه فرحات بن السعيد مع أولاد عبد النور و الحضنة ، وعن هجومه على مدينة بسكرة وتحقيقه نصراً كبيراً، واحتجاز عدد كبير من الرهائن وذلك بقصد التقرب من فرنسا⁵.

كما أنه قام بمراسلة المارشال فالي ، طالباً منه تقديم يد المساعدة ، قصد القضاء على أحمد باي وإين قانة، في المقابل اعترف فرنسا به كشيخ للعرب⁶ .

وفي هذه الفترة قام الأمير عبد القادر بالاتصال بفرحات بن السعيد لبحث سبل مد نفوذه. ولكن فالي عندما علم بالأمر رفع تقريراً إلى السلطات الإدارية في الجزائر العاصمة يوم 04 جانفي 1838 يقترح عليه تعيين فرحات بن السعيد كقائد على قسنطينة ، مكان الشيخ حمود بن الفكون لكونه الأجدر بالحكم بعد أحمد باي المبعد، وكذلك دراسة إمكانية جعل بسكرة عاصمة لبابلك جديد ، وتنصيب فرحات بن السعيد على رأسه ، كما

¹ _صالح فركوس :الحاج أحمد باي ، مرجع سابق ،ص 72.

² _صالح فركوس :المرجع السابق ،ص 74.

³ _ هو Valée Comte ولد في Brienne في 17 ديسمبر 1773 ،بعد معركة موزايا Mouzaia، 12 ماي 1840، تم تعيينه قائد قاطعة قسنطينة، توفي في فرنسا سنة 1846. أنظر :

Jeanne et André Brochier : **Livre d'or De L'Algérie**, Baconnier Frères, Alger, 1937,p292.

⁴ _ محمد العربي الزبيري : « المقاومة في الجزائر 1830*1848 »، الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ع31 ، 1976، ص 75.

⁵ _ إبراهيم مياشي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1999، ص 45.

⁶ _صالح فركوس :إدارة المكاتب العربية ،مرجع سابق ،ص 298.

شرح له الدوافع والأسباب التي حملته على طلب هذه الاقتراحات ،وقد تمت الموافقة على اقتراحه في تعيين فرحات بن السعيد وكان ذلك في 17 جانفي 1838¹.

وعليه فإن الحنكة والدهاء التي تميز بهما المارشال فالي ، كانتا السبب في تغيير مجرى الأمور بالنسبة للثورة الشعبية في الجنوب القسنطيني حيث يقول برنارد أوغستين (Bernard Augustin): إن العمل الأساسي الذي قام به فالي، هو تنظيم إقليم قسنطينة، فطبق فيها أساليب السياسة الخاصة بمعاملة الأهالي، تلك السياسة التي أصبحت فيما بعد تطبق على مستوى القطر الجزائري بأكمله وقوام هذه السياسة، هو إسناد إدارة البلاد إلى الأعيان من الأهالي تحت إشراف القائد الأعلى للإقليم ، وذلك أن فرنسا لم تكن تريد أن تحكم البلاد حكما مباشرا، فقسمت السلطة ووزعتها على عدة رؤساء².

وفي 30 سبتمبر 1838 أصدرت الإدارة الفرنسية مجموعة من القرارات التي تركت أثرا عميقا في تاريخ الجزائر وكانت بمثابة نقطة الانطلاق لعلاقاتها مع العائلات الكبرى في إقليم قسنطينة ، وبلغ عدد هؤلاء الأعيان خمسة هم :ابن عيسى، حملاوي ، علي بن أحمد ، مقراني ، فرحات بن السعيد³.

أما أحمد باي فقد توجه من لوطاية إلى طولقة ، أين عسكر بالقرب من زاوية سيدي رحال بين فوغالة والعامري ، وبدأ يعد نفسه لشن هجوم على فرحات بن السعيد، وتشابكت القوتان في منطقة "الصغيرة"⁴.

وقد تكبدت قوات فرحات بن السعيد وأنصاره من أولاد بن قانة خسائر كبيرة في الأرواح ،حيث قدرت بـ 700 رجل كما أنه عمل على تأديب بعض الواحات الموجودة في الزاب القبلي والزاب الظهر اوي، بسبب مد يد العون والمساعدة لفرحات بن السعيد⁵.

¹ _ أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص، 95، 96.

² _ مصطفى الأشراف:الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 60.

³ _ مصطفى الأشراف: المرجع السابق، ص 61.

⁴ _ Féraud (ch):« Notes Historique sur la province de Constantine, les ben djellab sultans de Touggourt», RA,n°26,Alger,1882,p377

⁵ _ نصر الدين سعيدي:دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصرة)، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص226.

وكان فرحات بن السعيد قد طلب الإمدادات والمساعدة من الفرنسيين، وبدل من إرسال مساعدات عسكرية أرسل له قرار تعيين بن عيسى خليفة أحمد باي، قائدا على المنطقة، عندها بدأت تساوره الشكوك حول موقف فرنسا نحوه وتخليها عنه، فلم يجد فرحات بن السعيد من حل سوى التودد للأمير عبد القادر، وكسب دعمه إلا أن الحسن بن عزوز¹ (الكاتب الخاص لفرحات بن السعيد)، قام بمراسلة الأمير عبد القادر سرا بمساعدة سي السنوسي طالبا منه تعيينه خليفة له وذلك من أجل القضاء على أحمد باي وأعوانه، حيث توجه الحسن بن عزوز بنفسه إلى الأمير، الذي أعجب بشخصه كثيرا فعينه خليفة على الزيبان 1838.²

ورجع بن عزوز إلى الزيبان رفقة الخليفة البركاني، وحضي هذا الأخير باستقبال خاص من قبل فرحات بن السعيد، الذي كان ينتظر توليته خليفة على الزاب، ولكن البركاني جاء بقرار تعيين الحسن بن عزوز³ كما منحه قوة عسكرية قوامها 700 جندي و1200 فارس وعدد من الأسلحة والذخيرة، ودخل بسكرة وحرص على طرد الحاج أحمد باي وأولاد بن قانة الذين فروا إلى الشمال وتم تنصيبه خليفة جديد.⁴ وبهذا تم إقصاء أنصار أحمد باي من بسكرة سنة 1838.⁵

كما عاود فرحات بن السعيد مراسلة الفرنسيين، ولكن كشف أمر رسوله ووقعت رسالته في يد الحسن بن عزوز الذي حولها إلى الأمير عبد القادر لكن الرسالة لم تصله لأنها وقعت في يد أناس يحقدون عن الحسن بن عزوز، فقاموا بإرسالها إلى خصمه بن قانة، وبهذا كشف أمره، وأمر الأمير بمعاقبته وسجنه في تاكدمت⁶ مدة من الزمن. وأصبح

¹ _ لعبت أسرة الحسن بن عزوز أدوار مختلفة في الحياة اليومية للجزائر وذلك قبل الاحتلال وخلالها وتنتمي هذه الأسرة إلى زاوية الرحمانية ببرج بن عزوز ومن أشهر عناصرها محمد بن عزوز الذي أخذ الطريقة عن عبد الرحمان باش تارزي ثم المكي بن عزوز الذي نشر الطريقة الرحمانية بتونس.

² _ أحميدة عميراوي: من تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 163.

³ _ فريدة قاسي: مرجع سابق، ص 187.

⁴ _ حيث قال له البركاني عن هذا التنصيب (هكذا ذهب رسولنا و عدت خليفة) كما وعده بالمساعدة

⁵ _ جمال قنان: دراسات في المقاومة والاستعمار، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1998، ص58.

⁶ _ وهي مدينة تيارت الآن.

مضرب المثل¹ التالي في المنطقة : " الضبع ميده القارة ومعه ثعلب الغيران تغامزوا على سيد الغابة " ² .

وبعد أن تبخرت آمال أحمد باي في استرجاع قسنطينة، قرر أولاد بن قانة الانفصال عنه والتعاون مع القوات الفرنسية، فقام بن قانة بمراسلة الجنرال **غالبوا** (Galbois) حاكم قسنطينة، طالبا الأمان متعهدا إياه بطرد بن عزوز وتوسيع نفوذ فرنسا إلى أعماق الصحراء وقد تم اختيار بن قانة وعزيز لعدة اعتبارات أهمها:

- المكانة التي يحظى بها بين الأهالي حيث أنه ينتمي لإحدى أعرق الأسر في المنطقة وتأثيره الكبير فيها.

- خبرته السياسية ذات الباع الطويل وتقديمه خدمات جليلة لحكام الجزائر وإخلاصه لهم .

- الثراء الكبير الذي يتمتع به بسبب أملاكه العديدة في قسنطينة وضواحيها .
وبهذا تم تعيين شيخ العرب بوعزيز بن قانة فأستسلم للعدو، ليدفع ثمن استسلامه التخلي عن القضية الوطنية ومبادئه التي جعلت الأهالي يكونون له بسببها كل الاحترام والتقدير، فخان هذه الثقة ليقبض ثمنها منصب خليفة، وهذا دليل على أن صراعه مع فرنسا من جهة، وفرحات بن السعيد من جهة أخرى لم يكن من أجل المصلحة العامة، وإنما بسبب أهداف شخصية ، فصدر قرار التعيين في 14 جانفي 1839³.

بعد هذا التعيين، أمر الدوق دومال (Duc D'auMAL)⁴، بمنح عائلة بن قانة

¹ _ وشرح المثل: الضبع هو: الحسن بن عزوز ، ميده القارة : ربوة صغيرة أمام واحة زعاطشة ترعرع فيها الحسن بن عزوز و ثعلب الغيران: هو أحمد بن الحاج ، وسيد الغابة : هو فرحات بن سعيد .

² _ إبراهيم مياشي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، دار هومة ، الجزائر ، 2005 ، ص 34

³ _ أنظر الملحق رقم : 1

⁴ _ هو الابن الخامس للملك لويس فيليب Louis Philippe ، عاش في الجزائر فيما بين (1840-1848) ، وقد كان دائما له الدور الفعال في مجريات الأحداث في فترة حكمه ، في 1842 وصل إلى أعلى رتبة عسكرية يوطنا جنرال ، ثم عين قائد مقاطعة قسنطينة ، قاد حملتين عسكريتين الأولى لاحتلال منطقة الزاب والثانية لاحتلال جنوب سطيف ، وفي سنة 1847 وضع النقاط الأخيرة للاحتلال النهائي والتام للجزائر، وذلك بعد قضائه على مقاومة الأمير عبد القادر ، وقد سلمه سيفه الذي أرسله إلى القائد Lamoricière أنظر : Jeanne et André Brochier , op.cit. , p 29.

156.487.4 هكتار، وهي في معظمها أملاك خصمه الأمير عبد القادر¹، كما شرع بوعزيز بن قانة، في تنظيم وترتيب إدارته في الجنوب كما أنه بدأ يعلم الأهالي بقرار تعيينه، مما أثار حفيظة خصمه حسن بن عزوز الذي قام باستفزاز بن قانة وذلك بقتل مبعوثين له.

فأعلن الأخير الحرب عليه، وطلب العون من فرنسا لكنها خذلتها كما فعلت من قبل، ووقعت معركة بين الطرفين في 24 مارس 1840 واستطاع بن قانة من خلالها أن يلحق هزيمة نكراء بقوات بن عزوز، الذي تكبد خسائر فادحة في الأرواح والعتاد.² وقد عبر فالي عن عظيم سعادته بهذا الانتصار الباهر، الذي استطاع أن يحقق مكاسب هامة لفرنسا في الصحراء الجزائرية.

ونتيجة لهذه الهزيمة، قام الأمير عبد القادر بعزل الحسن بن عزوز. وتعيين مكانه فرحات بن سعيد بعد أن أطلق صراحه، حيث تعهد هذا الأخير بالولاء والطاعة، كما تمكن من شد الخناق على القبائل الموالية لابن قانة خلال سنتي (1840، 1841)، واستمر في هذه السياسة رفقة الحاج مصطفى إلى أن تم قتله من طرف أولاد بوزيد بأولاد جلال سنة 1842.³

فأرسل بوعزيز بن قانة رسالة في 20 نوفمبر 1842 إلى الحاكم العام فالي بواسطة حاكم قسنطينة يخبره فيها ما يلي: "يسرني أن أعلمكم أن فرحات بن سعيد خليفة الأمير عبد القادر بالصحراء قد قتل في معركة نشبت بينه وبين عرش البوازيد وقعت غربي الصحراء، واستطاع شيخ العرب بوعزيز بن قانة أن يأخذ خاتمه وسيفه وأرسلهما إلي⁴."

كما تحدث شارل فيرو عن هذا الموضوع بقوله: "تأمر قويدر بن نعيم البوزيدي مع بن قانة بوعزيز لقتل فرحات بن سعيد، حيث اتصل قويدر بن نعيم بهذا الأخير ليبلغه

¹ _ أحمد حسين سليمان: «نزع الملكية العقارية للجزائريين 1830*1871»، مصادر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ع 06، 2002، ص 120.

² _ إبراهيم مياشي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837*1934، مرجع سابق، ص 35.

³ _ إبراهيم مياشي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص 57.

⁴ _ محمد خير الدين: مرجع سابق، ص 63.

بمرض صديقه الشيخ عمار الشنيتي، وعند مرور فرحات بن السعيد بقبيلة قويدر طلب منه أحد أعيانها النزول وقراءة رسالة أرسلها الحاج أحمد باي، فلبى فرحات بن السعيد طلبه، وبمجرد شروعه في قراءة نص الرسالة حتى فوجئ بطعنة خنجر بين كتفيه أردته قتل، فاستحوذ قويدر بن نعيم على سيف وختم فرحات بن السعيد وقام بإرسالهم إلى بن قانة¹.

وقد استاء الأهالي بمقتله لما يمثله من رمز للبطولة والشجاعة فجادت قرائهم بهذه الأبيات الشعرية الشعبية :

يا فارس إلى جيت تسير
رد جوابي عني عاود الأخبار
عرق الجواد غطى الدير
رد الجواب عني يا راعي الصبار
كيفاه مات حرمة أهل بن علي
فرحات الداودي حرمة من جار...
كيفاه مات زين الفرسان
كيفاه فرحات من سرجه طار
يوم البارود لاسلاك الدين
قتله الطمع بن قانة الغدار
يا الخيال تسيروا
ابكوا يا رجال على خلاص الثار²

¹ _ محمد خير الدين :مرجع سابق ،ص 63.

² _ FERAUD (ch):« Notes Historique sur la province de Constantine, les ben djellab sultans de Touggourt»,RA,n°28,Alger ,p p ,334,336.

كما أن فقدانه يعتبر خسارة حقيقية للمقاومة الجزائرية، ولكن على الرغم من هذه الخسارة إلا أن روح المقاومة لم تنقص في نفوس القبائل التي عملت على توحيد صفوفها وجمع إمكانياتها بهدف طرد الدخيل.

وفي سنة 1841 قامت القيادة الفرنسية بعزل حاكم قسنطينة فالي وتعين مكانه بيجو الذي اتبع سياسة استبدادية، فقد سعى بكل قوته للقضاء على المقاومة وذلك بملاحقة الأمير عبد القادر وتشديد الخناق عليه خاصة في منطقة الزيبان¹.

كما عمل على تشجيع السكان على الالتفاف حول الزعامات الجديدة²، ودعمها والتخلي عن الزعامات التقليدية التي تكن كل الكره والحق للاستعمار وقد رتب بيجو الزعامات الجديدة كمايلي :

• شيخ الدوار .

• الفرقة .

• الخليفة والحاكم³.

وبعد الجريمة التي أودت بحياة فرحات بن سعيد، استغل الأمير عبد القادر فرصة هجرة بن قانة إلى الشمال (البحث عن مناطق الرعي) مع أنصاره 1842، واتصل بأحمد بن الحاج المعروف بمحمد الصغير، قائد مدينة سيدي عقبة ، الذي أبدى ولاءه للأمير فعينه خليفة له على الزيبان⁴.

¹ _ أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1992، ص 228.

² _ يقول المؤرخ الفرنسي Louis Rinn حول هذا الموضوع " إن سبب استتجاد فرنسا بهذه العائلات ، أنه لم تكن في حاجة إلى رجال الإدارة ولا إلى موظفين بل كنا في حاجة إلى حلفاء من ذوي السلطان والجاه أي إلى قوم يمكن بمالهم وحبهم ونسبهم أن يكونوا خير رسل لنا لدى الأهالي الذين استطاع الأمير أن يؤثر فيهم باسم الإسلام وقد يكون من السخف بمكان أن نتوقع من هؤلاء الحلفاء الذين لم نكن نحلم بهم، إذ عرضوا علينا فتح مناطق لم نكن نعرفها ، ولم تطأها أقدامنا من قبل ، شيئاً آخر غير الدعم السياسي والعسكري ، وكذلك كان الأمر " أنظر :مصطفى الأشراف ، مرجع سابق، ص 61.

³ _ أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص 232.

⁴ _ أحميدة عميراي: من تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 163.

ولما عاد بن قانة من المناطق التالية علم بالأمر، فأرسل لمحمد الصغير بولخراس يطلب منه العدول عن رأيه ، لكنه أصر على تحالفه مع الأمير، وفي ماي

1843 قام بن قانة بتجهيز قواته وبمساعدة بعض الكتائب الفرنسية له ، وتوجه لمحاصرة محمد الصغير لكن هذا الأخير صمد وقاوم رفقة أنصاره صمود الأبطال ورفضوا الاستسلام ، وهذا ما أدى إلى استمرار القتال لعدة أيام ، وأمام فشل بن قانة في إحراز النصر ، قام بقطع المياه عن واحة سيدي عقبة ، كما تحالف في هذه الفترة بن شنوف مع محمد الصغير، بعد تخليه عن بن قانة ، فأرغم هذا الأخير على فك الحصار بعد أن وقفت الطبيعة ضده بسبب هبوب عاصفة هوجاء ، كانت في صالح محمد الصغير وحليفه . وعاد إلى بسكرة منهارة القوى ، فاستغل محمد الصغير الفرصة وقصد بسكرة من جديد¹ .

بينما بن قانة قام برفع تقرير للسلطات بقسنطينة وشرح لهم حالة الأوضاع في المنطقة خاصة الأمنية منها ، بشيء من التضخيم من أجل تحفيز الفرنسيين على الإسراع في تقديم الدعم له وبالفعل استجابت فرنسا لطلبه ، وجهز الدوق دومال الذي حملة كبيرة لتخليص الصحراء بصفة عامة ، وبسكرة بصفة خاصة من سيطرة قوات الأمير، وأحمد باي الذي انسحب إلى أولاد سلطان بعد فشله في استرجاع قسنطينة في 1841 بعد معركة واد الطاقة².

¹ _ إبراهيم مياشي: «احتلال بسكرة 1844»، مرجع سابق، ص 38، 39.

² _ صالح فركوس :الحاج أحمد باي ، مرجع سابق ص 86.

المبحث الثاني : سقوط بسكرة في أيدي الفرنسيين 04 مارس 1844

بعد أن طلب ابن قانة المساعدة من فرنسا ، لبث هذه الأخيرة طلبه و انطلقت الحملة الفرنسية من قسنطينة في 07 فيفري 1844، بقيادة العقيد بوتافاكو (Buttafaco)، مكونة من فرقة مشاة بقيادة العقيد فيدال والخيالة تحت قيادة نوال (Noël) وقسم المدفعية بقيادة الجنرال ليهين (Lyhine) ، كما تدعمت بقوات من سطيف مقدر بـ: كتيبتان و 200 حصان بقيادة الجنرال كيسلاق ، وعند حلولها بمدينة باتنة تمركزت القوات بها ، حيث حولتها إلى مركز عسكري للتموين ، و قيادة العمليات ، أما سبب اختيار المكان فيعود إلى قرب من منطقة الزيبان ، كما أنه يعتبر حلقة وصل بين الشمال والصحراء ، وذلك حسب التقرير الذي أرسله دوق دومال إلى الجنرال بيجو في 9 جوان 1844¹.

وبعد تجمعها بقيت تنتظر قدوم بعض القوات من المناطق المساندة لها وتمثلت في 1000 من الإبل ، التي وعد بن قانة بإرسالها لحمل متاع وسلاح الجيش ، وبوصول الإمدادات تحرك الجيش صوب بسكرة ، و لم تكن رحلته سهلة أبدا ، وذلك بسبب اعتراض طريقه بعض الانتفاضات ، أهمها ثورة أولاد سلطان بالقرب من القنطرة في 25 فيفري 1844 ، أولى أقاليم الزيبان².

مما دفع بالعقيد بوتافاكو إلى إرسال أربع سرايا و 200 جواد بقيادة غويار للقضاء على تلك المقاومة ، حيث تمكنت قوات العدو من صدهم وألحقت بهم الهزيمة فقتلت 15 مقاوم ، و أجبرت الناجين منهم على الفرار مما فتح الطريق أمام العدو الفرنسي للتوغل في قلب الصحراء واحتلال عاصمة الزيبان بسكرة³ .

وبسقوطها سقطت آخر المعاقل التركية بالجزائر التي يمكن لأحمد باي أن يلجأ إليها⁴. ولقد تضاربت المواقف حول الاحتلال ، ففيما سارع بعض زعماء القبائل لنجدة

¹ _ Abdelhamid Zouzou : L' AURES Au Temps De La France Coloniale Evolution Politique Economique et Sociale 1837*1939, tom1, DE, édition distribution Houma, Alger, 2002 pp 185,186.

² _ أنظر الملحق رقم :12.

³ _ Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra, Alger, 1998, p3.

⁴ _ Abdelhamid Zerdoum : Les français a Biskra 1844-1962, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra, Alger 1998, p5.

المدينة ومن بينهم الصادق بن الحاج وعبد الحفيظ الخنقي ، اتخذت الزاوية التيجانية¹ بقيادة الشيخ علي تيماسين موقف الحياد ، وذلك لخوف قائدها من الدخول في مواجهة مع فرنسا، إضافة إلى المضايقات الكبيرة التي تعرضت لها الزاوية (عين ماضي) على يد الأمير عبد القادر سنة 1838 وقد عبر عن ذلك العقيد دنفو (De-Neuveu) " ربما لولا الاعتداءات العديدة والمتكررة ضد سيدي أحمد التيجاني وحرب الأمير عبد القادر الغير عادلة ضد ابنه، لانتهج الحاج علي سلوكا مناقضا ،حول التغيرات التي حلت بالمنطقة وأهمها الاحتلال الفرنسي لحاضرة الزيبان بسكرة²

وبعد هذه الحوادث واصلت الحملة طريقها في 25 فيفري 1844 في محاولة منها لإحكام السيطرة على المناطق المجاورة ، حيث تمكن الدوق مونتبونسييه (MONTPENSIER)- أخ قائد الحملة- من السيطرة على الطرق المؤدية إلى القنطرة ،حيث سلكت طريق جبلي ضيقة³ رومانية (شيدت في العهد الروماني) ،ولم تعد مستعملة وذلك لصعوبة منحدراتها⁴ . كما أخضع مكماهون (Mac-Mahon) قبيلة بني معراف التي تقطن بالسفوح الجبلية المجاورة للأوراس⁵.

وفي 04 مارس 1844 تمكنت قوات العدو من دخول المدينة ، بدون أي ثورة بعد أن فر منها محمد الصغير بالحاج قبل وصول الحملة بمدة . وبهذا تمكن الجيش الفرنسي من إخضاع منطقة الزيبان ، التي أعلنت له الولاء في مقابل الحماية ، كما أنه أظهر إعجابه الكبير بجمال المنطقة الطبيعي (الرمال والنخيل) ، والاقتصادي لما تحتويه على ثروات هائلة⁶.

¹ _ مؤسسها هو شيخ أحمد التيجاني في قرية تماسين (قرب توفرت) وقد تولى ابنه حاج علي قيادة الزاوية بعد وفاة والده .1815.

² _ يوسف تلمساني: «موقف الزاوية التيجانية من الاحتلال والمقاومة»، الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص ص 38،39

³ _ أنظر الملحق رقم: 18

⁴ _ Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France, op.cit,p33.

⁵ _ Abdelhamid Zerdoum : leçons d'histoire et polémique a Biskra 1830*1962, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra, Alger ,2000, p5.

⁶ _ محمد صالح العننري: فريد منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (تاريخ قسنطينة)، مراجعة وتقديم: يحيى بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 164.

وبعد هذا الانتصار شرع الدوق دومال في تطبيق سياسته قصد إحكام السيطرة على منطقة الزيبان ، حيث قام بإرسال مجموعة من الضباط الذين يحسنون اللغة العربية إلى القرى ، لمراقبة الأوضاع والتأكد من خضوع هذه القرى وولائها ، ونذكر منهم الرائد توماس (Thomas)¹ النقيب دونفو (De-Neuveu) ، والنقيب فورنيه (Fournier)² والنقيب ديسفو (Desvaux)³ ، كما أنه قام بمصادرة أملاك المجاهدين الفارين والذين لم يسلموا أنفسهم بعد قدوم الحملة، إضافة إلى معاقبة المقاومين الذين تم أسرهم وحجز أملاكهم ، كما أنه زج في السجون بالعديد من المشاغبين على حد قوله بتهمة التشويش وأمر بتجهيز قوة عسكرية مكونة من 300 رجل لمهاجمة " قصبة بسكرة " ⁴ ووضعها تحت تصرفه . وفي الأخير أقام حامية عسكرية تتكون من الرماة تحت تحت قيادة الرائد توماس التي أعطيت له تعليمات من أجل تنظيم المدينة عسكريا وإداريا وإقامة ثكنة بالقصبة ⁵ .

وبعد هذه السلسلة من الإجراءات، أكمل الدوق دومال المسيرة في محاولة منه للتوغل أكثر في أعماق الزيبان والقضاء على كل جيوب المقاومة ضد فرنسا . فقصـد في 7 مارس 1844 واحة سيدي عقبة ⁶ ، حيث ذكر النقيب كارات (Carette) قائلاً : " حللنا بمسجدها أين يوجد ضريح القائد العربي عقبة ابن نافع الفهري " ⁷ .

¹ _ هو Thomas Joseph ولد في Hambourg هو خريج مدرسة Sain Cyr 1829 قدم إلى الجزائر 1834

استقر في قسنطينة حتى سنة 1847، عين قائد على وهران 1857 ، ثم على جيجل فتلمسان ، توفي في 27 ماي 1859

أنظر : Jeanne et André Brochier , op.cit. p 287

² _ هو Fournier Pierre ولد في 16 جوان 1859 في الجلفة ، بعد أن استقرت عائلته بها في 1852 ، عمل بالصناعة

في المدينة ، وفي سنة 1876 استثمر أمواله لابتكار مطحنة في المسيلة ، وفي سنة 1857 عمل كمستشار بلدي لمدة 30

عاما ، أنظر : Jeanne et André Brochier , op.cit. p 137

³ _ هو Nicolas Gilles Toussaint Desvaux ولد في باريس في 6 نوفمبر 1816 ، هو خريج مدرسة سلاح الفرسان ، استقر

في الجزائر بين 1840-1859 ، وفي سنة 1852 ترقى إلى رتبة كولونيل ، ثم إلى قائد مقاطعة توقرت ، ثم لواء 1855 ، غادر الجزائر

إلى إيطاليا للقيام بدورة تكوينية ، أُحيل إلى التقاعد سنة 1881 . أنظر : Jeanne et André Brochier , op.cit., p 115.

⁴ _ حيث قام محمد الصغير بن أحمد بلحاج بإخلائها قبل فراره ، بعد وصول أنباء عن الحملة الفرنسية إلى المنطقة

⁵ _ صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية ، مرجع سابق ، ص 304.

⁶ _ الواقعة على بعد 16 كلم جنوب شرق بسكرة.

⁷ _ Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France, op.cit. p6.

وبعد مرور عشرة أيام أعلن قائد الحملة أن العديد من القرى والقبائل الرحل قد قدمت فروض الطاعة ، بدفعها الضرائب والتي قدرت ب 150 ألف فرنك، وعلى الرغم من الارتفاع الكبير لقيمة الضرائب ، و التأكيد الفرنسي بأن الاستسلام والخضوع كان عاما ، إلا أن ملامح الرفض فرضت نفسها على ساحة الأحداث رغم الإصرار الفرنسي على إنكارها ، وخير دليل على ذلك ما أظهره أهالي مشونش .

فبمجرد وصول القوات الفرنسية إلى المناطق المتاخمة لجبل أحمر خدو، حتى احتدمت المعارك بين الطرفين في العديد من المناطق ، منها : القبائل المجاورة لجبل أحمر خدو، ولقد أبدى الثوار من البسالة وقوة الرفض وعدم الاستسلام ما أدهش العدو، حيث فقدت القوات الفرنسية في هذه المعركة 06 جنود منهم الضابط بوران ، كما أصيب 16 آخرين بجروح . أما من جانب المقاومين فقد استشهد ما قارب 14 مجاهد معظمهم من سكان مشونش ¹.

وبعد هذه المعركة اعتقد الدوق دومال أنه تمكن من القضاء على المقاومة وللأبد، وأن الصحراء قد فتحت له أبوابها على مصراعيها، ولكن الواقع أثبت له عكس ذلك ،

فبمجرد وصوله إلى بسكرة وصلته أنباء مفادها أن أولاد سلطان (أنصار أحمد باي) قد ثاروا من جديد فتكبد عناء إخماد هذه الثورة في مدة تجاوزت 10 أيام². وقد أثبتت هذه الثورة للدوق دومال أن مهمته في إحكام السيطرة على بلاد الزاب والتوغل إلى الصحراء لن تكون سهلة وبسيطة كما كان يعتقد .

¹ _ عبد الحليم صيد: أبحاث في تاريخ الزيبان، مرجع سابق، ص 52.

² _ إبراهيم مياسي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص 65.

المبحث الثالث : رد فعل سكان الزيبان من الاحتلال الفرنسي

مع وصول الحملة الفرنسية إلى منطقة بسكرة في شهر مارس 1844 ، قصد القضاء على قوات الأمير عبد القادر ، و الاستيلاء على عروس الزيبان ، شعر الشيخ الصادق بن الحاج بالخطر الجسيم الذي أصبح يهدد المنطقة لذلك أعلن رفضه الاتصال بالفرنسيين أو التعاون معهم .

فبعد مغادرة محمد الصغير بن أحمد بن الحاج مدينة بسكرة ، اعتصم بجبال الأوراس و بالضبط بواحة مشونش ، استقبله سكانها بصدر رحب ، و عاهدوه على الوقوف بجانبه ضد العدو الغاصب و أطماعه ، خاصة بعد أن بدأ العدو في الاستعداد لاستكمال سيطرته على الواحات المجاورة لبسكرة ، قصد تهمين مخططاته في إحكام سيطرته ، فكانت واحة مشونش من بين المناطق التي شملتها هذه الأطماع ، والهدف من وراء ذلك مد جذوره في بلاد الأوراس بعد إحكام سيطرته على منطقة الزيبان كما كان يتخيل له ¹.

إضافة إلى الاستيلاء على ثروة أحمد باي التي تركها في مشونش قبل رحيله ، و لأن الشعب الجزائري واحد ، جاء الرفض من الأوراس لا يقل حدة عن رفض الزيبان للتواجد الاستعماري ².

1. معركة مشونش ³ 15 مارس 1844

فما إن كشف الشيخ الصادق بن الحاج عن النوايا الاستعمارية ، و ذلك بعد خروج الدوق دومال على رأس قوة كبيرة قاصدا واحة مشونش، حتى قام بإرسال ابنه إبراهيم لنجدة الأهالي هناك من الخطر الفرنسي ، الذي بدأ يقترب منها شيئا فشيئا ⁴.

فأنطلق الشيخ إبراهيم بن الصادق بن الحاج من جبل أحمر خدو على رأس قواته متجها نحو مشونش، فالتقى بالشيخ محمد الصغير بن أحمد بن الحاج و اجتمع المجاهدون في دار محمد أمقران (الذي كان مقدم الزاوية الرحمانية لمشونش)، و قد تحولت هذه الدار

¹ _ محمد العيد مطمر : « الاحتلال الفرنسي للأوراس »، أضواء الأوراس التاريخية ، ع ت، 2006، ص 39.

² _ Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France , op.cit. p 9.

³ _ مشونش تقع في الجزء الشمالي الشرقي لعاصمة الزيبان على مسافة 30 كلم ³ ، عند نهاية سلسلة من الجبال بين بسكرة و أريس .

⁴ _ عبد الحليم صيد: أبحاث في تاريخ الزيبان، مرجع سابق، ص 53.

إلى مركز قيادة حيث كانت تصدر منها أوامر والتعليمات الإشارات إلى الثوار المنتشرين عبر واحة مشونش.¹

وفي مارس 1844 اصطدمت القوات الفرنسية التي بلغ عددها 150 فارسا بقيادة ترومبلي (Tremblay) بالثوار، فمنيت بهزيمة تكبدت من خلالها خسائر فادحة، وردا على ذلك قرر قائد المقاطعة تجهيز حملة تكون أقوى وأعنف، حيث بلغ قوامها 1200 جندي و 400 حصان، ووصلت إلى مشارف الواحة يوم 12 مارس وبدأت بفرض حصار محكم عليها،² و لكن الثوار تفتنوا لخطة³ العدو فقاموا بسد كل الثغرات التي يمكن أن يستغلها العدو ليتسلل منها إلى الواحة، و أمام هذه الخطة الدفاعية المحكمة لم تجد القوات الفرنسية منفذا لاقتحام الواحة سوى ضرب القرية بالمدافع، إلا أن سلاحها الفعال لم ينجح هذه المرة لأن عزيمة الثوار كانت أكبر وأقوى من مدافعها.

ولذلك لم تتمكن من بث الرعب والهلع في نفوسهم فكانت الكلمة الحاسمة والأخيرة لهم، فقد أبدى الثوار من البسالة والضراوة ما أذهل العدو، وعلى الرغم من بساطة أسلحتهم التي تمثلت في (سيوف، خناجر، عصي، بنادق) لم يزددهم هذا إلا إصرارا، رغم فقدانهم لـ خمسون مقاوم، كما وصف أحد جنرالات العدو سكان مشونش بقوله "أنهم مرتبطون بأرضهم ومساكنهم وفلاحتهم ونخيلهم ولا يستطيعون التنقل و الترحال كقبائل الرحل... إن المعركة الأولى التي خضناها مع المقاتلين بمشونش ... تعطي لنا دليلا على الدفاع المستميت الحثيث، وقد وجدنا مقاومة عنيفة ورجالها عنيدون يدافعون درجة بدرجة فوق صخورهم، رجلا برجل على سطوح منازلهم الملتصقة تخالها وكأنها شرفات بعضها فوق بعض "⁴.

وقد تراجعت قوات العدو بعد أن منيت بهزيمة شنعاء وقد فقدت خسائرهم بـ 09 قتلى و 10 جرحى، حيث وصفها أحد الجنود الفرنسيين قائلا: " وجدنا مقاومة حادة و

¹ _ فوزي مصمودي : « معركة مشونش بيسكرة 1844 الخالدة » ، الخلدونية ، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر ، عدد 03، ديسمبر 2004، ص ص 136-137.

² _ . 188 . op.cit. , Abdelhamid Zou zou :

³ - ارتكزت خطته على توجيه وحدة رماة القنابل التابعة للفياف الأجنبية باتجاه أعلى الجبل ، كما تقوم مجموعة من

من الجنود النظاميين بحمايتهم أنظر: 189 p . op.cit. , Abdelhamid Zou zou :

⁴ - محمد العيد مطمر : « الاحتلال الفرنسي للأوراس » ، مرجع سابق ، ص 39.

عنيفة و أرضا صعبة و صخورا، وقد لحقتنا خسارة فادحة¹. و دامت المعركة يوما كاملا بعد أن قدرها القائد الدوق دومال ببضع ساعات و هي تكهات واهمة لقادة الغزو. ظل الشعب الجزائري مصرا على تكذيبها بصموده .

ومن نتائج هذه الثورة أنها رفعت معنويات المجاهدين أكسبتهم ثقة كبيرة بأنفسهم ، إذ حمل هذا النصر بذرة أمل زرعت في نفس الأمير عبد القادر الذي أصبح يمر بظروف حالكة بعد سقوط زمالته سنة 1843 ، كما تفاعل معها الشعراء الشعبيون فجادت قرائحهم بقصائد عبرت بصدق عن فرحة الشعب وإصرارهم على مواصلة الجهاد .

و بعد هذا الانتصار الساحق الذي حققه المجاهدون بفضل إيمانهم و قوة عزيمتهم ، و الذي أشعل غضب فرنسا و سخطها على المجاهدين ، أمرت بدفن أحداث المعركة فمنعت توثيقها لا لشيء سوى لمحو عار الهزيمة من ذاكرة التاريخ ، و لحل هذا هو تفسير سبب انعدام المراجع التي تناولت الأحداث التاريخية لهذه المعركة بالتفصيل² .

إلا أن الرسام (Raffet) رافي قام بتخليد المعركة في لوحته المشهورة التي تبين النقيب إسبماس (Espimasse) و هو من قوات العدو ساقطا على الأرض يعاني من جروح كثيرة و مؤثرة ، و المقاومون فوق الصخور يقاومون بشدة و عزم³ .

على الرغم من مجهودات فرنسا لطي هذه الصفحة المنيرة في تاريخ المنطقة إلا أن هذه المعركة كان لها الصدى الكبير و العميق لدى صانعي مجدها.

¹ _ عبد الرحمن تير ماسين، مرجع سابق، ص 12.

² _ جمعية أول نوفمبر : تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي (1837، 1954) ، دار الشهاب باتنة، الجزائر، 1980، ص 191.

³ _ عبد الرحمان تبرماسين: سي الصادق بن الحاج الانتفاضة الكبرى (1844-1859) ط1، جمعية الشروق الثقافية، باتنة ، الجزائر ، ص 12.

2: معركة بسكرة ماي 1844

بعد أن احتلت القوات الفرنسية مدينة بسكرة بقيادة الدوق دومال ،توجه هذا الأخير إلى أولاد سلطان ليطلب من أحمد باي الاستسلام ،فعين الرائد توماس على المدينة ،ووضع تحت إمرته فرقة عسكرية صغيرة ، فاستغل محمد الصغير بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر في سيدي عقبة الوضع ، وقام بالتخطيط لاقتحام بسكرة في 12 و13 ماي 1844 ، من أجل استرجاعها والقضاء على الحامية العسكرية بها¹ .

واعتمدت خطته على الخديعة والمباغته ، حيث كلف 150 رجلا من خيرة مقاتليه بالدخول إلى قصبة بسكرة ، وطلب منهم الإدعاء بالفرار من قواته وإظهار العداء له ، وعرض التعاون مع فرنسا ، لكن الهدف الحقيقي من هذا التسلل² هو فتح باب القسبة ليلا لمحمد الصغير والقوات المرافقة له.³

وعندما بلغ عددهم 25 رجلا أرسلوا له موعد الهجوم ، فقصد القسبة ليلا وتم الهجوم في 12 ماي 1844 وكانت نتائج هذا الهجوم المباغت وخيمة على العدو حيث قتل ملازمان (بوتيكوند، كروشار) كما قتل الطبيب أرسلان ، و قد تم استرجاع ما قارب مليونين دوروه⁴، و 22 مكحلة⁵ و 115 بذلة عسكرية ، و 400 حصان وخزینتین من البارود ، وأربعة مدافع وكميات من القمح والشعير، و لم ينج من المجزرة سوى الطاهية ماريما موراني اليهودية⁶، والرقيب

¹ Bouaziz Ben Gana :LE CHIEKH EL ARAB , étude historique sur la famille Ben Gana_ Alger,1930.p98

² _ لكن هناك بعض الروايات تقول على أن التسلل كان عن طريق إحداث ثغرات في الجدران.

³ _ عثمانى مسعود :مرجع سابق ،ص 62 .

⁴ _ هي عملة معدنية كانت تستعمل في تلك الفترة.

⁵ _ ويقصد بها البندقية .

⁶ _ وقد أعلنت إسلامها، تزوجها فيما بعد محمد الصغير، و أنجبت له ولدين حسب رواية فيرو و مكثت معه إلى أن توفي في توزر (جنوب تونس) 1856 ،و بعدها اتجهت إلى القيروان.أنظر

Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France , op.cit. pp15,18 .

بيليسي (Pellissier)¹ . بعد أن هرب واحتفى عند الشيخ الميول شيخ طولقة ، كما علم فرحات بن السعيد بأمر هذا الأخير وطلب من فرسانه قتله² .

كما راسل الرقيب بيليسي الضابط دوق دومال وأخبره بما حدث وطلب منه العودة ، فرجع هذا الأخير إلى بسكرة ، رفقة ألفي فارس³ كما أمرهم بقطع نخيل الواحات المجاورة ، ونتيجة لهذه الإجراءات القاسية تمكن دوق دومال من دخول بسكرة للمرة الثانية يوم 18 ماي 1844⁴ .

أما محمد الصغير فقد تخوف من القبض عليه فانسحب إلى الأوراس ومنها إلى تونس. وبعد هذه المعركة رأى الدوق دومال ضرورة الشروع في تطبيق إجراءات جديدة ، فأصدر في 23 ماي 1844 أمرا عاما اعتبره تنظيميا جديدا ، وبمقتضاه تم تعيين الرائد توماس كقائد أعلى للمنطقة كما قام بتعيين أربعة شخصيات لها وزنها بحكم انتمائها إلى عائلات كبيرة برتبة ضباط ، فأسند قيادة شيخ العرب لبو عزيز بن قانة الذي يحتل منصب خليفة للصحراء، وتمتد سلطته على:

- **واحة بسكرة:** تخضع واحة بسكرة والمدينة لسلطة القائد (محمد الصغير بن علي بن قيدوم بن قانة) ، وقسمت الواحة إلى ستة أحياء هي: باب القبة، رأس الكدية، باب الضرب، باب الغلة قداشة، المسيد ويدير كل حي كبير الجماعة.
- **الزاب الظهر اوي:** ويشمل الواحات التالية: بوشقرون، فرفار، البرج ليشانة، الزعاطشة، طولقة، ويخضع كل جزء من هذه الواحات لكبير الجماعة، ماعدا طولقة تخضع لشيخ⁵.

¹ _ هو Pélissier Almable Jean Jacques ولد في 6 نوفمبر 1794 ،حارب في إسبانيا 1823 ،وفي سنة 1839 أصبح كولونيل ،وفي 1840 تولى رئاسة مقاطعة وهران ،وفي 22أفريل 1846 أصبح حاكم عام للجزائر ،توفي 1864 ، يعرف عند سكان المنطقة بـ " بسارجان بليس "أنظر: Jeanne et André Brochier , op.cit. p 247

² _ يحيى بوعزيز :«من تاريخ كفاح الجزائر في القرن التاسع عشر أربعة أحداث في ثلاث وثائق» ،المجلة التاريخية المغربية ، سير مدي زغوان ، تونس ، ع2، 1974 ،ص 100.

³ _ محمد صالح العننري: المرجع السابق، ص 164.

⁴ _ يحيى بوعزيز :«من تاريخ كفاح الجزائر » ، المرجع السابق ،ص 97.

⁵ _أنظر الملحق رقم 11.

■ **الزباب القبلي:** ويشتمل الواحات التالية: أورلال، ليوه مخادمة بنطوس، مليلي، أوماش، الصحيرة، ولكل من أورلال ومليلي شيخ والواحات الأخرى تخضع لكبير الجماعة.

■ **البدو والرحل:** توضع مباشرة تحت سلطة شيخ العرب، رحل الجنوب: عرب الشراقة وعرب الغرابية وأولاد سيدي صالح.¹

أما قيادة سي مقران²، فأُسندت إلى القائد المنحدر من أسرة سي محمد بلحاج، حيث تولى قيادة الحضنة، أولاد دراج، أولاد زيان وبني سويف وبني فرح وأولاد سحنون، القنطرة، البرانيس، الصحاري.

و قيادة الزباب الشرقي: والمقسمة إلى فرعين متناحرين من أولاد مولة هما بن عبد الله وبن شنوف وتخضع هذه المناطق لسيطرة شيخ العرب.³

وبعد هذا التقسيم لمدينة بسكرة عرفت المنطقة العديد من الأحداث فيما بين (1845*1848) حيث تميزت هذه الفترة من تاريخ المنطقة بتصاعد روح المقاومة . ففي سنة 1845 حاول سكان جبل أحمر خدو مخادعة الرائد سان جرمان (Saint Germain)، وإيهامه بخضوع الفلاحين وفي المقابل قامت بإيواء وحماية أحمد باي لمدة عامين. كما تميزت سنة 1846 بانفجار الثورة في شرشال و استرجاع خنقة سيدي ناجي رغم المواجهة العنيفة لسان جرمان.⁴

و في 1847 عاود سكان واد عبدي تفجير الثورة ، وقد تولى سان جرمان أمر ردعهم، في الوقت الذي قام فيه الجنرال هيريبيون (Herbillon)⁵ بزحف على واحة أولاد جلال لملاحقة شريف بومعزة ، الذي قدم إلى المنطقة في مطلع 1847، هذا الأخير الذي

¹ _ Ben Gana : op.cit. p 102.

² _ أنظر الملحق رقم :02.

³ _ إبراهيم مياسي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص71.

⁴ _ إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 72.

⁵ _ هو Herbillon Emile ولد في 23 مارس 1794 في Châlons وكان من بين الأوائل الذين قصدوا الجزائر للعمل كأجراء باليوم سنة 1837، ثم عمل كقائد معسكر Medjez Hama بين Bône وقسنطينة ، عين كولونيل في 12 أكتوبر 1842 وشغل منصب حاكم عام لمقاطعة قسنطينة ما بين 1847_1850 ، وفي سنة 1858 ترقى لرتبة مارشال توفي سنة 1866. أنظر : Jeanne et André Brochier ,op.cit. p 166

انسحب من جبال الظهرة إلى الونشريس ، أين اندلعت معارك طاحنة بين الطرفين ، قتل فيها 33 رجلا وجرح 110 آخرين من صفوف الفرنسيين.¹

و شهدت هذه السنة من شهر ديسمبر استسلام رائد المقاومة الجزائرية في إقليم الغرب الأمير عبد القادر بن محي الدين ، بعد أن صار محاصرا بين قوتين (فرنسا والسلطان المغربي) وقد كان لهذا الاستسلام وقعا شديدا على الجزائريين.²

كما شهدت فرنسا سنة 1848 حدثا سياسيا على درجة كبيرة من الأهمية تمثل في نهاية الملكية وقيام الجمهورية الثانية ، هذه الظروف التي استغلها علي باي - ابن فرحات بن السعيد - و قام بإشعال لهيب الثورة ، التي حققت الكثير من الإنجازات أصبح معها الوجود الفرنسي في الجزائر مهددا ، ومن ثمة جندت فرنسا كل الطاقات قصد ردع هذا الخطر.³

كما تميزت هذه السنة باستسلام القطب الثاني للمقاومة الجزائرية ناحية الشرق أحمد باي ، حيث قام بالاتصال بسان جرمان ، بعد أن خذله السلطان العثماني ، وبعد أن منيت جل جهوده بالفشل طالبا الأمان⁴، وتمكنه من استعادة أمواله مع السماح له بالعيش في أرض إسلامية⁵، وتحدث عن استسلامه " لقد جئت للفرنسيين طوعا، تحذوني إرادة صارمة لوضع حد لهذه الحرب الطويلة القائمة بيني وبينهم، إبرام اتفاق دائم والحصول على أمان مشرف ".⁶

فاقتيد إلى بسكرة ومنها إلى قسنطينة حيث مكث فيها ثلاثة أيام ثم رحل إلى الجزائر أين بقي ينتظر الإذن بالسفر إلى البلاد المقدسة، ولكن العدو وككل مرة لم يف بوعوده . إلى أن توفي في شهر أوت 1850، بسبب كبر سنه وتمكن المرض منه.⁷

¹ _ محمد صالح العننري: مرجع سابق، ص 167.

² _ Ben Jamin Sora : **Algérie histoire Contemporaine 1830*1988**, Casbah Edition, 2004, pp23,24.

³ _ إبراهيم مياشي: «احتلال بسكرة 1844»، مرجع سابق، ص 50.

⁴ _ العربي الزبيري : «المقاومة في الجزائر»، مرجع سابق، ص 110

⁵ _ Abdelhamid Zerdoum : **Leçons d'histoire et polémique à Biskra**, op.cit. p10.

⁶ _ أحمد طالب الإبراهيمي : «مقاومة الأوراس في عهد أحمد باي»، الملتقى الوطني الأول حول مقاومة الأوراس في عهد أحمد باي، الجمعية الثقافية لتخليد المعركة الكبرى فرغوس أكباش، الجزائر، 2006، ص 5 .

⁷ _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، مرجع سابق، ص 51

وعلى الرغم من استسلام البطليين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي، وإلقائهم لسلح المقاومة كل على طريقته ، إلا أن الشعب الجزائري عامة وسكان الزيبان خاصة، لم يستحسنوا فكرة الخضوع والاستسلام ، لأن الخطر الذي رفع من أجله السلاح ما يزال قائما بنفس أساليبه الهمجية وسياسته الجائزة، من قتل وحرق وسلب ونهب وسفك للدماء، فلهذا ظل الأهالي مستعدين لتلبية نداء أي قائد يحمل لواء الانتفاضة ، وذلك بشهادة المستعمر نفسه، حيث قال البارون لأكويه مخاطب حكومته " طالما تحتفظون بالجزائر ،فستكونون في حرب مستمرة في إفريقيا، وقد يبدووا في بعض الأحيان أن هذه الشعوب انتهت ،إلا أن ذلك لن يقلل من كره هذه الشعوب لكم ،سيكون انتهاء الحرب بمثابة نار لم تنطفئ تماما بل تستعر من تحت الرماد ،وفي أول فرصة سيندلع لهيبها لتشتعل على شكل حريق " ¹ .

فجاء نداء بوزيان سنة 1849 والشيخ عبد الحفيظ الخنقي سنة 1849، ثم تلاه نداء الصادق بلحاج سنة 1858 ثم محمد بن يحيى سنة 1876. ليستمر بذلك رفض الأهالي للتواجد الفرنسي، والعيش تحت قيوده وليرسم هذا الرفض أجمل صورة من صورة تاريخ المقاومة للاحتلال في الزيبان .

¹ _توفيق برو : «جذور الاستعمار وجرائمه في الجزائر »، سيرتا، دار البعث قسنطينة،الجزائر ، ع 6،7، 1982،

الفصل الثاني

المقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان (1849*1859)

المبحث الأول : ثورة الزعاطشة 1849

المبحث الثاني : ثورة عبد الحفيظ الخنقي 1849

المبحث الثالث : انتفاضة الشيخ الصادق بن الحاج 1859

المبحث الأول : ثورة الزعاطشة 1849

❖ لمحة عامة عن واحة الزعاطشة

واحة الزعاطشة تقع في الزاب الغربي ببلدية ليشانة¹ على بعد 35 كلم من عاصمة الزيبان بسكرة ، ذكر أنها كانت واحة صغيرة ، تملك من السحر ما يعجز اللسان عن وصفه ، محاطة ببساتين النخيل والأشجار المثمرة تمتد على مساحة 12 كلم ، تلفها أسوار مشيدة من مادة الطوب المكوي تشق أرضيها سواقي ذات مياه غزيرة و عذبة في العادة². ونظرا لأهميتها البالغة حرص سكان المنطقة على استغلالها بالشكل المناسب ، فتم تنظيم توزيع المياه للري على حسب مساحة الأرض التي يمتلكها الفرد ونوعية المحاصيل المزروعة ، كما أن هذا التوزيع يكون وفقا لقنوات السقي وهي موروثه من العهد الروماني ، لتسقي السكان والبساتين³.

حيث يتوسط هذا السحر قرية صغيرة تقع فوق ربوة ووسطها توجد شبه قلعة حسنة البنيان مشيدة بالحجر ومسقوفة بفروع النخيل ، ومنازلها المتقاربة من بعضها البعض ليتبين للزائر مدى قوة الترابط والتلاحم الموجود بين سكانها ، و يسهل هذا البناء كثيرا التنقل عبر السطوح دون النزول إلى الأرض⁴ ، كما أن سكانها فتحوا نوافذ صغيرة في جدران المنازل ، تسمح لهم بالتنقل من حي لآخر دون أن يظهرُوا إلى العيان⁵، وقد شكلت هذه الفتوح الكثير من المصاعب للقوات الفرنسية التي لم تكن تعلم عنها شيئا رغم جواسيسها وهذا ما جعلها تفر كلما حاولت الاقتراب من الواحة تحت وابل من الرصاص ، ومن أجل حمايتها قام

¹ _أنظر الملحق رقم :16.

² _ المركز الوطني لوثائق الصحافة والإعلام: كيف تحررت الجزائر (الذكرى 35 لثورة نوفمبر)، الجزائر، 1989، ص20.

³ _ محمد الصغير غانم :مقالات حول تراث منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية ،عمار قرفي،الجزائر ، (ب،س،ط) ،ص ص 74،73.

⁴ - بن عيسى سعيد : (نقلا عن السيدة بن عيسى يمينه عمته إحدى سكان واحة الزعاطشة 1849)، ليشانة ،أجرى الحوار معه في ليشانة يوم 4أوت 2008.

⁵ _ إسماعيل العربي : «الترتيبات التكتيكية لحصار قرية الزعاطشة أكتوبر1849»، مجلة الدراسات التاريخية ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ومعهد التاريخ، الجزائر، ع 09، 1985، ص152. أنظر الملحق 22.

سكانها بحفر خندق¹ كبير يحيط بجميع المساكن ، على شكل دائري يبلغ عرضه 6 إلى 8 أمتار، أما عمقه فيصل إلى 80 سنتمترا و 1.20م ، يغذي هذا الخندق مياه عين الفوارة²، ويصل هذا الماء إلى القرية بواسطة منحدر صخري.³

وقد وصفها أحمد توفيق المدني قائلا : " وعلى بعد 4 كلم من طولقة توجد واحة ليشانة الشهيرة بثمرها العجيب الشفاف و الذي يسمى دقلة نور وبها صناعة وتجارة الصوف " ⁴.

و توجد بها عينان جاريتان تعرفان بعين معكوف وعين الفوارة⁵ و منتجاتها كثيرة ومتنوعة (التمر، الحبوب ، الرمان ، المشمش ، التين). إضافة إلى بعض المنتجات التجارية مثل (القصب،التبغ ،الحناء) ، وهذا ما مكن الواحة من تحقيق اكتفائها الذاتي،وقد ساهمت هذه العوامل في إنعاش الحركة التجارية بها ،فتعاملت مع أهم الأسواق التجارية في الوطن في تلك الفترة (سوق بسكرة ،بوسعادة ،باتنة) ، كما اشتهرت الواحة بتربية الغنم والجمال⁶.

تجاورها عدة واحات : فرفار ، ليشانة ، أوماش ، بوشقرون ، يقصدها العديد من الرحل قصد التجارة في أسواقها⁷. كما يوجد بها مسجد تعلوه منارة . و عدد سكان هذه الواحة 3000 نسمة ، أي ما يقارب 150 عائلة ، في تلك الفترة⁸.

¹ _ أنظر الملحق رقم : 23 .

² _ أنظر الملحق رقم : 25.

³ _ محمد العربي الزبيري: مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ، 1976 ، ص 66 ، 67.

⁴ _ أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 222.

⁵ _ بن عيسى سعيد : مرجع سابق.

⁶ _ إسماعيل العربي : مرجع سابق ، ص 152

⁷ _ جمعية أول نوفمبر: مرجع سابق ص 220.

⁸ سعيد بورنان: شخصيات بارزة في كفاح الجزائر (1830،1962)، ج 1 ، ط2، دار الأمل، الجزائر ، 2004، ص 113.

المطلب الأول : أسباب اندلاع ثورة الزعاطشة

لقد حاول المؤرخون الفرنسيون أن يرجعوا أسباب اندلاع ثورة الزعاطشة إلى رفض فرنسا لطلب بوزيان¹ والمتمثل في تجنيده كمرتزق في جيشها ، وإلى بعض الأسباب الاقتصادية² كمحاولة منهم للحط من قيمة الثورة بسبب ضعف أسبابها ، ولكن الحقيقة غير ذلك لأن هذه الثورة اندلعت بوجود عدة دوافع جوهرية ساهمت في إشعال فتيل الثورة³.

1- رفض سكان الزعاطشة للتواجد الفرنسي وسياسته الجائرة ، خاصة بعد إصداره قرار 4 نوفمبر 1848 الذي يتضمن إلحاق الجزائر بفرنسا⁴. و قتل و حرق و سلب ونهب ممتلكات الشعب فألّفت الأهالي حول نداء بوزيان⁵، من أجل تجسيد الرفض القاطع للسيطرة الفرنسية على أرض الواقع⁶.

2- تقرير الإدارة الفرنسية إلزام السكان بدفع مبالغ طائلة وهذا ما رفضه الأهالي لأن الضرائب المفروضة عليهم كانت تفوق إمكانياتهم المادية، ورغم علم السلطات الفرنسية بتدهور محصول التمور بسبب الأزمات المتعاقبة على الزيبان منها زحف الجراد سنة 1845 الذي يطلق عليه "ريح الصحراء"⁷، إلا أن الضرائب المحصلة لهذه السنة بلغت

¹ _ الشيخ بوزيان : أحمد بوزيان بن إسماعيل ، ولد عام 1799 ، ينحدر من أسرة مشهورة في بسكرة وهي عرش الدواودة ، درس في زاوية بالجزائر ، وبعد سقوط العاصمة عاد إلى الزيبان أين التقى بالأمير عبد القادر وشارك معه في عدة معارك ، حتى عينه شيخ على الزاب الشرقي، أنظر :

Halim Cherfa : *l'héroïque bataille de zaatcha*, l'imprimerie el maraaf, Alger, 2007, p53.

² _ فوزي مصمودي : «الذكرى 152 لثورة الزعاطشة ببسكرة أما أن لنا أن تسترجع رؤوس زعمائها من متحف باريس»، *الشروق اليومي*، الجزائر، ع330، 2001، ص4.

³ _ سليمان الهادف قريبي : «القوى الوطنية في الجزائر و مقدمات الثورة التحريرية 1945*1954»، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر ، قسم التاريخ ، جامعة الإسكندرية ، 1988 ، ص 39.

⁴ _ Abdelhamid Zouzou : *op.cit.* p236

⁵ _ حيث قال Léon Roches سنة 1844 " يتسرع كثير من الناس إلى القول بأن العرب ينفرون من الأشراف... هذا اعتقاد خطأ

والحقيقة أن ارتباط الأتباع بأسيادهم لا يزال قائما، وما انتفاضة الجزائر برمتها ضد فرنسا إلا استجابة لنداء أولئك الأشراف " ، أنظر Charles robert AGERON : *Les Algériens Musulmans et la France 1871 - 1919*, thèse t.i.p.u.f, 1968, p8.

⁶ _ إبراهيم مياسي : «ثورة الزعاطشة 1849»، *مجلة الدراسات التاريخية* ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ومعهد التاريخ، الجزائر، ع 11 و 12، 2000، ص87.

⁷ _ صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية ، مرجع سابق ، ص 241.

1446350 فرنك¹، كما شهدت منطقة الزاب سنة 1847 موجة من الجفاف دامت ما يقارب 3 سنوات مما أدى إلى عجز الفلاحين عن إنتاج قوت يومهم². كما تضاعف سعر القمح ليصل إلى 40 فرنكا والشعير 25 فرنكا، في سنة 1848 وعلى الرغم من إصابة النخيل بمرض أثلّف المحصول وجعله خارج دائرة البيع لم تتوانى السلطات الفرنسية على الزيادة في الضرائب، كما قررت في شهر مارس 1849 الزيادة في الضرائب المفروضة على بساتين النخيل والتي قدرت بـ15 إلى 45 سنتيم أي ضعفي ما كانت عليه، كما أنها قامت بمطالبة الأهالي بدفع ضريبة الكولوغي³ فدعا الشيخ بوزيان الأهالي إلى الامتناع عن دفع الضرائب لأن فرنسا لن تتوقف عند هذا الحد، بل إن الإدارة الفرنسية ستقوم بالرفع من قيمتها إذا كانت هناك استجابة⁴.

3- إضافة إلى وجود أسباب تتعلق بفرنسا نفسها حيث أنه في 1848 شهدت هذه السنة قيام الثورة الفرنسية والإطاحة بعرش لويس فيليب وعزله وقيام النظام الجمهوري، هذا ما انعكس على الحياة السياسية في الجزائر. حيث تم عزل الدوق دومال وتعين مكانه الجنرال كافانيك⁵ (Cavaignac)⁶.

وقد وصلت هذه الأخبار إلى المنطقة بواسطة أبنائها الذين كان يطلق عليهم (البسكرية) الذين كانوا يعملون في العاصمة في العديد من المهن والأعمال الشاقة والحراسة، فتلقوا أخبار سقوط الحكم الملكي وكذلك أخبار اندلاع الثورة في بعض المناطق الشمالية من الجزائر منها: بني سليمان والقل، الزواغة، وبني علي، جبال جرجرة و بوسعادة، هذا ما وضع القيادة الفرنسية في موقف حرج أجبرها على توحيد

¹ _صالح فركوس: المرجع السابق، ص312

² _أندري برنيان وآخرون: مرجع سابق، ص ص 336، 337.

³ _ وهي ضريبة أمرت أن تدفع للطبقة الموالية لها في المنطقة وكانت هذه الضريبة تدفع في عهد الأتراك

⁴ _جلال يحيى: تاريخ المغرب الكبير للعصور لحديثة وهجوم الاستعمار، ج3، دار النهضة العربية، بيروت، ص 184 انظر

أيضا، Abdelhamid Zouzou, op_cit, p 236

⁵ _ هو Louis Eugène ولد في 15 نوفمبر 1802 بباريس، هو أحد طلبة المدرسة المتعددة الفنون والعلوم، تميز منذ صغره بنبوغ والعبقرية، تولى قيادة معركة الزواوة 1837، أصيب مرتين في معركة شرشال ومليانة، عين حاكم للجزائر 1843، شغل منصب نائب في البرلمان وفي سنة 1848 شغل منصب وزير الحرية تحصل على منحة نصف التقاعد في 19 فيفري 1852

توفي في أكتوبر 1857، أنظر Jeanne et André Brochier, op.cit. p 91.

⁶ _ Abdelhamid Zouzou, op.cit. p235

قواتها ، من أجل إخماد هذه الثورات وما إن وصلت هذه الأخبار إلى منطقة الزيبان حتى عزم سكانها على السير في نفس الدرب وإعلان الثورة .¹

4- رغبة الشيخ بوزيان في مواصلة مسيرة قائده الأمير عبد القادر، رغم سياسة التهيب التي اعتمدتها فرنسا ضده إلا أنه لم يرضخ بل أصر على مواصلة الكفاح لإيمانه الشديد أنه في سبيل الله وهي قناعة رجل متصوف لذلك نجد أن الوازع الديني كان له دور في تفجير الثورة .²

5- انتشار بعض الشائعات بين الجزائريين والتي مفادها أن ملك المغرب ينوي الهجوم على الجزائر وتخليصها من الاستعمار الفرنسي ، وكذلك عودة الأمير عبد القادر من أجل حمل لواء الجهاد ضد المستعمر من جديد ، كما كشفت هذه الشائعات عن نية بريطانيا في منافسة فرنسا واحتلالها للجزائر، و أنها قامت بالفعل في إنزال قواتها على السواحل ، وقد اتهم كاربيسيا (Carbuccia) و هريون يهود الجزائر في نشر هذه الشائعات ورغم محاولات تكذيبها إلا أنها لم تتجح نظرا لقوتها وتأثيرها العميق³ .

6- فرض فرنسا ضرائب على المرابطين من بينهم (الشيخ بوزيان) ، كما أنها قامت بإلغاء جميع الامتيازات التي كانت تتمتع بها هذه الفئة من الأهالي⁴ .

7- السياسة التي طبقتها فرنسا بعد احتلالها للمنطقة وخاصة سياسة مصادرة الأراضي التي اتبعتها حيث أنها أصدرت العديد من القرارات في هذا الشأن أهمها:

• مرسوم 1844 القاضي ببطان شراء الأراضي وتحديد البنود المتعلقة ببيع وشراء الأراضي بين الأوربيين والجزائريين.

• قرار 31 أكتوبر 1845 الذي خص مصادرة الأراضي كما صودرت فيه أملاك السكان بحجة الإهمال.⁵

¹ _ العربي منور : تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر ، دار المعرفة ، 2006، ص 245.

² _ تاريخ الجزائر (1883*1900): CD-ROM، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر.

³ _ محمد الصغير سويسبي: « ثورة الزعاطشة دوافع وأسباب الفشل»، المجلة الخلدونية، الجمعية الخلدونية للدراسات و الأبحاث التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر، ع3، 2004 ، ص44.

⁴ _ أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1830 * 1900 ، مرجع سابق ، ص333.

⁵ _ Charles robert AGERON, op.cit. p 69.

• قرار 1846 الذي فرض على كل مواطن سندات ملكية أصلية كما قام بتحديد

الملكيات، أما الأراضي التي ليست لها سندات تحول مباشرة إلى ملكية الدولة.¹

8- الدور الذي لعبه أحمد باي في تفجير ثورة الزعاطشة وهذا ما أكده هريون ،حيث أنه بعد القضاء على أحمد باي واقتحام منزله عثر على بعض المراسلات التي كانت بين أحمد باي وبوزيان².وهو دليل قاطع على أن المقاومة الشعبية في منطقة الجنوب هي امتداد للمقاومة الشعبية المنظمة في الشمال .

المطلب الثاني : الاستعداد للثورة ومراحلها

1: الاستعداد للثورة

أمام هذه الوضعية السيئة التي أصبح يتخبط فيها سكان الزعاطشة من جراء السياسة الاستعمارية الجائرة ، قرر الشيخ بوزيان إعلان الجهاد فبدأ بالدعاية وبحث السكان على عدم الامتثال لأوامر الإدارة الفرنسية والامتناع عن دفع الضرائب ،ولقد استجابت بعض القبائل لهذا النداء ،منها أولاد عبدي سكان قرية نارة ،وهذا ما دفع فرنسا لقيادة حملتها الأولى ضد هذه القرية في 25 أبريل 1849 بقياد كريبسيا³ ، حيث قام بالاتصال بزعماء القبائل والأعراش المجاورة(سي المختار في سيدي خالد وأولاد جلال،سي صادق بن الحاج في أحمر خدو ،وعبد الحفيظ الخنقي في الزاب الشرقي وسي الصغير بن أحمد) ،من أجل كسب تأييدهم وإعلان الجهاد وجمع المال وشراء السلاح وتخزين المؤن⁴.

ولما علم القائد العام بالمنطقة قام بإصدار قرار يقضي بإلقاء القبض على كل المتمردين وعلى رأسهم الشيخ بوزيان ، فتوجه سيروكا (Séroka)⁵ إلى الزعاطشة على رأس فرقة من الفرسان و شيخ طولقة ابن ميهوب، وعند وصولهم إلى الواحة وجدوا الشيخ بوزيان يقوم بجولة

¹ _ علي تابليت :«مصادرة أملاك أهل الزعاطشة» الثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ع115 ، 1982، ص33.

² _ صالح فركوس :إدارة المكاتب العربية ،مرجع سابق ،ص 59.

³ _ Abdelhamid Zouzou : op.cit. p 235 .

⁴ _صالح عوض : معركة الإسلام والصليبية في الجزائر 1830-1962 ،ج1، ط1، مطبعة حلب ، الجزائر، 1989، ص 157.

⁵ _ أنظر الملحق رقم

في البطحة فأمره سيروكا بركوب البغلة المعدة لنقله إلى بسكرة ووضعها في السجن بتهمة التشويش¹.

فامتثل الشيخ بوزيان لأوامر القائد وصعد على ظهر البغلة ، إلا أنه تنبه إلى حيلة تمكنه من ربح الوقت ريثما تصل النجدة فقام بقطع خيط سبخته فتناثر حبها، فنزل لجمعه ، وسرعان ما انطلق صوت رصاص الثوار معلنا عن وصول الفرج وبداية الرفض الرسمي والقاطع للعدو ولسياسته، فدب الهلع والذعر في أوساط الفرقة الفرنسية، فلم تجد حلا سوى الانسحاب خوفا من الموت (رغم أنهم محترفين فيه؟)² ، وعند وصوله إلى بسكرة قام سيروكا بتقديم تقرير مفصلا إلى القيادة العليا ذكر فيه ما حدث وعن النية الحقيقية للأهالي في إعلان الثورة وعلى إثر هذا التقرير أسرع الملازم الأول ديبوسكي (Dubosquet) إلى المنطقة قصد التفاوض معهم طلبا منهم تسليم الشيخ لكن السكان رفضوا قائلين " إننا نرفض أن نسلمكم الذي تطلبون وإننا سنقاتل عن آخرنا رجالا ونساء من أجله" وعندها عرف ديبوسكي حقيقة أمر الثورة ، كما اتهم رؤساء الأهالي بالتواطؤ مع بوزيان بقوله " إن في مثل مسألة خطيرة كهذه المسألة ، لا نتردد في الحكم...ذلك أن كل رؤساء الأهالي بالزاب الظهراوي قد شاركوا في الجريمة بالتزامهم الصمت،"³.

وسرعان ما اشتعل لهيب الثورة فأعلن كل من سكان فرفار، فوغالة وشيوخ بوشقرون تحالفهم مع بوزيان. فرأى سيروكا أنه من الضروري العدول عن كل الترتيبات السابقة وإيقاف الهجوم المقرر والعودة إلى مدينة بسكرة ، من أجل دراسة المستجدات ووضع خطة محكمة تمكنه من القضاء على الثورة ، وعند وصوله أصدر أوامره للنقيب لارجيني (Largenée) باستدعاء شيخ العرب بن قانة وأفراد أسرته الموالين للفرنسيين وإعطائهم أوامر بجمع قواتهم وبتجنيدهم والتوجه إلى واحات الزعاطشة و فرفار و ليشانه⁴.

فاغتتم الموالون لبن قانة الفرصة وراحوا يمارسون كل أنواع الدمار والخراب التي نهلوها من أعوانهم ليمارسوها ضد أبناء وطنهم الذين رفضوا التحالف مع العدو تحت أي ظرف، والحقيقة

¹ _ أحمد مريوش : مرجع سابق، ص 121.

² _ محمد العربي الزبيري: مرجع سابق، ص 53.

³ _ صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية، مرجع سابق، ص 64.

⁴ _ Bouaziz Ben Gana : op.cit ,p115.

أن هذه الأعمال التي مورست ضدهم من أبناء عمومته لم تزدتهم إلا إصرارا وعزما على مواصلة الكفاح، فلم يتوانوا عن إلحاق الخسائر الوخيمة بالعدو ومطاردته ومنعه من دخول الواحة.¹

وبهذا تمكن الشيخ بوزيان ومن خلال هذه الانتصارات أن يكسب المزيد من المناصرين فتحالفت معه العديد من القبائل في الأوراس والحضنة وأولاد سلطان، فبرز الشيخ بن الجودي شيخ أولاد زيان، حيث بلغ عدد قواته حوالي 400 رجل وقد امتدت حركته إلى واد عبدي وقام الثوار بمهاجمة قائدهم بن عباس في لوطاية، كما دعا المرابط الشيخ عبد الحفيظ الخنقي مقدم إخوان الرحمانية إلى إعلان الجهاد في خنقة سيدي ناجي، واستمال إليه أولاد داود وبني سليمان.²

كما لبى الدعوى أولاد سحنون في بركة وجندوا حوالي 800 فارس و400 من الخيل، وتمردوا على خليفته سي مقرر وقائدهم من أولاد سلطان سي عمران بن جناد، وهاجموا زمالته، ودارت بينهم معارك طاحنة في منطقة بركة أصيب على إثرها ابن سي مقرر، كما لاذ الفرسان الباقون بالفرار، و قتل سي مقرر على إثر رصاصة أصابته في رأسه، ومن أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه تدخلت القوات الفرنسية فقتلت العشرات من أولاد سحنون كما أرسلت فرقة من قسنطينة إلى بسكرة واتحدت مع الفرقة القادمة من سطيف، التي بلغت 2000 مقاتل تحت قيادة كاربيسيا وقد تمثلت مهمته في القضاء على أولاد سحنون. ثم التوجه إلى واحة الزعاطشة الثائرة، وفي 09 جويلية 1849 هاجم القائد كاربيسيا خيم أولاد سحنون واستباح القوات الفرنسية القتل والحرق في القبيلة وغنمت ما قارب 2000 رأس من الإبل و12000 رأس من الغنم، وتمكنت بهذا من إخماد لهيب الثورة وإرجاع الهدوء إلى منطقة الحضنة.³

2: مراحل الثورة

مرت ثورة الزعاطشة بثلاث مراحل أساسية هي:

- مرحلة القوة
- مرحلة الحصار

¹ _ سعيد بورنان : مرجع سابق، ص116.

² _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، مرجع سابق، ص63.

³ _ صالح عوض: مرجع سابق، ص157.

■ مرحلة الضعف والانهييار

أ. مرحلة القوة:

بعدما تمكن القائد كاريبيسيا من تهدئة الأوضاع في منطقة الحضنة وقضائه على ثورة أولاد سحنون ، توجه إلى الزعاطشة على رأس قوة قوامها 2000 جندي للقضاء على الثورة والتخلص من زعيمها الشيخ بوزيان متجاهلا أن الثورة تقودها المبادئ لا الأشخاص¹. فعسكر القائد كاريبيسيا في غابات فرفار ، حيث قرر تقسيم قواته إلى فوجين أحدهما تحت قيادة العقيد لونوار (Le Noir) والآخر تحت قيادة سان جرمان وتمثلت خطته في توجيه هجوم خاطف على الواحة قبل وصول المتطوعين وتقديم العون لسكانها، وما إن اقترب الفوجان من الواحة حتى انهال عليهما الثوار بوابل من الرصاص ، وبعد ساعات من الاقتتال تأكدت هزيمة كاريبيسيا ، فوجه أمرا لجنوده بالانسحاب والتراجع، ولكن قراره جاء متأخرا حيث وجد نفسه محاصرا من طرف قوات المتطوعين من (مسيلة، بوسعادة ، أولاد نايل)².

وقد تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح والعتاد حيث قتل 32 جنديا من بينهم العقيد لونوار وجرح ما قارب 117 جنديا ، ولكن بفضل دهاء كاريبيسيا تمكن من مخادعة الثوار والتملص والفرار منهم حيث وجه أوامر لمن بقي من جنوده بالتخلص من أسلحتهم والانبطاح إلى جانب القتلى دون حراك لإيهام القوات الثائرة بقضائهم على العدو ، وعندما تأكد كاريبيسيا من مغادرة الثوار ، أمر جنده بالقيام والهرب إلى مدينة بسكرة تاركين وراءهم جثث قتلاهم لأنهم لم يتمكنوا حتى من حملهم³.

وبهذا مني أول هجوم فرنسي على الواحة بفشل كبير ، هذا الفشل الذي زاد في إصرار الأهالي على مواصلة المقاومة والالتفاف حول الشيخ بوزيان ، وتأييدهم المطلق لثورته ، ومن جهة أخرى ثار الشيخ عبد الحفيظ الخنقي في واد إيراز، في 17 سبتمبر 1849 وتمكن

¹ _ Halim Cherfa , op. cit, 64

² _ إبراهيم مياصي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص81.

³ _ سعيد بورنان : مرجع سابق، ص117.

في معركة حامية الوطيس من قتل الرائد سان جرمان ، والتي سيأتي الحديث عنها مطولا في الفصل القادم.¹

وقد اعترف الفرنسيون بعجزهم حسب ما صرح به القائد دو نفو (De-Neuveu) قائلاً " إن الحالة بالزيبان بدأت تسوء بل أن الخطر بدأ يتزايد هناك ، لقد فقدنا عز قوتنا في أعين جل الأهالي نتيجة ما يروجونه من أخبار في هذا الاتجاه كما أن المخلصين لنا من رؤساء الأهالي قد انجذبوا وتأثروا باتجاه الرأي العام المناهض لفرنسا".²

ب . مرحلة الحصار

وبعد الهزيمة القاسية التي منيت بها القوات الفرنسية بدأت بتجهيز حملة ثانية تكون أكثر قوة وعنفا بقيادة هيريون حاكم مقاطعة قسنطينة، فانتظر نهاية فصل الصيف لصعوبة مناخ المنطقة في تلك الفترة. وبحلول فصل الخريف قاد هيريون الحملة من قسنطينة متجها نحو الزعاطشة ،مرورا بباتنة بقوة عسكرية قدرت ب4493 جندي ومدعمة بقوات القيادة ، حيث عسكر في مكان يسمى " كدية المائدة " وهي منطقة تصل كل من الزعاطشة وليشانة وبشقرون وطولقة وذلك يوم 07 أكتوبر 1849 ، وقد أمر القائد هيريون شيخ العرب بن قانة بوعزيز بجمع شيوخه ورجاله والإحاطة بالواحة والزواوية لإحكام الحصار عليها من جهة الجنوب ، كما كلف فرقة الخيالة بقيادة الكولونيل دوميريالك بالتمركز ما بين طولقة والزعاطشة لمنع وصول أي نجدة ، كما أمر المقدم ليرسات (Lirisat) بالتمركز قرب ليشانة لنفس الغرض.³

أما الواحة فقد كانت بها تحصينات محكمة يصعب خرقها فقد كانت محاطة بسور ضخمة ، كما يوجد بها خندق كبير يحيط بجميع المساكن ، إضافة إلى تقارب المنازل من بعضها البعض سهل كثيرا التنقل عبر السطوح دون النزول إلى الأرض كما قام السكان بفتح نوافذ صغيرة في جدران المنازل تسمح لهم بالتنقل من حي إلى آخر دون أن يظهروا للعيان.⁴

¹ _ Halim Cherfa , op. cit, p65.

² _صالح فركوس :إدارة المكاتب العربية،مرجع سابق ،ص 51.

³ _ إبراهيم مياسي : الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية ، مرجع سابق ،ص 67.

⁴ _محمد العربي الزبيري: مرجع سابق ،ص 67.

وسط هذه التحصينات أسديت الأوامر للمدفعية بقصف أسوار البساتين المحيطة بالزاوية¹، لإحداث ثغرة تمكنهم من اقتحامها، وبعد التمكن من هدم السور ، أمرهم بقطع النخيل وحرقها لتتمكن المدافع الفرنسية من الوصول إلى الواحة ، وتوجه نيرانها نحو الزاوية إلا أنها جوبهت بمقاومة عنيفة حيث تكبدت هذه القوات خسائر فادحة قدرت بـ 25 قتيلا منهم ضابط و 47 جريحا . وعلى الرغم من المقاومة الباسلة للأهالي إلا أن المدافع الفرنسية تمكنت من احتلال الزاوية ورفع العلم الفرنسي فوق مؤذنتها احتقالا بالنصر المحقق برغم ما كلفها من خسائر . وبعد نجاح القوات الفرنسية في احتلال الزاوية قام السكان بملى الخندق الكبير بالماء وذلك لحماية المباني من الغارات، كما قام المجاهدون بشن هجومات خاطفة على مركز القوات الفرنسية ليلا يومي 07 و 08 أكتوبر من أجل استدراجها إلى الخندق. كما خضع القائد يورباكي لإستفزازات الثوار وبمجرد وصوله إلى الخندق هجم عليه الثوار حيث اضطر إلى الفرار تاركا وراءه 70 قتيلا و 40 جريحا².

وفي 12 أكتوبر 1849 انظم الكولونيل بارال (Barral)³ للقوات الفرنسية على رأس قوة تقدر بـ 1500 رجل من أجل دعم القوات الفرنسية، وفي 13 أكتوبر 1849 قام الثوار بمهاجمة معسكر العدو كما ساعد في هذا الهجوم كل من سكان طولقة وليشانة حيث تم قتل جنديين وجرح 8 آخرين وبهذا زادت أصداء الثورة واتسعت رقعة تضامنها. وما بين 22 و 26 أكتوبر 1849 حاول الثوار اعتراض قافلة جرحى متوجهة إلى مدينة بسكرة في قرية لوطاية، فوقعت معارك عديدة بين الطرفين أهمها معركة سيدي مرازي في 12 نوفمبر 1849 حيث اشتبكت فيها قوات من بوشقرون وتمكنت من قتل 3 جنود وجرح 6 آخرين⁴ .

وعلى الرغم من الحصار الذي كان مفروضا على الواحة إلا أن الشيخ بوزيان تمكن من إرسال رسله إلى قبائل بوسعادة وأولاد نايل طالبا منهم المساعدة، كما عرفت هذه الفترة تضامنا

¹ _ أنظر الملحق رقم : 26.

² _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20 ، مرجع سابق، ص 64.

³ _ هو François Charles ولد في 28 ماي 1820 ب Versailles ، هو أحد فرسان الصباحية ، كما أنه يعتبر من أحسن الطلاب العازفين على البوق ، عين كملازم أول في 11 سبتمبر 1844 ثم قائد في 16 أوت 1848 ، وفي 6 جانفي 1853 عين كقائد كتبية وفي 9 ديسمبر 1857 ترقى إلى رتبة مقدم ، وفي 2 جويلية 1863 وتقلد رتبة جنرال وهو في 43 سنة ، وعين كوزير

وهو يبلغ من العمر 53 سنة . أنظر : Jeanne et André Brochier , op.cit. p 30

⁴ _ عمار بوحوش: مرجع سابق، ص 92.

جماهيريا كبيرا حيث وصل إلى الواحة محمد الصغير بن أحمد، خليفة الأمير عبد القادر من تونس لمد يد العون لأبطال الزعاطشة إضافة إلى وصول إمدادات بوسعادة وأولاد نايل وبعض المناطق التي راسلها بوزيان¹.

يعود هذا التفوق الذي أبداه الثوار إلى عدة عوامل أهمها: المقومات الجغرافية لمنطقة الزيبان بصفة عامة ولواحة الزعاطشة بصفة خاصة، حيث أن المناخ الصحراوي الجاف و القاسي وكثرة المسالك في واحات النخيل الكثيفة والتي كان القادة العسكريون لا يعلمون عنها شيئا، أهم أسباب مرحلة القوة قبل أن تحطم القوات الفرنسية هذه التحصينات الطبيعية بدباباتها وتعكس بها موازين القوى².

ج . مرحلة الضعف والانهايار

وبعد هذه الانتصارات التي حققها ثوار الزعاطشة بالرغم من الحصار المفروض عليهم، أصبح وضع القوات الفرنسية حرجا ، فبات كل ما يتمناه القادة الفرنسيون هو وصول النجدة قبل حدوث المفاجأة. فبعد أن حطت الإمدادات الفرنسية الرحال في سكيكدة وعنابة وصلتها أوامر من القيادة العليا بالتوجه إلى بسكرة لقمع الثورة هناك قبل أن يمتد لهيبها ويشمل المنطقة بأسرها، وبالفعل تحركت الجيوش الفرنسية في 15 نوفمبر 1849 والتي بلغ عددها 8075 بقيادة كولونيل لورمال متجهة صوب الواحة³.

وعند وصولها إلى المنطقة تم تقسيمها إلى ثلاث فرق حيث أوكلت مهمة قيادة هذه الفرقة إلى ضباط بارزين ومشهورين في ميدان القتال أمثال بارال والعقيد كانروبار (Canrobert)

¹ _ إسماعيل العربي: مرجع سابق، ص 159.

² _ عيسى جعيط : « مقاومة سكان الواحات للاحتلال الفرنسي في القرن 19 ثورة الزعاطشة أسبابها وتطوراتها »، مجلة الدراسات التاريخية، وزارة التعليم العالي و البحث العلمي معهد التاريخ، الجزائر، ع 9 ، 1995، ص 149.

³ _ حيث انتشر الوباء الكوليرا في صفوف قوات العدو ، بسبب العساكر التي أفلتهم السفن الفرنسية الحاملين لهذا المرض ، وهذا ما جعل السجون والتكنات تتحول إلى بؤر للعدوى ،وأمام تفشي المرض واستحالة احتوائه أعلن المستشفى الرئيسي مايو (Maillot) بالعاصمة عن عجزه في صد هذا الخطر ،وفي نوفمبر 1849،تزامنا مع وصول الإمدادات العسكرية لواحة الزعاطشة تحت قيادة لورمال بلغ عدد المصابين في مقاطعة قسنطينة 28٪ أنظر جيلا لي صاري، محفوظ قداش ،عبد القادر بن حراث : الجزائر في التاريخ المقاومة السياسية 1900*1954 ،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ، 1987، ص 192. كما صرح الطبيب كاسفوالهي في جريدة (Le Moniteur Algérien)المدرّب الجزائري " أثناء الحملات المختلفة للكوليرا بإفريقيا كانت الزيبان محفوظة ،ولكن الأمر كان مخالف هذه المرة فإن الوباء بمجيئه مع جيوشنا انتشر سريعا وأضر بالواحات كثير خاصة بسكرة " أنظر : أندري برنيان وآخرون : مرجع سابق ،ص354.

ولورمال والعقيد دومانتال (Domantel) ومبرج وبارسي، بري فيلو¹ (Britte Villos). وقد قسمت الفرقة نفسها إلى ثلاث أقسام، فتم وضع الفرقة الأولى تحت قيادة بارال والثانية تحت قيادة كانروبار، والثالثة تحت قيادة دومانتال أما الفرسان فقد أوكلت مهمة قيادتهم للكولونيل مبرج والرماة تحت قيادة الكولونيل بارسي وجنود الهندسة العسكرية لبريت فيلو. وضرب حصار خانق على الواحة قصد القضاء على كل مادبت فيه الحياة وتحطيم وحرقت كل ما وقعت عليه أعينهم .

وبدأت الاستعدادات لشن هجوم عنيف ضد المجاهدين الذين تحصنوا في قراهم مستعدين للاستشهاد. وبعد هذا الحصار الخانق الذي بدأ يهدد سكان الواحة وقصد فكه على الواحة قام شيوخ الواحات المجاورة (الشيخ عبد الحفيظ الخنقي محمد الصادق بن رمضان والصادق بن الحاج وحامد بن الحاج) بوضع خطة لاقتحام مدينة بسكرة إلا أن قلة الإمكانيات فرضت على الشيوخ التراجع في مد يد المساعدة للشيخ بوزيان وأتباعه².

غير أن خطوط المساعدة لم تنقطع في أوساط الأهالي ففي شهر أكتوبر من نفس السنة اشتبكت جماعة من البدو ومع قوات العدو (قرب أورلال) قصد عرقلة قوات العدو، وإفشال حصارها على الواحة³. وعلى الرغم من فقدان البدو لـ 2000 جمل و1500 رأس من الغنم إلا أنها استطاعت أن تلحق خسائر هامة في صفوف القوات الفرنسية حيث فقدت هذه الأخيرة 06 وجنود و34 جريح. كما قام أولاد سلطان وأولاد فضالة باعتراض قافلة تموين فرنسية في القنطرة⁴.

وفي ظل هذه الظروف الصعبة التي أصبحت تمر بها الواحة، وفشل المناطق المجاورة في تقديم العون، كانت القوات الفرنسية قد استكملت كل الاستعدادات للقيام بالهجوم الكاسح حيث احتلت واحة بوشقرون وقامت بتخريبها وذلك لقطع الإمدادات عن واحة الزعاطشة. كما واصلت أعمال حفر الخندق المؤدي إلى القلعة وتصويب المدفعية نحو أهم مراكز الواحة. كما

¹ إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، مرجع سابق، ص69.

² أحمد خمار: تحفة الخليل في نبذة من تاريخ بسكرة النخيل، مطبعة الفجر، جزائر، 2008، ص 41

³ Abdelhamid Zouzou : , op_cit , p 239.

⁴ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، مرجع سابق، ص67.

أعطيت الأوامر بإبادة الواحة فبدأ صوت المدافع يصل إلى أسوار المنازل ويحولها إلى ركام ولتتمكن هذه القوات الفرنسية من التوغل فيها على مسافة 60م من الجسر المؤدي إليها¹.

ورغم عنف الهجوم إلا أن اليأس لم يتمكن من الوصول إلى نفوس الثوار رغم قلة وبساطة عتادهم ، بل هاجموا القوات الفرنسية بكل صبر وإيمان فاقتحموا خندق العدو وقتلوا كل حراسه كما اشتبكوا مع القوات الفرنسية بالأسلحة البيضاء وتمكنوا من قتل 11 جندي من بينهم الضابط جيورين (Guerin) وجرح 42 من بينهم الضابط لومبار. فأسرع الجنرال هيربون إلى تقسيم قواته لثلاث فرق قصد تشديد الخناق أكثر ومنع وصول أي إمدادات إلى الواحة، وقد نجحت فرقة لورباكي في قتل جماعة من الثوار الذين أرسلهم الشيخ بوزيان لطلب النجدة².

واستمر الحال بين الكر والفر إلى غاية يوم 26 نوفمبر 1849 حيث شنت القوات الفرنسية هجومها الساحق³ و الأخير، وعلى الثامنة صباحاً⁴، تمكنت القوات الفرنسية من التوغل في شوارع الزعاطشة وأثر الثوار الموت على الاستسلام وطلب الأمن ، ودارت المعارك من منزل لآخر ومن شارع لآخر ، حيث دمرت وهدمت المدافع الفرنسية كل ما اعترض طريقها وبعد أن هدمت كل المنازل احتفى ما بقي منهم على قيد الحياة في دار الشيخ بوزيان، التي تصاعد منها الهجوم الذي عاق تقدم القوات الفرنسية وعندها قررت هذه الأخيرة نسف الدار بالديناميت⁵.

فانهار وجه المنزل و اختلطت النيران بالدخان والغبار وأتت الجرحى ووسط الركام خرج الشيخ بوزيان ،فسارعت قوات العدو لتكبيله خوفاً من إحداثه المفاجأة وهروبه ، وقبل أن يقتل رفع رأسه إلى السماء قائلاً : " إني مستعد لقد كنتم الأقوياء ولكن الله أكبر"⁶، لينهال عليه العدو العدو بالرصاص فسقط شهيداً . دون احترام أخلاقيات الحرب التي يدعي الفرنسيون أنهم من بين المساهمين في وضعها ،حيث لم توفر للشيخ بوزيان أبسط المحاكمات ولو كانت صورية

¹ __ محمد العربي الزبيري: مرجع سابق، ص 70.

² __ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، مرجع سابق، ص 67.

³ __ أنظر الملحق رقم : 27.

⁴ __ وذلك بعد أن وشى ابن سلامي للقوات الفرنسية عن ذهاب بعض الجنود من القبائل المجاورة لقضاء يوم العيد مع ذويهم ،فاستغل العدو الظروف وقام بشن هجومه الكاسح مستغل نقص عدد القوات ،فأصبح هذا الخائن مضرب المثل في المنطقة "سلامي خاين الزعاطشة " بن عيسى سعيد : مرجع سابق.

⁵ __ Abdelhamid Zouzou : , op.cit. pp 239,240.

⁶ __صالح فركوس :أصالة وتعريب مشروع فرنسا الصليبية والمجاهدة الإسلامية ،دار الكوثر،الجزائر ، 1991، ص 92.

ولم يكتف العدو البغيض بقتله بل قام بجز رأسه ورأس ابنه الذي لم يتجاوز 16 سنة خوفا من أن ينتقم لأبيه وكذلك رأس صديقه الحاج موسى الدرقاوي¹.

وحملت إلى بسكرة وعلقت على أبوابها لمدة ثلاثة أيام قبل أن تنقل إلى متحف الأنثروبولوجيا في باريس وهي ما تزال إلى غاية اليوم هناك ، وكلنا أمل أن ترد هذه الرؤوس لتدفن في الأرض التي سالت دماؤها من أجلها لا في أرض قاتلها.²

وقد وصف كانروبار³ نهاية المعركة بقوله " عندما انهارت منارة المسجد التي نادى منها الشيخ بوزيان أتباعه إلى الجهاد ،تحت قذائف مدفيعتنا تعالت صيحة الفرحة مدوية في المعسكر الفرنسي ،كان ذلك تتويجا لحصار عسكري، طويل وشاق كلفنا الكثير من الجهد والدم ".⁴

إن ثورة الزعاطشة استطاعت وبصدق أن تترجم مشاعر الأهالي بالرفض القاطع للقوات الفرنسية المصممة على إفتكاك الأرض ونهب الخيرات ، فتحمل شعبها مسؤوليته وأظهر للعدو روح تضامنه مبرزاً بذلك الوطنية الجزائرية ، وقوة سكانه من خلال المقاومة البطولية والكفاح المرير ، لتتمكن الواحة وبضالة إمكانيتها أن تلقن الجيش الفرنسي درسا في الصبر والإصرار ،بهذا انتهت هذه الثورة التي صنع مجدها أبطال جزائريون فظلوا المقاومة والاستشهاد على الاستسلام للعدو والعيش من فتاة موأده .

¹ _ هو سي موسى بن حسن المصري الملقب بو حمار ،ولد بمصر و تربى فيها قام بالعديد من الرحلات أهمها رحلته إلى سوريا و القسطنطينية و الجزائر و طرابلس حيث التقى في هذه الأخيرة بسي محمد بن حمزة مؤسس الطريقة الشاذلية ،الذي أقنعه بإتباعها فانشقت عنها الطريقة الدرقاوية فأصبحت الأولى خاصة بتونس و ليبيا و الثانية بالجزائر ،وفي سنة 1829 زار سي موسى مدينة الأغواط و كسب فيها العديد من المرددين و أسس زاوية ببلدة مسعد ،في سنة 1835 واجه الأمير عبد القادر ،كما دافع عن الصحراء من التواجد الفرنسي ،يعتبر أحد أقطاب ثورة الزعاطشة .أنظر :إبراهيم مياي :الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية،مرجع سابق ، ص138.

² _ فوزي مصمودي: الذكرى 152 لثورة الزعاطشة ،مرجع سابق ،ص 4.

³ _ هو François Certain ولد في Saint Géré في 1826 ،وفي سنة 1845 عين كملازم أول ،وفي 8 نوفمبر 1847 تقلد منصب مارشال 1856 ،توفي في باريس في 29 جانفي 1895 .أنظر Jeanne et André Brochier , op.cit, p88

⁴ _ Abdelhamid Zouzou : , op.cit , p 34.

المطلب الثالث: نتائج الثورة

لقد كانت نتائج هذه الثورة صفحة مضيئة في تاريخ منطقة الزيبان ، جاءت لتثبت للعالم أن المجازر الفضيعة والأعمال الشنيعة التي ارتكبها الجيش الفرنسي في حق الأهالي لا تمت إلى الحضارة بصلة ولا لأي مدنية كما يدعي الاستعمار ، إنما مثلت نفوسا أشبه ما تكون بذئاب متعطشة لسفك الدماء وقتل الأرواح وتخريب كل ما تلمحه عين، فقد كانت الخسائر عظيمة عظمة وصمود سكان الواحة.

ومما خلفته هذه الثورة نذكر :

1- الخسائر الفادحة التي منيت بها الواحة على يد العسكريين الفرنسيين المحترفين في القتل والنهب والنسف وهتك الأعراض والرق وبقر البطون وقطع رؤوس الأحرار، حيث أنهم لم يتركوا واحد من هذه الأساليب لم يمارسوها ،وهم ينتقمون من الأهالي فزيادة على ما فعلوه في حق الشيخ بوزيان ومن معه كما سبق وأن ذكرت ، قامت القوات الفرنسية¹ بإعدام 794 مجاهد رمي بالرصاص و شلق 1500 وقطع رؤوسهم وتعليقها على الخناجر والسيوف والبنادق والأبواب². حيث بلغت الخسائر البشرية للواحة في اليوم الأخير إلى 800 شهيد³، و بلغ عدد النساء اللواتي قتلن 117 امرأة⁴، و زيادة على عدد الشهداء ، قامت السلطات الفرنسية بنفي الأسرى إلى مختلف مناطق الوطن⁵.

ولعل أهم شهادة يمكن أن نصف بها روع المجزرة هي وصف أحد من عايشوها من صفوف العدو حيث يقول دبوديكور: " إن الجنود كانوا يعبثون بالضعفاء وبكل من وجدت فيه بقية روح هذه امرأة طريحة عبثوا بحلمة ثديها وهي لاتطلب سوى الإجهاز عليها وتخليصها من العذاب"⁶. وكذلك شهادة جندي آخر وهو يصف منظر جندي فرنسي يحمل طفلا صغيرا من رجله ويضرب رأسه على الحائط ليهشمه ،كما استاء البعض من هذه

¹ _ كما عمل العدو على استمالة ولذاه مصطفى وبوبكر اللذان أصبحا فيما بعد عملاء له .

² _ Abdelhamid Zouzou : , op.cit. p 242

³ _ جيلالي صاري وآخرون : مرجع سابق ، ص 190.

⁴ _ أحمد إسماعيل راشد: « المقاومة الوطنية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي»، البيان، جامعة آل البيت، عمان، 04، 2002، ص146.

⁵ _ بن عيسى سعيد : مرجع سابق.

⁶ _ إبراهيم مياشي : من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر ، مرجع سابق ، ص 89.

الأعمال الشنيعة التي قام بها الجيش الفرنسي في حق السكان فوصفها بقوله : " لا أخاف أن أقول: بأن مجد المنهزمين عظم وفاق مجد المنتصرين".

2- قطع جنود الاحتلال لما قارب 10.000 نخلة وحرقتها إضافة إلى مصادرة أملاك الأهالي التي قدرت بـ 12738 نخلة و 903 شجرة مثمرة¹.

3- إن التضامن الديني والوطني المنقطع النظير الذي أظهره سكان واحة الزعاطشة المتحلين بروح الإصرار مؤمنين ببلوغهم الهدف، ذلك التضامن الذي بث الدهشة والرعب في نفس العدو، واستطاع من خلاله أن يفشل كل خططهم اللإنسانية فقد آثروا موت الشرف على استسلام العار والهزيمة، هذا التضامن الذي كان بحق نقطة اختلاف بين ثورة الزعاطشة والمقاومات التي سبقتها.²

4- احتلال مدينة بوسعادة، حيث أن هذه الأخيرة قد قامت فيها ثورة بقيادة محمد علي شبيرة، فلما سمع بثورة بوزيان قام بالدعوة لها ومساندتها كما قام بإرسال النجدة إلى الواحة و مهاجمة الحامية الفرنسية لمدينة بوسعادة سنة 1849، وقد تلقى الدعم من أولاد نايل وعدد من سكان النواحي المجاورة، وبها اتحدت القوات الفرنسية مع سكان بعض المناطق المجاورة (البرج، مجانة) من أجل فك الحصار عن حامية بوسعادة و تمكين القوات الفرنسية بقيادة العقيد دumas من دخول المدينة، الذي تم في 14 نوفمبر 1849، و قد فرضت على الأهالي ضرائب ثقيلة قدرت بـ 8000 فرنك. كما أجبروا على التخلي عن بعض ممتلكاتهم (من زراعي و منسوجات) مما جعل البعض منهم يفر إلى القطر التونسي، كما نصب الضابط بان (Pein)³ قائدا على المكتب العربي فيها⁴.

5- لتوسيع دائرة الانتقام قام العقيد كانروبار في 05 جانفي 1850 بالهجوم على واحة نارة التي تقع على ضفاف وادي عبيد بالأوراس،⁵ بقوة قوامها 03 فرق من الجيش و عمل على

¹ _ أرشيف مدينة بسكرة .

² _ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830 * 1962، مرجع سابق، ص 339.

³ _ هو Pein louis Auguste Théodore ولد في Château S Marine عمل كجندي متطوع في الجيش في كفييري 1832، وفي 1841 أنشأ حامية في Philippe Ville، وفي 1846 عين كقبطان وفي 1855 عين كولونيل، وتوفي في 12 جانفي 1892. أنظر Jeanne et André Brochier , op.cit, p246

⁴ _ إبراهيم مياشي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص 89.

⁵ _ Philippe Thiriez : En Flânant les Aurès, éditions numidia, Alger, 1986, p24.

تدميرها و حرقها و قتل كل سكانها لتلاقي نفس مصير واحة الزعاطشة ، كما وصف أحد الجنود هذا الهجوم قائلا "أما في نارة ، فقد تم قتل كل من اعتصم بها ، رميا بالرصاص، أو ماتوا بسقوط سقوف المنازل عليهم ، لقد دام اكتساح ذلك الملجأ مدة سبع ساعات ¹ . وأمام هذا الانجاز المخزي قامت الإدارة الفرنسية بترقية كانروبار إلى رتبة جينرال ² ، وقد جاء هذا التدمير لاعتقادهم أن الشيخ بوزيان ينتمي لهذه الواحة، وقد وصف كانروبار هذا الهجوم الشرس وسقوط القرية في مراسلة إلى القائد العام ³ بقوله : " إن السكان قد سقطوا بالجنان الواقعة بالمنحدرات ، وقد تبغناهم من دار إلى أخرى حتى قضينا عليهم وقد أمضينا سبع ساعات في حرق وهدم القرى الثلاث التي تتكون منها نارة " ⁴ .

6- سحب السلطات الفرنسية الثقة من العائلتين الخائنتين (بوعكاز وبن قانة) رغم المساعدات التي قدمتها العائلتان للسلطات الفرنسية من أجل إبادة الواحة الزعاطشة ، والقضاء على الثورة ، إلا أن السلطات الفرنسية قامت بتقسيم نفوذ العائلتين ⁵ ، لا لشيء سوى لشكها فيهما ، كما أنها أنها لاحظت أن إتحادهما يشكل خطرا جديدا على فرنسا وهي ليست مستعدة لصدده ، لذلك قامت بإعطاء عائلة بوعكاز قيادات صغيرة في الحضنة ونواحي سطيف إضافة إلى الزاب الشرقي وبني بوسليمان بالأوراس التي كانت تابعة لابن قانة ، أما عائلة بن قانة فقد تم تقسيم منطقتها الزاب الغربي إلى العرب الشراقة والعرب الغرابية بقصد مراقبة الشيخ بن قانة كما تم استحداث منطقة جديدة في شمال بسكرة تسمى قيادة السحاري وهي تابعة لبولخراس والهدف من هذا الأسلوب هو السماح للسلطة الفرنسية لمراقبة العائلات المتعاملة معها عن كثب. ⁶

¹ _ أندري برنيان و آخرون : مرجع سابق ، ص 289.

² _ محمد الصالح صديق : الجزائر بلد التحدي و الصمود ، موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1999، ص 70.

³ _ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830 * 1900 ، مرجع سابق، ص 338.

⁴ _ عبد الحميد زوزو: ثورة الأوراس 1879 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1986 ، ص 24.

⁵ _ كما أرجعت أسباب التقسيم إلى عدم قدرة شيخ العرب على فرض نفوذه حيث وصف القائد كرنوبات بوعزيز بن قانة بقوله "لم يعد قادر على قيادة قبائله البدوية أو يقوم على شؤونهم الإدارية " فصدر قرار التقسيم في 23 جويلية 1850 . أنظر :

صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية ، مرجع سابق ، ص ص 327، 328 .

⁶ _ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1900 * 1830 ، المرجع السابق، ص 338.

7- استمرار المقاومة في مختلف ربوع الوطن فما بين (1849-1850) ومن بين هذه الثورات. الثورة التي حدثت في زراوة وهي منطقة بين تيزي وزو وسور الغزلان حيث قام أحد الأشراف باستغلال خبر إطلاق صراح "بومعزة" من قبل السلطات الفرنسية وادعى أنه هو بومعزة ، ودعا إلى الثورة فاستجاب له الناس ولكن السلطات الفرنسية تمكنت من إلقاء القبض عليه وكان مصيره مماثل لمصير الشيخ بوزيان حيث قطع رأسه وتم تعليقه فوق مقصلة سور الغزلان حتى لا يشك الناس في موته¹.

8- قتل القائد الأول الكولونيل كاربيسيا وكذا قتل 330 عسكري من بينهم 30 برتبة ضابط وصف ضابط كما جرح حوالي 680 من بينهم 60 برتبة ضابط كما قدرت الخسائر بأكثر من 1000 جندي وهذا بشهادة هربيون نفسه². وتخليدا لهذا النصر الكبير في مجال الوحشية والبربرية تم تسمية أحد طرقات العاصمة باسم هذه الواحة³. وقد علقت إحدى الجرائد الفرنسية حول الموضوع بقولها " إن هذه هي أول مرة في تاريخ احتلالنا للجزائر نواجه بمثل هذه الحالة ،إن أحد عشر ألف بندقية تعمل جاهدة للقضاء على المقاومة كلفتنا حتى الآن ثمانمائة رجل بين قتيل وجريح ،ونتيجة لذلك فان بوزيان زعيم الثورة ونائبه الشريف بو عمار بالإضافة إلى عدد يتراوح بين سبع وثمانمائة وطني أعطيت رقابهم للسيف"⁴.

¹ _ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 340.

² _ مديرية المجاهدين لولاية بسكرة :قاموس الشهيد من ولاية بسكرة (1954، 1962) ، جويلية 2005 ص 19.

³ _جلال يحيى:السياسة الفرنسية في الجزائر 1830*1960، ط1، دار المعرفة ،القاهرة ،1959 ص 176.

⁴ _ أبو القاسم سعد الله :الحركة الوطنية الجزائرية ،مرجع سابق ،ص 53.

المبحث الثاني : ثورة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي 1849

تعد انتفاضة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي من أهم الانتفاضات الشعبية التي عرفتها منطقة الزاب الشرقي، كما أنها اعتبرت امتدادا لثورة الزعاطشة بقيادة بوزيان سنة 1849، و أهم ما ميز هذه الانتفاضة أن زعيمها كان عالما متصوفا، إلا أنه حمل راية الجهاد بكل قوة و حزم. أما المنطقة التي شهدت الثورة وهي الخنقة التي تعني الفج أو المضيق بين جبلين، و قد تأسست الخنقة على يد سيدي المبارك، الذي يعود أصله حسب الشيخ بن سلامة في كتابه الأنساب، إلى بني أمية في الأندلس، الذين هاجروا إلى المغرب العربي، إثر سقوط الحكم الإسلامي بها، و هكذا تنقل سيدي المبارك بن قاسم بن ناجي باحثا عن مستقر له و لرفاقه، إلى أن رأى حسبا يشاع رؤيا دعي فيها للذهاب إلى مكان يدعى مورد النعام، و هو موقع خنقة سيدي ناجي الحالي، فقصده مع بداية القرن 11 هـ الموافق ل1602م، و اختيار الموضع كان مدروسا فهي تقع في مكان حصين بعيدا عن الأنظار، كما يمر بمحاذاتها وادي العرب، فشرع في بناء المسجد¹ وغرس الأشجار².

و نسبها يعود إلى جده الأول سيدي ناجي الولي الصالح المدفون بتونس فسميت خنقة سيدي ناجي تبركا به، وهي تقع بالجنوب الشرقي للأوراس على سفح الأطلس الصحراوي شرقي مدينة بسكرة بحوالي 100 كلم، بين جبلين يتوسطها وادي العرب، و تحيط بها غابات النخيل و أشجار الفاكهة، حيث ذكرها الورتلاني في نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار بقوله: "و الخنقة قرية مباركة طيبة ذات نخل و أشجار تقع بين جبلين"، كما شرع في بناء المساكن، فأسس حارة لواطاة في الجهة السفلى و حارة صدراته و هي تقع فوق الحارة السابقة³.

¹ - أنظر الملحق رقم 10.

² - محمد الصالح حثروبي: مرجع سابق، ص 13.

³ - الجمعية الناصرية للتنمية الثقافية و الاجتماعية لخنقة سيدي ناجي: الذكرى المئوية الرابعة لنشأة خنقة سيدي ناجي

(2002/1602) بحوث في تاريخها و سكانها و ترجمات لبعض من أعلامها، شركة دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2002

، ص ص 10، 11

◉ نبذة عن حياة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي :

هو عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الهجرسي العامري الونجلي الإدريسي الحسيني الخنقي، و ينتهي نسبه إلى سلالة شريفة¹، كما أكد ذلك الشيخ العالم الشاعر عاشور الخنقي في مؤلفه منار الأشراف².

ولد بخنقة سيدي ناجي، من أسرة محافظة و قد أغفلت المراجع التاريخية تاريخ ميلاده الذي يرجح أن يكون سنة 1789 م. نشأ و ترعرع في مسقط رأسه، حيث حظي بتربية إسلامية خالصة، فنهل العلم من منابع علماء المنطقة مثل الصديق الو نجلي، ثم الشيخ محمد بن عزوز البرجي أحد كبار العلماء الجزائريين في نهاية القرن 18 و مقدم الطريقة الرحمانية بمنطقة الزاب³.

و قد أصبح الشيخ عبد الحفيظ الخنقي أحد شيوخ هذه الطريقة البارزين، وذلك بدعوته الدينية ببعث وإحياء الوحدة الروحية والوطنية، فحمل على عاتقه لواء النهضة وتبنى المنهج الثوري التحرري الذي كان له أثره العميق في بث الروح الوطنية في وجدان الشعب أسس بالخنقة زاويته التي كانت منارة لنشر الدين و العلم⁴، وتتلذذ على يده العديد من الشيوخ الذين لمع

¹ _ يطلق على من يرجع أصله إلى آل البيت وإدريس الأصغر، حيث يرجع نسبه إلى على كرم الله وجهه .

² _ محمد الصغير سويسبي: " المقاومة الشعبية في الزاب الشرقي بقيادة عبد الحفيظ الخنقي"، الملتقى الوطني للمقاومة الشعبية بالزيبان، مديرية المجاهدين لولاية بسكرة، الجزائر، ديسمبر 1998، ص12.

³ _ تنسب الطريقة الرحمانية إلى محمد بن عبد الرحمان القاشتولي الجرجري الجزائري المكنى (ببو قبرين) المولود حوالي 1715م، 1728م وهو ينتمي إلى عرش آيت إسماعيل (في جبال جرجرة)، قصد البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج 1739م، 1740م، وفي طريق العودة زار الأزهر الشريف وطاب له المقام، فبدأ بتلقي الدروس، فنتلذذ على يد سالم النفراوي و، عمر طلحاي، حسين الجداوي والشيخ العمروسي، أنظر

Louis Rinn :Marabouts et Khouans ,étude sur L Islam en Algérie ,Alger –jordan, 1884, p452.

أما أهم الزوايا الرحمانية بالزيبان فهي : زاوية البرج : بقيادة محمد بن عزوز ،زاوية أولاد جلال : بقيادة المختار بن خليفة الجبلاي ،زاوية خنقة سيدي ناجي : بقيادة عبد الحفيظ الخنقي ،زاوية سيدي مصمودي في أحمر خدو : بقيادة الصادق بن الحاج .و الرحمانية يقوم منهجها على الجهاد ضد المستعمر والعلم والتصوف .أنظر : مختار فيلاي :«الطريقة الرحمانية ودورها في مقاومة الاستعمار » التراث ، ع 12، جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس ، 2004، ص 122.

⁴ _ أنظر الملحق رقم 09

صيتهم، كما لعبوا دورا بارزا في الحياة الثقافية و السياسية¹ في المنطقة. منهم محمد المكي بن الصديق الخنقي و التارزي بن عزوز.²

و أهم مؤلفاته: التعريف بالإنسان الكامل، الجواهر المكنونة في العلوم المصونة، حرب الفلاح، مصباح الأرواح، الحكم الحفيظية، غنية القارئ بترجمة ثلاثيات البخاري.³

وللشيخ عبد الحفيظ ثلاثة أولاد ،وقد ذكر المؤرخ لويس رين واحدا منهم ،هو "الشيخ سي محمد الأزهري بن عبد الحفيظ مسؤول عن زاوية صغيرة بحيران في جبل شاشار ،وقد كان يميل إلى حياة العزلة والانطواء ".⁴

وعموما فإن الشيخ عبد الحفيظ كان يتمتع بسمعة حسنة بين القبائل بسبب حكمته و سداد رأيه

المطلب الأول: معركة واد براز 17 سبتمبر 1849

1. سبب اندلاع المعركة

بعد اندلاع ثورة الزعاطشة، و فشل المستعمر في إخماد لهيبها ،و عزل أحداثها، و نجاح بوزيان في توزيع دائرة دعايته و نشر مبادئ الجهاد في مختلف القبائل التي بقيت بعيدة عن صدى الثورة، بدأ بمراسلة زعماء المناطق المجاورة طالبا منهم مد يد العون و المساعدة، فاستجاب لندائه العديد من القادة و الزعماء المشهود لهم بالكفاءة و الإخلاص ومنهم: سي عمران بن جنان قائد أولاد سلطان و الشيخ بن الجودي شيخ أولاد زيان و الشيخ عبد الحفيظ الخنقي⁵، هذا الأخير الذي لبي النداء، فبدأ بتوحيد قواته، و تمكن من جمع كتائب من المجاهدين أوائل الخريف، فحمل العالم الورع راية الجهاد و أعلن الثورة ضد فرنسا و أعوانها من أجل نصرة الدين و الوطن. و لم يتوان في الوقت نفسه في تقديم العون لواحة الزعاطشة ، التي بدأت تعيش في خناق شديد نتيجة الحصار المفروض عليها.⁶

¹ _ هناك زاوية أخرى نشطت في المنطقة وهي الزاوية الناصرية لعائلة بن الحسين، كما عمد الاستعمار الفرنسي إلى استمالة بعض من أفرادها ، وذلك بمنحهم بعض المراكز القيادية ، والهدف من ذلك هو خدمة مصالحه . أنظر ، أبو القاسم سعد الله :تاريخ الجزائر الثقافي ، ط1، ج3 ، دار الغرب الإسلامي ، 1998 ، ص 218.

² _ زوايا ولاية بسكرة :مديرية الشؤون الدينية والأوقاف ،الجزائر ، 2003، ص15.

³ _ جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق، ص 19.

⁴ _ Louis Rinn , op . cit , p 455.

⁵ _ سليم كرام: « الشيخ عبد الحفيظ الخنقي فارس مقاومة الكرامة في وادي براز »، الخلدونية ، الجمعية الخلدونية للأبحاث و الدراسات التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر، ع 3، ديسمبر 2004، ص 122 .

⁶ _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، مرجع سابق ص 63.

بعد تلقي الشيخ عبد الحفيظ الخنقي نداء زعيم الزعاطشة، قدم الشيخ كل ما يملك من أجل نصرة أبناء وطنه، فبدأ باستمالة القبائل المجاورة له: أولاد داود و أولاد عدي، و بني سليمان و أهل غسيرة و ليانة¹ و بادس و زريبة الوادي بالإضافة إلى تعاون الشيخ الصادق بن الحاج الذي هب لنجدة بوزيان و سكان الواحة و فتح جبهة قتال جديدة ضد العدو لفك الحصار عليها، فبدأ بتحضير الذخيرة و المؤن و تجنيد المقاومين كما انظم إليهم أحمد بن الحاج خليفة الأمير عبد القادر².

2. مجريات المعركة

في يوم السبت 25 أوت 1849، خرج الشيخ عبد الحفيظ الخنقي و أحمد بن الحاج بجيش مؤلف من 2000 شخص، و انظم إليهم الشيخ الصادق بن الحاج، الذي قدم من أحمر خدو و معه 200 فارس، و قد أسندت قيادة هذه الجيوش للشيخ عبد الحفيظ الخنقي³. و تحركت القوات صوب مدينة بسكرة، كما حظي باستقبال حار و بتأييد مطلق من جميع القبائل التي حل بها والتي لم تبخل عليه بشيء، بل دعمته بالعدد و العدة حيث انظم إليه أولاد صوله و أبنائهم، فبلغ عدد الجيش 3000 مقاتل منها 1000 من الفنتازية و 200 فارس و بعد أن استكمل الشيخ عبد الحفيظ الخنقي كل الاستعدادات للبدء بالمواجهة العسكرية، أعطى الأوامر للقوات بالتحرك نحو الواحة⁴.

في 17 سبتمبر 1849 وصلت واد براز، الذي يقع بمحاذاة سريانة التي تبعد بـ 20 كلم عن بسكرة⁵، و هي تقع على مقربة من سيدي عقبة، التي كانت تحت حكم شيخ من عائلة ابن شنوف الموالية لفرنسا، و قد أصدر الشيخ عبد الحفيظ أمرا لقواته بحط الرحال، و التمرکز على الضفة اليسرى للوادي⁶.

¹ _ هناك اختلاف حول أصل التسمية: فرأي يقول "نسبة إلى امرأة رومانية تدعى ليونة" أما الرأي الآخر فيقول "نسبة إلى أول من عمرها حيث رد على أول من جاء بعده وأراد الاستقرار والتعمير بها "هذه الأرض لي أنا " انظر " محمد الصالح حثروبي: مرجع سابق، ص 12.

² _ Halim Cherfa : , op. cit , p 90 .

³ _ Abdelhamid Zouzou : , op.cit. p237

⁴ _ الجمعية الناصرية : مرجع سابق، ص 12 .

⁵ - أنظر الملحق رقم 13.

⁶ _ Halim Cherfa : op. cit p 91.

في هذه الأثناء قام الشيخ عبد الحفيظ بمراسلة شيخ منطقة سيدي عقبة بن شنوف يطلب منه العون و المؤازرة، لكن ابن شنوف¹ قابل طلبه بالخيانة حيث أسرع بإبلاغ السلطات الفرنسية بالأمر، و عندما وصل الخبر للقائد سان جرمان، بدأ بتجهيز نفسه، و تحرك على رأس قواته المكونة من 300 من المشاة، 200 فارس من الخونة، و 70 قناصا و 55 صباحي². وأسندت القيادة للعميل بولخراف الذي توجه إلى قرية تهوده، لأنه كان يظن أن القوات متواجدة داخل القرية³، و قبل وصول القائد سان جرمان إلى القرية علم أن قوات الشيخ عبد الحفيظ متمركزة على ضفاف واد براز، فحول وجهته إلى الوادي، و عندما وصل لاحظ هدوءا كبيرا مخيما على المكان، بالإضافة إلى ضعف الحراسة على معسكرات عبد الحفيظ، فاستغل وضع قوات الثوار فقام بمحاصرتها و مع بروز الفجر كان الفرنسيون في كل مكان يحاصرون قوات المجاهدين⁴.

و مع صوت آذان الفجر انهالوا عليهم بوابل من الرصاص، معلنين عن بداية المعركة⁵، إلا أن بن قانة ذكر بأن المعركة بدأت على الساعة الخامسة و النصف صباحا في 21 سبتمبر، و لم تنته إلا في الليل عندما فر العدو هاربا، و رغم الاختلاف حول تحديد موعد انطلاق المعركة، إلا أن ذلك لم يقف حاجزا أمام عزيمة الثوار، بل نزلوا ميدان القتال بقوة يملؤها الإيمان بتحقيق النصر المنشود، فأصدر الشيخ عبد الحفيظ الأمر ببدء الهجوم على القوات الغازية⁶.

واشتد القتال بين الطرفين في الصفوف الأمامية، حيث أظهر فرسان الشيخ من البسالة و القوة ما بث الرعب و الخوف في نفس العدو، فاستغل الثوار خوف و هلع العدو، ووجهوا له هجمات قوية زلزلت تماسكهم، فتحقق لهم النصر مع الساعات الأولى لبداية المعركة، و ألحقوا

¹ _عثماني مسعود: مرجع سابق، ص 77.

² _ Abdelhamid Zerdoum : **Les Biskris et la France** , op.cit , p 32

³ _ Abdelhamid Zouzou : **op.cit** , p238

⁴ _ محمد الصغير سويبي: " المقاومة الشعبية في الزاب الشرقي"، مرجع سابق، ص 3.

⁵ _ محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص ص 61، 60

⁶ _ جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق، ص 193.

بهم خسائر فادحة في الأرواح، كما تمكنوا من قتل الرائد سان جرمان الذي أصيب برصاصتين في الرأس¹.

و لكن ما لبثت أن تمكنت قوات العدو من استرجاع سيطرتها و توازنها، فأحكموا حصارهم على الثوار، و برز الضعف في صفوفهم نتيجة عدم تكافؤ المعدات الحربية، و اعتماد قوات العدو على نصب الكمائن و المباغلة، فانقلبت موازين القوى و تمكن من استجماع قواته، و تحول من موقع الدفاع إلى الهجوم ضد الثوار، و ما إن وصلت الساعة السادسة حتى أمر الشيخ عبد الحفيظ قواته بالانسحاب و التراجع إلى الجبال المجاورة، ريثما ينظم صفوفه و يجمع شتاته و يعاود الهجوم من جديد ليخلص بسكرة من الحصار² .

المطلب الثاني : نتائج المعركة

1. نتائج المعركة

لقد اختلفت المصادر التاريخية في رصد نتائج معركة واد براز بسريانه، فالمصادر الفرنسية تصر على اعتبار معركة واد براز من أعظم انتصاراتها، على الرغم من مقتل قائدها سان جرمان، حيث ذكرت هذه المصادر أن قواتها تمكنت من قتل ما يزيد عن 100 مجاهد، بالإضافة إلى استيلائها على الكثير من الخيول و البغال و الخيم و الأمتعة و حجز ما يقارب 100 بندقية و كميات معتبرة من الذخيرة، أما خسائرهم فلم تزيد على أربعة قتلى بالإضافة إلى القائد سان جرمان، و أن الثوار اللذين تراوح عددهم ما بين 1500 و 1000 مجاهد قد فروا إلى الجبال و من بينها خيمة القائد الشيخ عبد الحفيظ الخنقي³.

وذلك ما جاء على لسان صحيفة نوفال (La Nouvelle) بتاريخ 30 سبتمبر 1849 بقولها : " قتل المقدم دوسان جرمان وأربعة جنود جرحى في معركة خاضها الجيش الفرنسي يوم 21 سبتمبر 1849 بالقرب من سريانة وهو يحاول مواجهة ما بين 1500 إلى 2000 من العرب، بهدف استرجاع بسكرة، غير أن هؤلاء قد فروا إلى الجبال تاركين وراءهم العديد من القتلى⁴ .

¹ Halim Cherfa : op.cit. p92

² Abdelhamid zerdoum, les biskris et la France 1844,1962 , , op. cit , pp 60-61

³ _ عبد الحليم صيد: « عبد الحفيظ الخنقي العالم المربي و الصوفي المجاهد » ، النبأ، الجزائر، ع164، 1994، ص9.

⁴ _ Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France , op.cit , p 32.

أما ابن قانة فلم يذكر شيء عن نتائج المعركة سوى إصابة العديد من الجنود، الذي أدى إلى تهقر العدو و انكشاف قائد المعركة و مقتله.¹

و بعد التأمل في هذه النتائج نجد أن المصادر الفرنسية حاولت التضخيم من حجم الانتصار لتثبت أنها القوة التي لا تقهر، و لكن الحقيقة هي أن المنطق التاريخي لا يمكن له أن يقبل هذه النتائج ذلك، بعد التمعن في التجهيزات التي تم إعدادها لهذه المعركة و القوة البشرية المشاركة فيها، و التي تراوحت ما بين 1500 و 2000 مجاهد، و المدة الزمنية التي استغرقتها حوالي يوما كاملا، و الأسلحة المستعملة، إضافة إلى الإيمان الكبير الذي تحلى به الثوار فمن المستبعد أن تكون نتائجها مقتل أربعة جنود، في مقابل استشهاد حوالي 200 مجاهد، هذه الإحصائيات لا يمكن أن تكون صحيحة حسب رأي محمد العربي الزبيري . "إلا إذا كان رصاص الثوار تمرا جمعوه من غابات النخيل"². و كيف نحكم على انتصار العدو في المعركة و قد قتل قائدها، و نجا جنودها بدون خسائر في صفوفهم .

أما من الجهة الثانية فالمصادر العربية ترى عكس ذلك، حيث تقر هذه الأخيرة بأن الخسائر عمت الطرفين، و قد تمكن الثوار من قتل العديد من الجنود و الخيالة قدرت ب100 جندي و ذكرت قائمة لبعض الجنود الذين قتلوا من بينهم:

- المقدم دوسان جرمان.
- حامل البندقية شفيديرات لبار.
- حامل البندقية باربوني طوماس .
- حامل البندقية ديبون ألكسندر .
- الجوال روسيني غايتانو³.

و لعل أحسن دليل على الخسائر التي ألحقها المقاومون بالعدو هي كلمة التأبين التي ألقاها كانروبار (Canrobert) أمام ضريح القائد سان جرمان واعداء إياه بانتقام من مقتله⁴.

وقد رجح الدكتور أبو القاسم سعد الله استشهاد الشيخ عبد الحفيظ الخنقي في معركة واد بزاز إذ بقوله: " و في المعركة أستشهد الشيخ عبد الحفيظ كما قتل سان جرمان Saint

¹ _ Halim Cherfa : op. cit , p92.

² _ محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص61.

³ _ Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France , op.cit , p 32

⁴ _ محمد الصغير سويس، المقاومة الشعبية في الزاب الشرقي ، مرجع سابق، ص5 .

Germain¹ إلا أن الكثير من المصادر التاريخية التي تناولت مقاومة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي تؤكد أن وفاته² كانت بعد مدة من المعركة.³

2: مواصلة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي للمقاومة.

بعد أن نجا الشيخ عبد الحفيظ الخنقي في معركة واد بزار، عاد إلى خنقة سيدي ناجي، حيث حاول جمع قواته، و إعدادها من أجل رفع راية الجهاد من جديد، و في 4 نوفمبر 1949 اجتمع القادة " الشيخ عبد الحفيظ الخنقي و الشيخ الصادق بن الحاج و محمد الصغير بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر"، قصد الإعداد لمواصلة الجهاد.⁴

وتم بالفعل جمع القوات و تجهيزها، حيث بلغت 2000 مجاهدا من جبل أحمر خدو من الزاب الشرقي إضافة إلى 50 فارسا من وادي سوف، وقرروا استرجاع بسكرة، ثم التوجه بعدها إلى الزعاطشة لتخفيف الحصار على الواحة، إلا أن قلة الإمكانيات و ضعفها، أجبر الزعماء على العدول عن مخططهم في تقديم المساعدة، خاصة بعد وصول قوات عسكرية ضخمة إلى بسكرة بقيادة العقيد كاريبيسيا.⁵

وفي أثناء قيام فرنسا بحملات القمع ضد القبائل المساندة لثورة الزعاطشة، وصلت الحملة العسكرية إلى قرية خنقة سيدي ناجي في 1 جوان 1850، بقيادة (St Arnaud) الذي راسل الشيخ عبد الحفيظ الخنقي، عارضا عليه السلم والأمان في مقابل التعامل مع قوات العدو⁶، لكن الشيخ الشيخ رفض، وفضل الرحيل إلى منطقة الجريد التونسي.

توفي الشيخ في 13 جويلية 1850، بعد عودته من الجريد التونسي، بعد مرض الكوليرا الذي ألم به، و بهذا انطوت هذه الصفحة المنيرة و المشرقة من تاريخ الزيبان.⁷

¹ _ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830 * 1900، مرجع سابق، ص 331.

² _ أنظر الملحق رقم 03.

³ _ يومدين بوزيد : «الطرق الصوفية والاحتلال، جدل الرفض والقبول ورمزية صاحب الوقت» الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 127.

⁴ _ جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق، ص 193.

⁵ _ سليم كرام: مرجع سابق، ص 128

⁶ - ورغم محاولة سيروكا Séroka تليفق تهمة الخيانة للشيخ، وذلك بعد شرحه لأسباب التي حملته على عدم تدمير الواحة رغم مساندته لثورة الزعاطشة، وذكر توسط عائلة بن ناصر العميلة، والتي تربطها صداقة حميمة مع الشيخ عبد الحفيظ.

⁷ _ الجمعية الناصرية : مرجع سابق، ص 23.

المبحث الثالث: انتفاضة الشيخ الصادق بن الحاج 1859

✽ الشيخ الصادق بن الحاج نسبه و نشأته:

هو الشيخ محمد الصادق بن الحاج بن بلقاسم بن الحسين بن منصور ،المشهور بالصادق أو الحاج ،عند أهالي الأوراس، و الصادق بن الحاج عند سكان بسكرة و ما جاورها من واحات، و "صدوق" في بعض المراجع الفرنسية ،و الأشهر هو الصادق بن الحاج.

ولد في سنة 1206هـ-1791م بالقصر بجبل أحمر خدو جنوب جبال الأوراس وهو بذلك ينتمي لعرش أولاد أيوب¹ وهم فرع من أولاد منصور ، حفظ القرآن الكريم و هو في سن مبكرة و من أجل التزود بالعلوم الدينية و اللغوية، قصد زاوية البرج -برج بن عزوز- بالقرب من طولقة، و هي زاوية رحمانية ،يشرف عليها الشيخ محمد بن عزوز².

كما شغل منصب مقدم للطريقة الرحمانية في الخنقة (زاوية عبد الحفيظ الخنقي) ،وبعد وفاته أصبح الشيخ الصادق بن الحاج فيما بعد مقدما لها وعند عودته ،إلى المنطقة أسس زاوية له في تيرماسين بسيدي مصمودي، في جبل أحمر خدو.³

و سرعان ما ذاع صيتها، فقصدها المريدون من أنحاء عدة، و السبب في ذلك يعود إلى رفضها التام للحكم الفرنسي و الدعوة لرفض تواجده، كما أن ابنه سي إبراهيم ساعده في نشر أفكاره و مبادئه ،و لم يقتصر دور الزاوية على حمل راية الجهاد فحسب ،بل كانت منارة لنشر العلم و المعرفة و تحفيظ القرآن الكريم ، إضافة إلى أنها كانت مأوى للفقراء و المعوزين و لكل المقاومين الفارين من العدو و من أشهر شيوخها الشيخ محمد بن محمود و الشيخ حرزلي الصادق.⁴

المطلب الأول : مساندته لثورة الزعاطشة 1849.

وبفضل هذا الانتصار الكبير ذاع صيت الشيخ الصادق بن الحاج و ابنه إبراهيم في كل مناطق الأوراس و الزيبان، فزاد نفوذه و التف الناس من حوله كما حملوه راية الكفاح ضد

¹ _ FERAUD (ch):« Notes Historique sur la province de Constantine, les bendjellab sultans de Touggourt »,RA,n° 30,Alger,1886,p104.

² _ عبد الرحمان تيرماسين : مرجع سابق ، ص 5.

³ _ عثمان مسعود : مرجع سابق ، ص 83.

⁴ _ عبد الرحمن تيرماسين ،مرجع سابق، ص 10

العدو، فعاهد الله و الوطن على السير قدما ،نحو تحقيق هدفه الأسمى وهو اقتلاع جذور المستعمر .

أما المستعمر الفرنسي لم يستطيع أن ينسى الهزيمة الكبيرة التي مني بها على يد مشعوذ و عديم الفهم حسب رأيه ،ومن ثمة صمم على القضاء عليه فقام بإرسال قواته في الفترة الممتدة من 04 إلى 08 جوان 1845 حيث قام العقيد هريبيون و معه الجنرال بيدو (Bédeau)¹ بشن حملة عسكرية على رأس قوة عسكرية قوامها 2000 جندي مجهزة بأحدث الأسلحة بهدف قمع الثوار و ملاحقة أتباع زعماء المقاومة(الأمير عبد القادر و أحمد باي) في جنوب الأوراس و جبل احمر خدو².

و ككل مرة واجهت القوات الفرنسية مقاومة عنيفة و بأسلة من قبل مريدي الزاوية و الأهالي، حيث دأبوا على شن الهجمات على العدو و إفشال كل خططه ،و هذا بشهادة أحد الضباط الفرنسيين حيث وصف فيها صبر وشدّة الثوار قائلا : " وجدنا مقاومة قوية و عنيفة بتلك الجهة و استمرت المعارك ليلا نهارا لمدة أربعة أيام " ³.

فظالت المنطقة صعبة المنال لقوات العدو على الرغم من محاولاته الجادة للسيطرة عليها، حيث أظهر الثوار تمسكهم الشديد بأرضهم ،إلا أنه في يوم 05 جوان 1848 قام أحمد باي بتسليم نفسه للضابط سان جرمان رغم معارضة الشيخ الصادق بن الحاج لاستسلامه بعد أن تشاور مع قائد أولاد عبد الرحمن قلعة أكباش(بجبل أحمر خدو).⁴

بعد السياسة الجائرة التي طبقتها السلطات الفرنسية على أهالي الزعاطشة، و تدمير بوزيان و الأهالي منها أعلن الشيخ بوزيان تمرده و عصيانه ضد فرنسا و سياستها ، حيث باشر الاتصالات مع رؤساء القبائل قصد تهيئة الظروف و الإمكانيات اللازمة لإعلان الجهاد، و قد كان الشيخ الصادق بن الحاج من بين الزعماء الذين وصلتهم رسل بوزيان تطلب دعمهم و تحالفهم ، فاستجاب لدعوة الشيخ بوزيان ،فبدأ باستتفار القبائل التي كانت تحت نفوذه في

¹ _ Alponse Marie Bedeau ولد ب Verton ،عين في سنة 1833 كقائد جيش الأجانب ،وفي سنة 1840 أصيب مرتين في معركة Mouzaia ،حول إلى التقاعد سنة 1852.أنظر Jeanne et André Brochier : ,op.cit , p 29.

² - و قد خصت هذه الحملة الأعراس التالية:بن بوسليمان،غسيرة، سراحنة، أولاد أيوب، أولاد عبد الرحمن،أولاد محمد ،أولاد سليمان،أولاد عيسى.

³ _ جمعية أول نوفمبر: مرجع سابق، ص 192.

⁴ _عثماني مسعود : أوراس الكرامة أمجاد وأنجاد ، دار الهدى ، الجزائر ، 2008، ص 83.

الأوراس ، و تمكن من جمع قوة عسكرية لا بأس بها نظرا للمكانة التي أصبح يتمتع بها بعد سلسلة الانتصارات التي حققها، فتوجه على رأس هذه القوة نحو واحة الزعاطشة ، و قبل توجهه تلقى دعوة أخرى من قبل الشيخ عبد الحفيظ الخنقي يطلب منه التوجه إلى واد براز لتفجير الثورة من هناك ¹.

و كان يهدف من وراء هذه السياسة تخفيف الحصار الخانق الذي ضرب على واحة الزعاطشة، فلبى نداء الشيخ عبد الحفيظ و توجه في 15 سبتمبر 1849 إلى واد براز على رأس قوة قدرها 700 جندي حيث كانت قيادة الجنود المتحالفة للشيخ عبد الحفيظ ².

و في 17 سبتمبر 1949 اندلع لهيب المعركة بين القوتين ، و تمكنت القوات المتحالفة من القضاء على الرائد سان جرمان ، و قتل عدد من جنوده ، إلا أن ضعف التجهيز و قلة التنظيم أمام قوة تجهيز و تنظيم العدو ، حمل الثوار على الانسحاب من ميدان القتال، إلا أن الشيخ لم يستسلم على إثر هذه الهزيمة بل واصل جهاده و قد عاد الشيخ الصادق بن الحاج إلى زاوية القصر و بدأ يحث إخوان سيدي عبد الرحمن على الإتحاد ومواجهة العدو ³.

و في أكتوبر 1848 قام الشيخ بإعداد فرقة من أتباعه من أولاد زيان و صحاري و أسند قيادة هذه الفرقة لمحمد الصغير بن الحاج، حيث قامت باعتراض طريق قافلة عسكرية فرنسية قادمة من باتنة نحو بسكرة تحمل المؤونة و الذخيرة الحربية و اللباس و الأدوية للعساكر المتمركزين ببسكرة في مضيق القنطرة و اصطدمت القوتان حيث تمكن المجاهدون من إجبار القافلة على التقهقر و الرجوع من حيث أتت بعد أن تكبدت خسائر فادحة ، وبعد هذه العملية لم يسمح الشيخ الصادق بن الحاج لأي فرصة بالضياع منه دون شن هجوم على قوات العدو و تحالفت قوات الشيخ الصادق بن الحاج مع قوات أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر و قادوا معركة ضارية ضد قوات العدو في مكان يدعى علبة لمصاراة ⁴ حيث تمكنت القوات المشتركة من قتل الضابط أدوران كما استحوذوا على بعض من الأسلحة و الذخيرة . ⁵

¹ _ FERAUD (ch):« Notes Historique », RA,n° 30, op.cit. p105 .

² _ عبد الرحمن تييرماسين: مرجع سابق، ص 13 .

³ _ محمود العربي الزبيري: مرجع سابق، ص 83.

⁴ _ تقع بواحة الدروع في المنطقة الواقعة بين مشونش و بسكرة .

⁵ _ جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق، ص 193.

و أمام هذه الانتصارات العظيمة للشيخ الصادق بن الحاج و قواته، جندت قوات العدو بعضا من التابعين لها من عائلتي ابن قانة و ابن شنوف لرصد تحركات الثوار و القضاء على الشيخ، فكان هؤلاء الخونة على اتصال دائم عن طريق تقديم التقارير لها على أدق تحركاته و قد دامت فترة المتابعة من 1850 إلى 1856 و على الرغم من محاولات فرنسا تشديد الخناق عليه و الإنقاص من عزيمته إلا أن الالتفاف الجماهيري الكبير الذي كان حوله هو الذي كان يشد روح الصمود والمواصلة عنده .

المطلب الثاني: الانتفاضة الكبرى 1859

1. أسبابها

تعود أسباب اندلاع انتفاضة الشيخ الصادق بن الحاج إلى عدة أسباب اقتصادية و اجتماعية نذكر منها :

- إصدار فرنسا لمنشور سنة 1856 والذي يلزم سكان بسكرة بإرسال أولادهم إلى المدرسة الفرنسية ،وقد رفض الصادق بن الحاج هذا المنشور ،وبدأ بزيارة المناطق المجاورة من الرشايش وبني سليمان والطوابة يحرضهم على رفض المنشور ،مع شرح الأهداف الخفية ولبي سكان الزاب الشرقي والأوراس الأوسط وقبائل البدو والرحل ،دعوته بالمقاطعة ،وهذا ما دفع فرنسا بالحد من حرية الإخوان ،فدعوا للانتفاضة في 1858.¹

- تولي جيروم نابليون ابن أخ نابليون الثالث وزارة الجزائر و المستعمرات التابعة لفرنسا و الذي بدأ بتطبيق نظام خاص يعمل على السماح للمستوطنين الأوروبيون بفرض سيطرتهم على شمال البلاد كما يطلق العنان للعسكريين في الجنوب ، ونتيجة لهذا النظام تعرض الشعب الجزائري للمزيد من الضغط و الاحتقار و الإهانة و العنف كما أن هربيون كان دائما يعتبرهم سكانا سذجا و بؤساء ² .

- تمكن القوات الفرنسية من إحكام سيطرتها على جبال جرجرة في سنة 1857 فوجهت أنظارها نحو الجنوب ، وقد استعانت ببعض أعوانها قصد بث التفارقة في صفوف الشعب، وذلك بإغرائهم بالمناصب و الألقاب فأصبحوا اليد طولى التي تعتمد

¹ . 254.253 . op.cit. Abdelhamid Zouzou :

² _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، مرجع سابق، ص 103

عليها في تحقيق أطماعها، وهذا ما زاد في تدمير الأهالي ورفضهم للوجود الاستعماري و لسياسته الجائرة¹

• التواجد العسكري في الجنوب أغرق المنطقة في بحر من الدماء نتيجة الأساليب الوحشية و الحفيرة ،ومنها انتزاع الأملاك العقارية و الثروات الحيوانية للأهالي و ذلك لتجسيد سياسة "الإفقار" التي عملت الإدارة الفرنسية على تطبيقها منذ احتلالها لمدينة الجزائر عام 1830 إلا أنها طبقتها بشكل واسع و كبير خلال الخمسينات و الستينات على أساس أنها أنجح وسيلة لردع الثورات و إخضاع قادتها².

• تأثر الشيخ الصادق بن الحاج بما حل بزعماء الزعاطشة وهذا ما جعله يقرر الانتقام والثأر لهم و لسكان الواحة و تحرير مدينة بسكرة عاصمة الإقليم³.

• الشخصية القوية للصادق بن الحاج و تأثر الأهالي به و الوثوق⁴ فيه ، كما كان ابنه إبراهيم في طليعة المتحمسين و الدعاة للثورة حتى وصفه فيرو بالتعصب و العنف، فشرح نوايا المستعمر الدفينة و الحقيقية من الاحتلال و تحريضهم على الثورة ضده⁵، حيث كتب سنة 1858 قائلا : "إن الرومي يعمل ضد ديننا وضد صلاتنا ،ضد زكاتنا وحج البيت، إنه يفرض علينا إتباع دينه ،وهو ما لم يأمرنا الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - "فكثر أتباعه"⁶ و أنصاره فبدأ الشيخ الصادق بن الحاج بمراسلة شيوخ الزوايا و بالأخص الرحمانية في الأوراس و خارجه حيث بلغ عدد رسائله خمسون رسالة تحمل في طياتها الطلب لم يد العون و إعداد الجيوش و جمع الذخيرة و المؤونة⁷

¹ _المركز الوطني لوثائق الصحافة والإعلام :مرجع سابق ص 24.

² _حيث أصدر المجلس الاستشاري لمدينة الجزائر في أوت 1850 قرارا ينص على: "أن الأرض ملك للدولة، إلا إذا استشهد من يدعي الحق فيها بعقد مكتوب".

³ - عثمانى مسعود: مرجع سابق، ص 84 .

⁴ _وقد علق أجرون حول هذه المسألة بقوله : "ولعل أن هذه الحالة النفسية التي كانت سائدة بين الأهالي ،ما دفعها للاستجابة لنداء الزعماء في مقدمتهم زعماء الرحمانية ،وقد لجأ هؤلاء الأهالي إلى قيادها ،كما ذكر الرائد لويس رين عن نوع من التحالفات الشعبية التي تشكلت للوقوف في وجه القيادة ،لكي تتولى بنفسها الإعداد للتمرد «.

⁵ - أنظر الملحق رقم 04.

⁶ - صالح فركوس :أصالة وتعريب،مرجع سابق ، ص 102

⁷ _أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1830 * 1900، مرجع سابق، ص 365.

2. سير الثورة ونتائجها

أ. سير الثورة

بعد أن أمرت السلطات الفرنسية من أعوانها بالمنطقة بمضايقة الشيخ الصادق بن الحاج و رصد كل تحركاته لمنعه من الاستعداد لإعلان الثورة، شعر الشيخ بالحصار المفروض عليه لذلك شرع بإرسال رسائل سرية بواسطة أولاده، إبراهيم، الطاهر الغزالي إلى مناطق يحرض فيها الأعراش و رؤساء الزوايا الرحمانية على مقاطعة الاستعمار و الاستعداد للمقاومة، مذكرا بالملاحم البطولية لكل من أبطال الزعاطشة و سريانة و جرجرة¹.

كما قام بجمع المؤونة و السلاح و الذخيرة من داخل الزاوية و خارجها مركزا على قريتي مشونش و غوفي اللتين كانتا مستودعين للذخيرة ، كما امتد نطاق دعايته إلى منطقة الصحراء الشرقية، و إلى غاية شهر نوفمبر 1858 كانت حركة الشيخ الصادق بن الحاج تنشط في الخفاء و ذلك بواسطة الدعاة².

لكن بعد هذا التاريخ بدأت الأمور تأخذ مجرى مخالفا بعد أن بدأ ابنه إبراهيم بكتابة رسائل يدعو فيها سكان المناطق المجاورة للثورة و العصيان كما كتب هذه الرسائل باسم والده وقد حدث اتفاق بين الشيخ إبراهيم بن الصادق بن الحاج و أمين سره لخضر بن كريب،(و في بعض المراجع (لوقريب) بتكليف هذا الأخير بحمل رسالة إلى أهالي سيدي عقبة يدعوهم فيها إلى مباركة الثورة و الانضمام إليها.³

كما طلب منه قراءتها أمام الملأ في ساحة القرية و عندما وصل ابن كريب إلى القرية شرع في قراءتها كما طلب منه، فهجم عليه بعض من أنصار بن شنوف محاولين قتله، إلا أنه تمكن من الفرار إلى دار مقدم إخوان الرحمانية بسيدي عقبة⁴.

تقول بعض المصادر أن الشيخ الصادق بن الحاج حاول استمالة الأشخاص بالإدعاء على فرنسا و إظهار عجزها في القضاء على الثورة وذلك بسبب انشغالها بإخماد ثورة جرجرة بقيادة

¹ _حيث ذكر رؤساء المكاتب العربية حول قدرة الشيخ الصادق بن الحاج على تحريض على الثورة "لقد كان مستعدا، أي سي صدوق لحمل الناس على الثورة في أي وقت شاء" أنظر :صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية، مرجع سابق ، ص 67.

² _مديرية المجاهدين لولاية بسكرة : مرجع سابق ، ص 20.

³ _ FERAUD (ch):« Notes Historique »,RA, n° 30, op.cit ,p 106.

⁴ _جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق، ص 195

الحاج عمر و عدم تمكن القائد رندون (Randon) من قمعها¹.

كما وصلت في نفس الفترة وفود من المشرق إلى منطقة القبائل بعد أن ثار سكانها لتقديم المساعدة و قد رجح الدكتور أبو القاسم سعد الله أن يكون هناك توحيد للنضال هذا التوحيد الذي يمكن أن تكون وراءه الحركة السنوسية².

ونظرا للمكانة التي كان يحظى بها الشيخ الصادق بن الحاج في منطقته قام الجنرال ديسفو (Desvaux) القائد العام للقوات الفرنسية بمراسلة الشيخ الصادق بن الحاج في 13 أكتوبر 1858 طالبا منه التعاون مع السلطة الفرنسية و التخلي عن فكرة الجهاد و قد أظهر ديسفو من خلال هذه المراسلة دهاء و حيلة كبيرين لاستمالة الشيخ الصادق بن الحاج و إبعاده عن مقاومة فرنسا حيث ذكر له تعاون بعض الشخصيات التي لها وزنها في المجتمع الجزائري مع فرنسا أمثال سي إسماعيل بن عمر (طولقة) ،سي محمد بن بالقاسم (قرقور) ،سي محمد السعيد (تيماسين)³.

إلا أن الذكاء لم يكن ينقص الشيخ لذلك لم ينخدع بهذه الرسالة لأنه كان يعلم أن الأشخاص الذين ذكرهم ديسفو في رسالته هم مجرد خونة مهما كبرت مكانتهم الاجتماعية و الدينية، لذلك أعلن رفضه القاطع لطلب ديسفو كما واصل دعوته للجهاد في الأوراس و بشكل رسمي⁴.

وفي ديسمبر 1858 طلب من أنصاره مواصلة الجهاد قائلا : "إلى الذين يتوكلون على الله... حافظوا على ديننا... إن الله سينصرنا... وإن خشيته وحده كفيلة بأن تجلب لنا العالم، إن هذا لهو الحق، وما من أحده فليس بمؤمن... اعملوا وكأن ليس لكم أبناء تخافون أن تتركوهم من ورائكم، أو ثروة تضيع منكم"⁵.

وبعد المشادات العنيفة التي وقعت بين ابن كريع و بن شنوف، قام هذا الأخير في أكتوبر 1858 بمراسلة فرنسا بعد أن كشف مخططات الشيخ الصادق بن الحاج، و عن نيته في تفجير

¹ - يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، مرجع سابق، ص 105.

² - أبو القسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830*1900، مرجع سابق ص 364.

³ - Abdelhamid Zouzou : , op.cit , p252

⁴ - جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق، ص 195.

⁵ - صالح فركوس: أصالة وتعريب، مرجع سابق، ص 103.

الثورة و الاستعدادات التي يقوم بها، فتخوفت من أن تصبح كثرة الزعاطشة فرمت بكل ثقلها لمواجهتها و قمعها¹.

وبدأ الجنرال ديسفو في 31 ديسمبر 1958 بمراسلة جميع أعراش أحمر خدو، بني بوسليمان، غسيرة، أولاد داود يحذرهم من التضامن أو الالتحاق بصوف الكاذب و المخادع الشيخ الصادق بن الحاج و طلب منهم الانضمام إلى القوات الفرنسية كما فعل (بن شنوف، سي السعيد القاضي، سي علي بن عمر شيخ طولقة، سي محمد بن بلقاسمي² .

و في 12 جانفي 1858 قام الجنرال ديسفو و بمساعدة الجنرال قاستي (Gastu)³ و أولاد بن شنوف بتعبئة و تجنيد قوات كبيرة بلغ عددها 6000 مقاتل أواخر نوفمبر 1858، وقد وقع أول اشتباك بين القوتين في 16 نوفمبر، أما الثاني فوقع في 30 من نفس الشهر ،بمساعدة بن شنوف، ضد القبائل المتحالفة وكان هدف العدو من هذا الهجوم هو ربح الوقت و استنزاف قوة المقاومين.

وفي 10 جانفي انطلق الجنرال ديسفو من معسكره بشتمة⁴ ،على رأس فيلق يتكون من 2962 من رماة البنادق و 401 محارب، فرقة مدفعية وكتيبة إسعاف، أما المقاومون فبلغ عددهم 1500 رجل ،و أول تصادم وقع بين القوتين كان في منطقة تينوجلين (Tounegaline)⁵ دام الاشتباك نصف يوم أستشهد فيه عدد معتبر من المقاومين وعدد من الجرحى ،أما في صفوف العدو فقتل جنديان و جرح خمسة عشر آخر ،وهذا ما سمح للعدو بمواصلة طريقه نحو منطقة القصر، وعند وصول الجيش الفرنسي إلى منطقة سيدي مصمودي قام بتقسيم قواته إلى قسمين:⁶

¹ _ عبد الرحمن تبرماسين: مرجع سابق، ص 21 .

² _ جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق، ص 196.

³ _ وقد روى حادثة وقعت له مع رجل من أولاد عبيدي حيث سأله قاستي "Gastu" عن سبب انضمامه إلى الثورة ؟ فرد الرجل قائلا :أن الشيخ أمرنا بالجهاد ،ثم سأله :هل أساء الفرنسيون لكم ؟ فرد:لكن الشيخ دعانا للجهاد .فسألته لأختبر صموده بأنه آخر يوم له ؟ فرد .لا نموت إلا مرة واحدة.

⁴ _ FERAUD (ch):« Notes Historique »,RA,n° 30, op.cit ,p106

⁵ _ الواقعة على بعد 09 كلم من واحة سيدي مصمودي .

⁶ _ Abdelhamid Zouzou , op.cit , pp 261,262.

القسم الأول: بقيادة ديسفو Desvaux و قسمه إلى جزئين الأول جعل منه حزاما على طول خط الزاب الشرقي متمركزا في الواحات للمراقبة و ضرب الحصار على المقاومين أما الجزء الثاني: فتوجه به إلى سيدي مصمودي حيث يوجد الشيخ الصادق بن الحاج بقصر أولاد أيوب.

أما القسم الثاني: فيتكون من الصبايحية وقد سلك طريق مشونش و بانيان إلى غاية غوفي لمحاصرة أحمر خدو من الجهة الغربية ¹.

و في ليلة 13 جانفي 1859 تمركز العدو بقوته بشعبة هنقلين ² و عند الصباح بدأت المعركة حيث استعمل العدو كل أنواع الأسلحته (مدافع و رشاش) و استمر الهجوم الساحق على الثوار إلى آخر الليل و قاوم الشيخ الصادق بن الحاج و أبناؤه هذا الهجوم بكل بطولة دون كلل أو ملل ³.

و لكن أمام تمكن العدو من إحكام سيطرته و تضيقه الخناق عليهم بالإضافة إلى تفوقه عليهم في مجال الأسلحة مكنهم من إخماد الثورة و فرار الشيخ الصادق بن الحاج إلى الجنوب التونسي حيث يوجد أتباع الأمير عبد القادر رفقة بعض من أتباعه و عائلته و عند وصولهم إلى خنقة سيدي ناجي أرسل لهم القائد بن ناصر أحمد أحد أعوانه و هو من عرش لحسينية، ليكون لهم دليلا إلا أن هذا الشخص بقي يراوغهم إلا أن ضلوا الطريق لمدة أسبوع تقريبا إلى أن اكتشفت زوجة سي الصادق بن الحاج الخيانة عند عودتهم إلى المكان الذي انطلقوا منه و بعد كشف الصادق بن الحاج الخديعة لم يكن الوقت في صالحه للفرار فوقع في الأسر بعد أن غدر به ابن شنوف والميهوب ⁴. و في 20 جانفي 1859 في واد العرب، و تم أسر حوالي 88 من أفراد عائلته و أتباعه الذين سيقوا إلى خنقة سيدي ناجي و منها إلى بسكرة ⁵.

¹ _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، مرجع سابق، ص 105

² _ تقع المنطقة في الجنوب الشرقي بجبل أحمر خدو و هي عبارة عن شعبتين يفصل بينهما وادي و تبعد عن قرية لقصر بـ 15 كلم.

³ _ عبد الحليم صيد: أبحاث في تاريخ الزيبان، مرجع سابق، ص 57.

⁴ _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، مرجع سابق، ص 105.

⁵ _ عبد الرحمن تبر ماسين: مرجع سابق، ص 23.

ب. نتائج الثورة

بعد أن فر الشيخ الصادق بن الحاج إلى الجنوب دخل الجنرال ديسفو فعات في الأرض فسادا ونتج عن ذلك ما يلي :

- 1- تخريب قرية أولاد أيوب و تدمير مقر زاوية تيبيرماسين في 14 جانفي 1859¹ و مصادرة أملاك الأهالي و الاستيلاء على حيواناتهم من غنم، بقر، بغال، خيل، كما نهب كل المؤن و المدخرات و قام بحملها إلى مركزه و أمر بإتلاف كل الأسلحة التي عجز عن حملها².
- 2- إقامة ديسفو لنصب تذكاري كبير نقش عليه اسمه و أسماء الوحدات التي قادها ، فبقى شاهدا يذكر الأهالي بأوضاعهم وكلهم أسي وحسرة³.
- 3- تدمير جميع القرى و القلاع في الجهتين الشرقية و الغربية لجبل أحمر خدو، فتم تدمير قرية غوفي مستودع الذخيرة تدميرا كليا و حجر سكانها و تكيلهم و تركهم عراة تحت البرد القارص إلى أن فتك الجوع و العطش ببعضهم كما تم ترحيل البقية إلى تبسة ووادي عبيدي، كما تعرضت قرية بانيان لنفس المصير⁴.
- 4-مهاجمة الأعراش التي ساندت ثورة الصادق بن الحاج و إلحاق خسائر كبيرة بها مثل: أحمر خدو، بني بوسليمان، غسيرة، أولاد عبيدي، السراحنة، أولاد زيان، كما أمر بقتل مريدي الزاوية و أعوان الصادق بن الحاج و مطاردة الفارين منهم و إلقاء القبض عليهم و تشديد الرقابة على زيارات الزاوية، كما استسلمت حوالي 18 قبيلة، وقد منح ديسفو للقياد الحق في ارتكاب ما شاء لهم حيث طلب من القايذ بوضياف بكشف المتمردين وتطبيق العقوبة عليهم : "يجب ردع جميع المتمردين بدون استثناء ويجب الاستيلاء على ممتلكاتهم وإلحاق الضرر بهم بدون شفقة وخاصة سكان منطقة غوفي، ويجب أن تستولوا كذلك على أملاك أولاد داود الذين لم يستسلموا إلا بعد القتال ... يجب أن تنفذوا هذه الأوامر لكي لا نضطر إلى

¹ _ Louis Rinn , op.cit , p 460

² _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20 ، مرجع سابق ، ص 24.

³ _ مديرية المجاهدين لولاية بسكرة : مرجع سابق ص 21

⁴ _ جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق، ص 137

معاقبة القايـد وقبيلته المتمردة ،يجب أن تظهروا لنا ما عهدنا فيكم من وفاء قبل اندلاع هذا الشغب ،لا تأخذكم شفقة بهم ولا تحاولوا التوسط لصالحهم".¹

5-إلقاء القبض على الشيخ سي الصادق بن الحاج و أفراد عائلته و 88² من أتباعه و إقتيادهم إلى قسنطينة وعرضهم أمام محكمة عسكرية في 26 أوت 1859 والتي

أصدرت في حقهم الأحكام التالية:³

* الشيخ الصادق بن الحاج و أبناؤه (إبراهيم،الطاهر، الغزالي) بالإعدام غير أن نابليون خفف عليه الحكم من الإعدام إلى المؤبد و بعد هذا الحكم نقل إلى سجن الحراش بالجزائر بقي فيه إلى أن توفي فيه يوم الاثنين 27 رجب 1277 الموافق لـ 1862⁴ م حيث حمل على ظهر بغلة من الجزائر إلى جبل أحمر خـدو أين دفن بمقبرة تبرماسين⁵ .

وهناك تضارب كبير حول مصيره فقد ذكر ابنه إبراهيم في كتابه "حكمت المغانم " الذي حققه الدكتور عبد القادر زبادية ،أنه أطلق سراحه بعد سنتين فرجع إلى الأوراس ،وقد حضي باستقبال حار⁶.

أما عبد الحميد زوزو فيقول أن : "فرنسا قامت بنفي الشيخ الصادق بن الحاج إلى جزيرة (Cayenn) بدل جزيرة (Sainte Marguerite) سانت مرغريت حتى لا يتمكن من العودة⁷ .

فيما نقل أولاده إلى سجون مختلفة :

* سي إبراهيم: نقل إلى كورسيكا و سجن بسجن كارتا(Carta)⁸.

* سي الطاهر: نقل إلى سجن معسكر ثم نقل إلى المغرب⁹.

¹ _ Abdelhamid Zouzou, op_cit , p 265

² _ FERAUD (ch):« Notes Historique», RA,n° 30, op.cit , p106.

³ _ أنظر المحق رقم 08

⁴ _ Charles Robert Ageron, op.cit ,p60.

⁵ _ جمعية أول نوفمبر : مرجع سابق،ص 198

⁶ _ محمد صالح حثروبي :مرجع سابق ،ص 27.

⁷ _ Abdelhamid Zouzou : , op.cit , p269.

⁸ _ لم يطلق سراحه إلا سنة 1867.

⁹ _ عثمانى مسعود : مرجع سابق ،ص 86.

- * سي الغزالي: نقل إلى سجن شرشال و توفي بالسجن سنة 1867 م.
- أما بقية أتباعه فقد تجاوزت مدة عقوبتهم 10 سنوات لكل منهم .
- إذا كانت القيادة الفرنسية بعد ثورة الزعاطشة أمرت بتقسيم القيادات لإضعاف عائلتي بوعكاز و بن قانة فإنها و بعد ثورة الصادق بن الحاج أمرت بتقسيم عائلتي بن ميهوب و ابن شنوف لنفس السبب و لتجنب
- خطر التمرد عليها¹.

وعلى الرغم من البطولات التي أظهرها سكان واحة الزيبان إلا أن الاستعمار الفرنسي تمكن من إخماد كل الثورات وحتى القضاء عليها بطريقة همجية بلغت حد الوحشية، ولعل ما ساعد العدو الفرنسي في تحقيق أهدافه، هو مساعدة مجموعة من الخونة والعملاء له، إضافة إلى الوسائل الحربية التي اعتمد عليها العدو لإخماد هذه الثورات مقابل ما كان يملكه المقاومون، ويضاف إلى ذلك عدم التنسيق وتوحيد الجهود، كل هذه كانت أسباب كافية للقضاء على هذا الرفض المسلح للوجود الفرنسي، إلا أن إصرار سكان المنطقة على مواصلة الكفاح واستئثار موت الشرف على الاستسلام، لأنه لا يعيب الشعوب أن تهزم ولكن يعيبها ألا تقاوم، ولهذا فإن روح الثورة بقيت مشتعلة، عبر واحات المنطقة ليحمل لواءها هذه المرة الشيخ أمحمد يحيى .

¹ _ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830*1900، مرجع سابق، ص 364.

الفصل الثالث

ثورة واحة العامري 1876

المبحث الأول : أصل البـ وازيد

المبحث الثاني : أسباب اندلاع ثورة واحة العامري

المبحث الثالث : مجريات الثـورة

المبحث الرابع : العقوبات التي فرضت على الواحة

المبحث الأول : أصل البوازيد

يعود أصل البوازيد. إلى الولي الصالح سيدي بوزيد بن علي بن مهدي بن صفوان بن مروان بن يسار بن موسى بن سليمان بن يحيى بن موسى بن عيسى بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسين المثنى بن الحسين السبط ابن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرسول _ صلى الله عليه وسلم ¹.

ولد سيدي بوزيد بمكة المكرمة في بداية القرن الخامس (420هـ، 1050م)، ومن صفاته أنه كان أشقر اللون، مقرون الحاجب، كثيف اللحية، له علامة في طرف جبهته، وهو جرح أصابه به جواد من الخيل وهو في سن الثامنة عشر، عاش من العمر ما قارب 163 سنة، تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه، حيث حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز من العمر 10 سنوات، درس الفقه والحديث وعلوم الشريعة، تتلمذ على يد شيوخ أجلاء منهم أبو حامد الغزالي، سيدي ابن العربي، وغيرهم من العلماء. ²

وعندما بلغ من العمر أربعين سنة، عزم على الرحيل لزيارة ضريح إدريس الأكبر، في المغرب الأقصى، فاستغرقت رحلته نحو 40 سنة، وقد شهد له سكان المناطق التي حل بها بالعلم وسعة الرزق وحسن الأخلاق. ³

و بمدينة فاس، طاب له العيش فأستقر بها، إلى أن أصبح حاكما لها، ولكن ومع مرور الوقت نشب نزاع بينه وبين أبناء عمه الأدارسة، فتنازل لهم عن الحكم ورحل هو وأفراد عائلته إلى جبل راشد بالمغرب، وفي سنة (510هـ، 1150م)، زار الجزائر، أين استقر في منطقة "بجبل العمور"، حملت اسمه "قرية سيدي بوزيد"، كما يوجد بها ضريحه ⁴. توفي في (850هـ، 1210م)، خلف أربعة أولاد هم : عبد الله، محمد، أحمد، علي ⁵.

1_ صالح يعقوب : « البوازيد عبر التاريخ شجرة سيدي بوزيد »، الخلدونية، وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، ع ت، 2000، ص 17.

2_ مصطفى بن عمر : « شرفاء جبل العمور سيدي بوزيد الإدريسي »، دنيا الإسلام، فيفري 1989، ص 9.

3_ الخيزري عبد القادر بن الحاج : شجرة الأشراف الفاطمي من سيدي بوزيد بن علي، 1947.

4_ وهي تقع على بعد 35 كلم شرقي أفلوا، متصلة بجبال سنانبله، التي هي امتداد لجبل العمور، وفي الجنوب على بعد 30 كلم من القصر، أين يوجد الحصن المسمى بالقعدة، وتكثر به الوديان والينابيع المائية في منطقة سيدي بوزيد، أهمها : وادي الطويل وادي مزي، وادي جدي.

5_ عبد الله بن محمد الشارق : سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929، ص 72.

▪ عبد الله وذريته:

أولاد عبد الله هم جزء كبير من سكان القرية حيث ضريح سيدي بوزيد، والجزء الآخر توزعوا بين الهامل، و تاقين (قرب معسكر) ، أولاد سيدي العيد في فرندة، أولاد عبد المالك في ثنية الحد.

▪ محمد وذريته:

أولاد سيدي محمد غادروا كلهم إلى المغرب ولم يبق أحد من ذريته في الجزائر، وهم الآن موزعون بين تازا والدار البيضاء ،حيث قرية بالقرب من هذه المدينة تحمل اسم سيدي بوزيد¹.

▪ أحمد وذريته:

أولاد أحمد وهم موجودون كلهم في أقصى الشرق الجزائري حتى تونس، حيث تحمل ولاية تونسية اسم سيدي بوزيد. نبغ من أولاده وأسلافه كثير من العلماء والأولياء منهم:

- سيدي محمد بالقاسم الهاملي، وضريحه في بلدية الهامل بالقرب من بوسعادة.
- سيدي الحسين بن أحمد البوزيدي مدرس بالأزهر في مصر.
- سيدي محمد بوزيدي المستغانمي شيخ الطريقة الشاذلية الشهيرة.
- سيدي إبراهيم بن أحمد شيخ طريقة ومؤسس الزاوية القادرية في تونس .
- سيدي محمد البوزيدي المغربي شيخ الطريقة الدرقاوية.
- العالم الصوفي الكبير بن عجيبة المغربي، صاحب المؤلفات العديدة، من ضمنها: أيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية لابن عط الله الإسكندري
- العلامة سيدي محمد الشاذلي القسنطيني وكان من الأصدقاء المقربين للأمير عبد القادر.

▪ علي وذريته:

وهم أولاد جلول، أولاد إدريس، أولاد أيوب، أولاد جعفر لجبابرة (المدعوون البوازيد الشراقة) وأولاد عيسى بالقبائل وهم ينتمون إلى الزاوية الرحمانية أولاد أسعود

¹ _ الخيزري عبد القادر بن الحاج :مرجع سابق .

في البيض، أولاد صافي في سيدي بلعباس، بني سعد في تلمسان، أولاد بوزيد بن عبد الله في غيليزان.¹

وقد أشتهر عرش البوازيد عموما بالشجاعة والكرم وسعة العلم لقول الشاعر:

وحاصل الذكر أن البوازيد كلهم

فإما شجاع بالسلاح مغمـد

وإما كريم الضيف للقرى

وإما ملك سائس يتهدد

وإما همام العصر سلطان قائد

وإما تقي بالتقى يتعبد

وإما ولي كامل يرشد الورى

إما عليم للعلوم مجدد

وإما فتى حمل القرآن ربنا

وإما إمام خطيب مصهد²

و بوازيد منطقة الزاب ينتمون إلى الابن الرابع لسيدي بوزيد على بن سيدي بوزيد، و بسبب الاضطهاد الذي تعرض له هؤلاء البوازيد في الغرب من قبل أمراء تلمسان، انسحبوا تباعا إلى جبل عمور (عين الريش)، ثم إلى أولاد جلال وأخيرا استقروا في واحة العامري³.

وبعد استقرارهم في الواحة ، شرع البوازيد في تشييد المنازل وبعض المرافق المهمة كالمسجد القديم على سبيل المثال .كما أنهم كانوا يمتلكون ثروة هائلة، والمتمثلة في قطعان الماشية والتي كانت سببا في انتقالهم إلى التل في مواسم الحر⁴، كما كانوا

¹ _أنظر الملحق رقم 35:

² _عبد القادر بوعرفة :«جهاد شعبي أم مقاومة قراءة في المرجعيات الفكرية لحركة الجهاد في الخطاب الصوفي » ، الملحق الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية ، وزارة المجاهدين ، 2007، ص 113.

³ _Hubert Cataldo : **Biskra Et Les Ziban** , collection français d Afrique ,France ,1988, p41.

⁴ - صالح صالحي : ثورة البوازيد ضد فرنسا في العامري 11أفريل1876، حصة تليفزيونية،إخراج عبد الحميد هويلي

يقصدون سوق السبت الموجودة في طولقة لفرز التمور ، وتنتقلاتهم غالبا ما كانت تتم في مجموعات¹.

أما عن تاريخهم في المنطقة قبل الاحتلال الفرنسي ، فقد كانت منطقة لغروس في العهد التركي تحت قيادة البوزيدي (شيخ الغروس)، وذلك بعد أن منحه صالح باي الزميرلي البرنس الأزرق ، وهذا دليل على تعيينه في منصب شيخ العرب بالزاب الشرقي، فقد كان هذا البرنس الأزرق اللون دليل على مرتبة المشيخة، وكان هذا الشيخ تابع لأوامر القايد التركي الذي يلبس البرنس الأحمر . كما حرص البوازيد على تقديم لشيخ العرب 300 فارس تساعده في عملية استخلاص الضرائب من سكان الزاب². وفي أواخر القرن 17 وبداية القرن 18 قادت أم هاني التركية³، حركتها في منطقة الزاب ، فكان من أهم نتائجها انقسام قبائل الجنوب إلى قسمين حيث ضم⁴: القسم الأول: أهل بن علي، الشرفة، غمرة الذين إمتنعوا عن تقديم الطاعة لشيخ العرب . إلا بقوة السلاح.

القسم الثاني : البوازيد ، أولاد زكري الذين قدموا لشيخ العرب الطاعة العمياء⁵. وفي هذه المرحلة لم يختلف الوضع كثيرا حيث ظل البوازيد أوفياء لشيخ العرب وحادثة مقتل فرحات بن السعيد على يد البوازيد 1842 اكبر دليل على ذلك ، وبقي هذا الولاء إلى غاية الاحتلال الفرنسي للزيان 1844.

❁ لمحة عامة عن واحة العامري

تقع واحة العامري في الجنوب الغربي لمدينة بسكرة، على بعد 50 كلم تقريبا على مجرى مائي ينحدر من جبال أفسوم ويصب في وادي جدي ، و قد قامت هذه القرية على

¹ - تتقلهم في جماعات بسبب عدم قدرتهم على التنقل بشكل فردي ، وهذا راجع إلى انعدام الأمن في الطريق. شهادة بوزيدي

إسماعيل: (حفيد بوزيدي عبد الله ، أحد مجاهدي ثورة العامري)

² - Abdelhamid Zerdoum : **Les Turcs a Biskra 1660- 1844**, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra ,1998, p62.

³ - هي أم هاني بنت رجب باي قسنطينة ،ضرة جراحة بنت الشيخ الحداد والدة فرحات بن السعيد .

⁴ - فريدة قاسي : مرجع سابق ،ص 197.

⁵ - محمد أوجرتي :مرجع سابق ،ص87.

أنقاض قرية قديمة تدعى بيقو تقع على بعد 500 م شرق القرية الحالية، و قد زالت آثار هذه القرية و لم يبق من أثارها إلا القليل¹.

أما القرية الحديثة (العامري) فهي قرية بسيطة البناء مبنية من الأخشاب و الجريد، يتجاوز عدد دورها 300 دار يحيط بها سور حصين، مزود بمنافذ و أبراج لمراقبة محيطها، و للدفاع عنها ، يوجد بالقرية مدخلان (شرقي وغربي) و هما عبارة عن بابين يوصدان بعد صلاة العشاء ،و يفتحان مع طلوع الشمس، كما يوجد بها قصر العامري المكون من منازل متجاوزة².

و قد كانت حياتها الاقتصادية جد مزدهرة، و ذلك بسبب وجود الكثير من المتاجر و دور الحرفيين (صناع، حدادين... الخ). والمنطقة مشتهرة بصناعة الزرابي و البرانس، و صناعة السلاح كالحراب و الخناجر و كذلك صناعة البارود، كما كانت تقام بها سوق أسبوعية كل يوم جمعة ، و أهالي المنطقة يعتمدون في معيشتهم على غرس النخيل، و زراعة الحبوب و الخضر، و على رعي المواشي و الإبل و تربية الخيول خاصة عند البوازيذ الرحل المنتشرين في ضواحي القرية.³

أما فيما يخص الجانب الثقافي للواحة، فهو لا يقل أهمية عن الجانب الاقتصادي، فقرية العامري كانت تزخر بدور العلم خاصة المساجد⁴ و قد لعبت دورا فعالا في الحياة الثقافية بالمنطقة، فأصبحت مقصدا لكثير من العلماء في بلاد الجريد ونفطه ، كما اشتهر بها عدد من الأطباء العارفين بفن الطب⁵.

¹ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، مرجع سابق، ص 266.

² أنظر الملحق رقم: 17.

³ أرشيف مدينة بسكرة .

⁴ هذه المساجد: (مسجد عبد الله بن أحمد جامع الجمعة، مسجد بن شعبان، مسجد بن مزغيش، مسجد سيدي إبراهيم بن عبد المؤمن)، ومن أشهر علمائها سي مصطفى الكردي، سي محمد بن عيسى، سي أحمد بن النابلي، سي السعيد بن لحميني، الحاج مبارك محمد بن دعاس

⁵ منهم ، البوزيدي بن مزغيش: في طب الأسنان ومحمد بن السهلي وعلي أجريوه: في معالجة الكسور والتجبير .

❖ نبذة عن حياة الشيخ أحمد يحيى

هو الشيخ أحمد يحيى بن محمد بن الصغير بن عبد الله ، ولد سنة 1841 ، هو زعيم أولاد إدريس ، و هو فرع من عرش البوزيد ، لا يعرف شيء عن حياته قبل أن يتزعم الثورة ، سوى أنه كان من عائلة ميسورة الحال، و لديه القدر الكافي من العلم.¹

وبسبب ذكائه أصبح أمين وصاحب سر القائد، كما شغل منصب كاتب (خوجة) القايد بولخراس بن قانة² و لعدة سنوات وهذا ما جعله يتزعم عرش أولاد إدريس، و قد تزعم الثورة و هو في سن الخامسة والثلاثين³ .

كما أنه عرف بالبطولة و حسن الخلق و الذكاء، و قد ساعده منصبه كثيرا على تقصي الأمور عن كثب و إدراك النوايا الحقيقية للعدو الفرنسي، فعارضها و تصدى لها، فطلب منه بولخراس الاستقالة من منصبه لشيخ أولاد إدريس، بتهمة كتابة شكوي باسم الأهالي وإرسالها إلى قائد المنطقة⁴ ، ورغم تأكيد خبراء الخطوط على براءة أحمد يحيى ، إلا أن بن قانة أصر على عزله من هذا المنصب ، وهذا ما زاد فيه رغبة في الانتقام والتحالف مع علي باي لأجل ذلك، كما أنه ينحدر من أسرة عريقة نبغ منها أخوه مسعود الذي كان قاضيا ببسكرة⁵ .

¹ _ إبراهيم جغابة :أحد مجاهدي ثورة العامري ،شريط مسجل ،بمناسبة الذكرى المئوية لثورة العامري 1976

² _ أنظر الملحق رقم :20.

³ _ <http://www.m-moudjahidine.dz/histoire/Biographie/b123.htm> le 08/06/2006.

⁴ _ Hubert Cataldo , **op.cit** , p 41

⁵ _ Charles Robert Ageron , **op.cit** ,p58

المبحث الثاني : أسباب اندلاع ثورة واحة العامري

لا تختلف أسباب مقاومة سكان واحة العامري عن بقية أسباب المقاومات الأخرى، و ذلك بسبب الترابط و التقارب فيما بينها، و هذا يعود إلى تمحورها حول هدف واحد هو رفض التواجد الفرنسي و عدم الرضوخ لسياسته الجائرة المطبقة ضد كل القبائل. ومن الأسباب المهمة لاندلاع هذه الثورة نذكر :

1- يعتبر السبب الديني من بين أهم الأسباب لاندلاع الثورة¹، حيث أن سكان الصحراء كانوا ينظرون للفرنسيين على أنهم كفار و من الواجب محاربتهم و هذا ما ولد كرها شديدا في أنفسهم حيث أنهم لم يكونوا يفوتون فرصة تسمح لهم بمهاجمة القوات العسكرية الفرنسية، هذا الكره الذي كان نتيجة ما عانوه من سياسة المطاردة و التشرذم المفروضة عليهم خاصة أثناء حركة بوشوشة².

2- سعي أحمد بن عياش³ - الداعية الديني للثورة - في مارس 1876 إلى تحريض الأهالي للجهاد ضد الغزاة الفرنسيين و طردهم، حيث ذكرت صحيفة المبعثر (Mobacher) عن تزعم ابن عياش لحركة التمرد والعصيان بقولها : " أنه كثيرا ما يتضح بعد التحقيق أن إدعاءات ابن عياش كاذبة وهي بتالي من إحياء أمحمد يحيى ... وابن عياش تمكن من أن يؤلب الناس على الإدارة الأهلية المتمثلة في الأعوان⁴

كما بعث الحاكم العام شانزي (Chanzy)⁵ إلى الجنرال كارتيري (Carteret) برسالة في 01 جانفي 1876 أبلغه فيها : " إن الثورة التي حدثت بعدما

¹ - حيث لا ندعي بالقول أن العامل الديني كان هو السبب المباشر للمقاومة غير أنه كان بالمقابل عاملا أساسيا ومحركا قويا .

² - يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19-20، مرجع سابق ص 226.

³ - الشيخ بن عياش مرابط عرش البوازيد و هو داعية الشيخ يحيى أمحمد كما دأبت الإدارة الفرنسية على نعتة بالدرويش وهي صفة اعتاد المستعمر على إطلاقها على المقاومين، بل كان يصفهم على أنهم عديمو الفهم وادعت على أنه تأتيه لحظات للهوسة . Hubert Cataldo, op.cit p42.

⁴ - مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري »، مرجع سابق، ص 22

⁵ - Eugène Alfred Nouart و لد في مارس 1823 بـ Antoine ، كما شغل منصب ضابط ، و في 28 جويلية 1848 تقلد رتبة ملازم ، ثم كولونيل في 6 ماي 1864 ، عين حاكم قسمة بلعباس في 20 أكتوبر 1870، وفي 11 أفريل 1873 عين كحاكم عام للجزائر ، توفي 1882. أنظر: Jeanne et André Brochier : op.cit , p 94.

عملت فرنسا على إحلال السلام في المنطقة ،ليس مردها إلى المرباط ابن عياش فحسب...ولكن هي نتيجة الصراعات والدسائس المتواجدة بين الأطراف المسيطرة في المنطقة¹.

كما اقترح قائد الدائرة على بن قانة □ بأن لا يعطي لهذا الدرويش أهمية مبالغ فيها ، لأن عملية عزله ستكون بشكل تدريجي، وذلك بالسماح إلى عشابة البوازيد بالتوجه نحو الشمال ،وإذا قام هذا الدرويش وهو مبتغانا بالسفر معهم فسوف تنخفض وتضيع هيئته يوما بعد يوم ،وسيصبح من السهل إلقاء القبض عيه عند مروره بباتنة إلى قسنطينة ،أما إذا قبل التعاون معنا فسنعيده كما كان من قبل مجرد معتوه □².

3- بعد تمكن القوات الفرنسية من القضاء على حركة بوشوشة ،حيث ظل هذا الأخير مسيطرا على الجنوب منذ 1872 إلى غاية إلقاء القبض عليه ،و إعدامه يوم 31 مارس 1874³،في جويلية 1874 قام الحاكم العام بإعادة تنظيم إدارة المناطق الصحراوية ، وذلك بإسناد القيادة إلى ابن إدريس ، في محاولة منه لخلق التوازن بين الطرفين المتصارعين (بن قانة وعلي باي) ، و هي نفس السياسة التي اتبعتها في المقاومات السابقة مثل : ثورة المقراني و الحداد 1871⁴.

كما أمر بمنح شيء من حرية التصرف لزعماء الأهالي ،وهذا لتجنب التدخل المباشر في شؤون المنطقة ، و اقتصر تدخل الضباط في حالة عجز رؤساء الأهالي عن حل الصراع ، إلا أن هذه السياسة لم تتجح لأن المكلفين بتطبيقها (من ضباط المكاتب العربية) كانوا يعملون على تجسيد سياسة الدس و الإيقاع بين العائلات خاصة

¹ - Charles Robert Ageron , op.cit, p57 .

² - Hubert Cataldo , op.cit p42 .

³ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860 1900، ج1 القسم 2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 2000، ص 302

⁴ - حيث تمت مصادرة أوقاف الزاوية الرحمانية عقب ثورة 1871 ،كما فعلت مع أملاك الزاوية القادرية إثر رحيل الأمير عبد القادر في الزيبان ،أنظر : محمد البشير المغيلي : « التكوين الاقتصادي لنظام الوقف » ،المصادر ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر ، ع 6، 2002، ص 167.

بن قانة وأولاد بوعكاز . هذه الخصومات انعكست سلبا على أولاد بوزيد ، فأعلنوا الثورة ضد فرنسا بعد أن قاموا ضد الأمير عبد القادر و حلفائه ¹.

وقد ذكر يحيى بوعزيز في كتابه الجزائر في القرنين 19 و 20 عن كتاب نشره أحد أفراد عائلة بن قانة في الصحافة الفرنسية² حول اتهام علي باي زعيم بوعكاز في التسبب في إثارة بعض المشاكل، التي أدت إلى نشوب هذه الثورة و السبب في توجيه هذا الاتهام هو الإساءة إلى سمعة بوعكاز وإظهار عجزهم في الحكم، وقد سمحت هذه الإدعاءات والشكوك التي حاولت الصحافة الأوربية (Liberté) حبكها في محاولة لإظهار الدوافع الحقيقية لثورة البوازيد ،إلا أن هذه المحاولات وحسب رأي أجرون لم تخرج عن نطاق الوصف الخيالي واللامعقول، لينتهي مصير هذه المحاولات في المحاكم ،كما حدث لجريدة (Zéramma) ³.

ورغم كل ذلك فإن هناك بعض الجرائد التي استطاعت أن تعطي نظرة حقيقية لما يحدث، وذلك ما ذهبت إليه جريدة (Des Déats) التي نشرت مقال لـ Ismaël urbain الذي ذكر فيه " أن فكرة التعصب هي فكرة مستبعدة ،حيث اعتبره مبررا، لكنه لا يمكن له أن يرتقي إلى درجة السببية ،كما اعتبر أن التخطيط لثورة من طرف شخص واحد هو أمر مثير للشبهة ،وأعتبر أن التنافس القائم بين العائلات من أهم أسباب التوتر ⁴.

4- أما شانزي فقد أرجع أسباب ثورة العامري وذلك في تصريح له في جوان 1876 إلى عمق الواقع اليومي لسكان الواحة ،كما أكد على أنها حركة معزولة ،نتيجة الحيرة الصامتة التي تعيشها العديد من القبائل ،والمجسدة في سذاجة الالتفاف حول المعلومات الكاذبة والإشاعات الرائجة ،ونابعة من موقف بعض الطرق الدينية .

¹ - Charles Robert Ageron , op.cit, pp 56,57.

² _ نشر الإخوة بن قانة مقال بعنوان " دفاع آل بن قانة عن أنفسهم بأنفسهم " اتهموا فيه بصراحة علي باي بثورة وذلك بعد

دفعه مبالغ ضخمة للبازيد قصد تحريضهم على الثورة ،انظر: 58, 57 pp , op.cit Charles Robert Ageron :

³ - الصادرة من سكيكة حيث فرضت عليها غرامة مالية ب 50فرنك ،نتيجة تضخيمها للموضوع وحديثها عن التموي العسكري

⁴ _ Ageromain R : la politique indigène de Bugeaud, paris, 1955, p251

كما حذر وزير الداخلية الفرنسي الجنرال بريزول (Bressoles) من نشوب المزيد من الاضطرابات وذلك بسبب سوء تقدير القوة التي تتوفر عليها هذه الأعراس ، وإلى الصرامة المتزايدة والقمع المسلط على السكان، و ذلك بقوله : "أنه لا ينبغي أن نعجب من محاولة تعلق القبائل بأمانتي انتصار ثوار الجنوب ،فهذه الأمانتي نتيجة اضطرارها لتحمل أعباء الاستحواذ على أملاكها العقارية ،فهي تخشى وصول اليوم الذي ترغب فيه على مغادرة أراضيها ... و باختصار فإن موقف العسكر، هو الدسائس والصراعات التي تحرك الصفوف إليها لم تكن لتجد مكانا لها في أعماق القلوب لو لم تكن الثورة قد سكنتها من قبل"¹.

5- عمل الإدارة الفرنسية على رفع الضرائب و قد أوكلت مهمة تحصيلها إلى القايد بولخراس ، الذي كان متسلطا على السكان، إضافة إلى معاملته السيئة لهم ، وقد عبرت جريدة (La Vige Algérienne) عن ثقل هذه الضرائب الصادرة في 23 مارس 1882 بمقال بعنوان صرخة إنذار (Cri Alarme) " لن نكون مبالغين إذا قلنا أنه لو طبق هذا الأسلوب الاستنزافي ،على بلد أوروبي ،ولو كان من أغنى البلدان ،فإن مرور سنوات قليلة يكفي لإحلال البؤس التام به"².

6- الكره و العداء الذي كان يكنه الشيخ أحمد يحيى منذ 1875 للسلطات الاستعمارية و لأعوانها، و ذلك بعد مقتل أخيه الأكبر مسعود الذي كان قاضيا في مدينة بسكرة في ظروف غامضة في منزل الوكيل بالقاسم بن خمارو قد شاع بين الناس أن القائد محمد الصغير بن قانة هو من أمر بدس السم له، كما تؤكد المراجع على أنه قتل مسموما فتألم أحمد يحيى كثيرا لمقتل أخيه و قرر أن يأخذ بثأره من هؤلاء الخونة، ومما يرجح مقتل القاضي مسعود مسموما هو قيام السلطات الفرنسية بعزل الضابط كروزي (Crouzet) و تعيين مكانه جليز (Gellez) ، الذي أصدر قرارا في 29 نوفمبر 1875 باعتقال أحمد يحيى استجابة لرغبة بولخراس و سمح للقرار أن يطبق.³

¹ _ Charles Robert Ageron : op.cit ,p59.

² _ Charles Robert Ageron : lbid,p258.

³ _ عبد الحليم صيد: أبحاث ودراسات في تاريخ الزيبان، مرجع سابق، ص 62.

كما انه تحالف مع علي باي وبدأ بالتحضير للثورة بشكل سري ، وقد أكد الجنرال كارتيري ، أن دافع الانتقام هو من بين أهم أسباب الثورة ، ولكن الحاكم العام شانزي لم يقتنع بهذا التحليل، وبرره إلى ميل الجنرالين إلى القبول برواية بن قانة والتي كان الهدف منها الإطاحة بعلي باي ، وهذا الاتهام يدخل ضمن حلقات الصراع بين العائلتين لا أكثر ولا أقل ، وما دعم شكوك الحاكم العام هو بقاء قوات علي باي في مكانها المحدد لها طوال فترة الثورة ، وهذا أكبر دليل على بطلان هذا التحالف¹.

7- الرسالة التي بعثها سكان بسكرة، و المناطق المجاورة إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر في شهر جوان 1875 ، حيث اشتكوا له ظلم و غطرسة بولخراس بن قانة، إضافة إلى تجبر الضابط الفرنسي كروزي فاتهم بولخراس بن قانة كاتبه أحمد يحيى صاحب فكرة تحرير الرسالة للأهالي، و تم إلقاء القبض عليه و ترحيله إلى مركز القيادة ببسكرة ، أين حقق معه الضابط لوفروولكن نتيجة التحقيق أسفرت عن براءته، و على الرغم من براءته إلا أن بولخراس ظل ناقما عليه و طلب منه الاستقالة ، لكن الشيخ أحمد يحيى أصر على مواصلة ممارسة مهامه و عندما دعا بولخراس أحمد يحيى إلى بسكرة رفض الامتثال لأوامره خوفا من أن يلقي مصير أخيه².

¹ _ Charles Robert Ageron : **op. cit** , p 258

² - محمد العيد مطمر: «مقاومة واحة العامري 1876»، الخدونية ، الجمعية الخلدونية للأبحاث و الدراسات التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر، عدد 03، ديسمبر 2004 ص90.

المبحث الثالث: مجريات الثورة

بعد رفض أحمد يحيى تلبية دعوة بولخراس إلى بسكرة ، وجه له هذا الأخير دعوة ثانية، بعد أن قدم له الضمانات الكافية لسلامته، فاتجه إلى بسكرة و اجتمع كل من أحمد يحيى و بولخراس و الضابط جيليز ،و تناقشوا في العديد من المسائل التي كانت سببا في إشعال نار الخلاف بين القائد بولخراس و كاتبه، و بعد هذا الاجتماع تنفس جيليز الصعداء ظنا منه أنه قضى على الخلافات ،و أن الأمور ستعود إلى نصابها من جديد ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا لم يقيم الحاكم العام الفرنسي باعتقال أحمد يحيى عندما أتى إليه في بسكرة رغم إصداره قرار اعتقاله في 29 نوفمبر 1875؟

و لكن الذي حدث هو أنه بعد عودة أحمد يحيى إلى أولاد بوزيد شرع في دعوة البوازيد إلى الوئام لأنه كانت هناك انقسامات في صفوفهم ، وقد تمكن أحمد يحيى من التوفيق بين مختلف الأطراف ،و أصبح بحكم الأمر الواقع شيخ للقبيلة ، كما وجد أحمد يحيى في أحمد بن عياش قوة دعائية لثورته²، فاستطاع هذا الأخير أن يوحد صفوف الأهالي و يجندهم و يبذل خلافتهم الهامشية ،هذه الخلافات التي زرعتها الاستعمار من أجل بث التفرقة قصد إضعافهم ،وبعد تمكن محمد يحيى من توحيد عرش البوازيد ،بدأ يحثهم على إعلان الثورة¹.

و عندما علمت السلطات الاستعمارية بأمر التحضير للثورة ،طلبت من بولخراس أن يرسل تقريرا يتضمن تفاصيل ما يحدث في واحة العامري ،من أجل الإسراع في القضاء على الثورة قبل أن يشتعل لهيبها و يصعب إخمادها، فعمل بن قانة في بادئ الأمر على سياسة التفرقة و ذلك بزرع الدسائس و الفتن في أوساط الأهالي و الإساءة إلى كل من أحمد يحيى و بن عياش ،و إظهار نوايا فرنسا في القضاء عليهم و تدميرهم و السير بهم إلى مصير مظلم³ ،كما أرسل تقريره إلى الحاكم العام جيليز ،

² _مصطفى حداد:« انتفاضة البوازيد من سكان واحة العامري و المناطق المجاورة سنة 1976»، الملتقى الوطني

للمقاومة الشعبية بالزيان، مديرية المجاهدين لولاية بسكرة ، الجزائر، ديسمبر 1998، ص 8.

¹ _ Hubert Cataldo , op.cit , p.42

³ _ [http:// www-moudjahidine.dz/histoire/dossiers/81/htm](http://www-moudjahidine.dz/histoire/dossiers/81/htm) le 08/06/2006

يقول له فيه : " أن البوازيد مخلصون للسلطة الفرنسية و أن اجتماعاتهم كانت من أجل طلب الغيث(صلاة الاستسقاء) و ليس الغرض منها الثورة " ¹ .

إلا أن الضابط جيليز لم يقتنع بتقرير بولخراس ، وذلك بسبب ما أخبره به أحمد باي قائد أولاد زكري، عن تدمير أولاد بوزيد و عزمهم على إعلان الثورة و قد أخبر جيليز كل من الجنرال كارتيري و لوفرو عن مخاوفه قبل انطلاق الحملة على تقرت . وعلى الرغم من استجابة أولاد بوزيد لطلب الجنرال كارتيري في المساعدة لاقتحام مدينة تقرت ،حيث وصلت قوات البوازيد إلى بسكرة في وقتها المحدد للمشاركة في الحملة(على الرغم من نيتهم للقيام بالتمرد).²

و في صباح 08 مارس 1876 توجهت القوات الفرنسية بقيادة كارتيري رفقة البوازيد إلى تقرت و ما إن وصلوا إلى منطقة "مراير" ³ حتى انفصلوا عنه و كان ذلك في 11 مارس 1876 و حاولوا استغلال فرصة انفرادهم بالجنرال و الهجوم عليه و على قواته في واد ريغ لكنه تفطن لنية البوازيد فاضطر للعودة أدراجه .⁴

وبعد هذه الحادثة أعلن الحاكم العسكري لتقرت أن عرش البوازيد في حالة عصيان ،ولابد على فرنسا أن تسرع في اتخاذ التدابير اللازمة لإخماد هذه الثورة ،قبل أن يمتد لهيبها إلى المناطق المجاورة لواحة العامري ،وتصعب السيطرة عليها ⁵ .

وفي 26 مارس 1876 ،وردت إلى مقر الحكومة العامة أخبار عن بداية انتفاضة قبيلة لبازيد البدوية ،وذلك بزعماء مرابط مجهول لدينا ،وقد عجز قائد المنطقة بن قانة في إحكام السيطرة على الوضع ، فالمنطقة إلى غاية هذه الفترة بقيت بعيدة عن التخطيط لأي ثورة وذلك بسبب القمع الشديد الذي تعرضت له ثورة 1871 ،إلا أن العداء القائم بين آل بن قانة وعائلة بو عكاز (علي باي) ،هو الذي دفع بعودة الاضطرابات من جديد⁶ .

¹ _ المركز الوطني لوثائق الصحافة والإعلام : مرجع سابق، ص 35.

² _ صالح صالحي : حصة تلفزيونية .

³ _ تقع هذه الواحة قرب المغير .

⁴ _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، مرجع سابق، ص203

⁵ _ مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري »، مرجع سابق، ص 222.

⁶ _ Charles Robert Ageron , op.cit , pp .56,57

و بعد هذه الحادثة تأكدت البداية الحقيقية للثورة ،خاصة بعد أن أكدها القائد بولخراص للضابط لوفرو و كان ذلك في 19 مارس، كما حمله لوفرو كامل المسؤولية، و اتهمه بالعجز عن رصد كل ما يحدث من حوله، كما أبلغ الجنرال كارتيري بالمستجدات التي حدثت في المنطقة و بالاستعدادات التي قام بها كل من الزعيمين أحمد يحيى و أحمد بن عياش، و اتصالهما بشيوخ القبائل المجاورة لهم، و قد نجح في كسب دعم قبيلة المسالمية وسيدي سليمان¹، و الشيخ بن داح شيخ قبائل الجبابرة، و الشيخ مبروك بن بريكة شيخ أولاد داود و الشيخ محمد بلحاج بن سالم و الشيخ علي بن ريش شيخ زاوية متليلي ، بهدف تحطيم نفوذ و سيطرة فرنسا وأعوانها من عائلة بن قانة².

و بهذا قرر لوفرو اللجوء إلى الحيلة و الخداع مرة ثانية، فحاول استمالة الشيخ أحمد يحيى و استدراجه إلى بسكرة، قصد القضاء عليه و التخلص منه و على انتفاضته متجاهلا و ككل مرة أن الثورة لا يقودها الأشخاص بل تقودها الأهداف و المبادئ.

فراسله يطلب منه القدوم إلى بسكرة، قصد التحاور معه ،لإيجاد حل للمشاكل العالقة بشكل سلمي، لكن أحمد يحيى تنبه للمكيدة المدبرة ضده فرد عليه بالرفض، بحجة أن البوازيد يرفضون ذهابه خوفا على حياته³.

كما أن بولخراص رفض التنقل إلى واحة العامري خوفا على حياته، لذلك قرر لوفرو التنقل بنفسه إلى الواحة في 28 مارس 1876، قصد التفاوض مع أعيان عرش البوازيد ، أثناء مروره بطولقة على رأس فرقة صغيرة ،استقبله الأهالي ببرودة و تذمر شديدين ، فطلب من الشيخ عثمان بن علي، شيخ زاوية طولقة، مرافقته إلى واحة العامري قصد التوسط بينه و بين أحمد يحيى.

وبمجرد اقتراب لوفرو من الواحة ، أحاط به مسلحون من البوازيد يتزعمهم أحمد يحيى ، فطلب لوفرو من قائد عرش البوازيد التريث ومعالجة الأمور بطرق

¹ - وكان دعم هذا الأخير بشكل معنوي ،ويتبين ذلك في الرسائل التي عثر عليها بعد نهاية الثورة بحوزة أحمد يحيى ،تحتل ختم الشيخ أولاد سليمان يحته فيها على الصمود والمقاومة .مصطفى حداد :« انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري »، مرجع سابق، ص 225.

² _ يحيى بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20 ،مرجع سابق،ص 231.

³ _تاريخ الجزائر (1830،1962):CD-ROM، مرجع سابق

سلمية ، لكن محمد بن يحيى طلب منه التراجع ، وإعطاء له فرصة ليتشاور مع أعيان الواحة قائلا : " اذهب إلى السهل مع فرسانك وسأجيبكم " ، وقد كان التهديد مستترا في كلام أحمد يحيى ، وهذا الذي لم يستحسنه لوفرو لأنه بها أصبح يرى الأدوار تعكس ¹ .

كما أنه تفتن لخطة أولاد بوزيد بمحاولة اغتياله ، حيث قاموا بمحاصرته ، وقطع سبل العودة أمامه . فلجأ إلى زاوية طولقة واحتوى بها ، و قام بإرسال الرسل إلى القائد الحاج بن قانة الذي كان في أورلال ² طالبا النجدة ، و بقي محتما في الزاوية إلى أن وصلت قوات الإغاثة ، و عاد من مهمته تحت حراسة عسكرية مشددة ليلا . وعند عودته إلى بسكرة قدم تقريرا عن مهمته إلى الحاكم العام جيليز ، حيث طلب فيه من الحكومة عزل البوازيد عن حولهم لتجنب إنتشار لهيب الثورة ³ .

وفي 30 مارس 1876 أرسل شيخ الزاوية رسالة إلى أحمد يحيى ، يطلب فيها حضوره ، لكن الرسول عاد ليخبرهم أن الوقت قد فات و أن الثورة قد اندلعت و اشتعل لهيبها ، و أنه لم يعد هناك أي مجال للتفاوض أو الحوار كما أنبأهم بأن بن عياش و رجاله قد أغاروا على المنازل و الخيام للمناطق القريبة من طولقة ، و هم الآن متمركزون في السهل الممتد بين طولقة و فرفار . و في هذه الأثناء بدأ الجنرال كارتيري بتجهيز قواته للسير إلى واحة العامري ، ومن جهة أخرى قام الزعيم أحمد يحيى بجمع السلاح و تعبئة كل الطاقات ، كما أن داعيته بن عياش قام بحمل علم أخضر (رمز الجهاد) و بدأ يحث الناس على حمل السلاح و الصمود لتخليص البلاد من الأعداء ، فاستجاب البوزيد و المناطق المجاورة للنداء ⁴ .

وفي 3 أفريل 1876 منح لوفرو للبوازيد مدة 5 أيام للعدول عن أمر الثورة ، كما كلف بن قانة بتبليغهم الرسالة التالية " سوف أحاول إخبار السكان أنهم آيلون لا محالة إلى طريق مسدود وإنهم إذا استسلموا بدون قتال سينجون من 14 قطعة مدفع مصوبة نحوهم وبنادق 2000 جندي ستدك بيوتهم " ⁵ .

¹ _ Hubert Cataldo , op.cit , p 42.

² _ التي تبعد عن بسكرة بـ 34 كلم

³ _ مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري » ، مرجع سابق، ص 225.

⁴ _ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900 ، مرجع سابق ، ص 300.

⁵ _ صالح صالحي : حصّة تلفزيونية .

وصلت إلى بسكرة يوم 2 أبريل أربع سرايا مشاة بمجموع 440 رجلا لتتوجه هذا الصباح من بسكرة ،ليصبح مجموعها 6 سرايا وكانت تحت قيادة كارتيري القادم من قسنطينة. أما قوات السيد (Dubuch) ،والمكونة من كتيبة للمشاة المقاتلين فوج لمدفعية الميدان و 3 فرق للفرسان ، وفوج للمقاتلين الجزائريين ، 44 من البغال التي تحمل الغذاء ،و122من الحيوانات التي تحمل الإمدادات والأمتعة، وفي 6 أبريل 1876 وصلت هذه القوات إلى مشارف واحة طولقة ¹ .

وبعد انقضاء المدة التي منحت للبوازيد للعدول عن موقفهم ، تحركت هذه القوات و عسكرت في مليلي وفي 9 أبريل وصلت إلى بوشقرون وفي يوم 10 من نفس الشهر عسكرت بالقرب من الولي سيدي رحال ،بالقرب من فوغالة ²

و في صباح يوم 11 أبريل 1876 اتجهت هذه القوات نحو واحة العامري الذي خرج فرسانها لرد الهجوم وعلى الساعة السابعة اندلعت المواجهة الحاسمة بين الطرفين ، بلغت قوات العدو 2200 جندي و حوالي 800 من المشاة و 200 خياله ³ و فرقة من مدفعية الجبال و عناصر من القومية بقياد بن قانة وكانت مكونة من عرب الشراقة وقد كانوا مترددين كثيرا في مهاجمة إخوانهم من البوازيد بالرغم من تشجيع رؤسائهم ولكن في الأخير قرروا الانضمام إلى صفوف البوازيد ⁴ .

وتمثلت أوامر الجنرال كارتيري فيما يلي : "خذوا مواقع ممتازة ،دون أن تبتعدوا عن العامري مع بقاء الاتصال بمدينة بسكرة ،وحاولوا تجنب كل استعراض للقوة عند مروركم بالواحات ،حيث يتحصن العدو ويدافع وراء الجدران والنخيل وراقبوا دائما ضواحي العامري ،واطلبوا مساعدة القوات القومية الذين انتم متأكدون من ولائها ،،حيث يقوم هؤلاء القومية باستيلائهم على بعض ما سيصادر ،وأعلموا البدو والرحل

¹ - Hubert Cataldo , op.cit ,p42

² - بوزيدي إسماعيل : (حفيد بوزيدي عبد الله أحد مجاهدي ثورة العامري)، بسكرة ، أجرى معه الحوار في بسكرة ، 13 أوت 2008.

³ _ Charles Robert Ageron , op.cit ,p 56

⁴ _ Hubert Cataldo , op.cit ,p42

أنهم لا يمكنهم التنقل إلى التل حتى يعاد الأمن¹. وهكذا لن يصمد هؤلاء الخارجون عن القانون طويلا، وهم متحصنون بالعامري"².

و زحفت هذه العساكر صوب واحة العامري، و تركزت بالقرب من القرية على مرتفعات تمكنهم من مراقبتها، و هي كدية ميمون شرقا و طبانة شمالا و ذراع بلمسيس غربا و دام الحصار طويلا، حيث قرر الثوار نقل المعركة بعيدا عن القرية حفاظا على الأهالي و المساكن و البساتين، و قد قدرت قوات الثوار بحوالي 1000 فارس و 2000 من المشاة³.

و نشبت معركة طاحنة بين الطرفين، فيما ذكرت بعض المصادر أن الهجوم الفرنسي استمر من الساعة 8 إلى الساعة 10 والنصف، وأكدت على أن القائد أمحمد يحيى قد استشهد في أولها⁴، كما استشهد 50 آخرين من المجاهدين⁵ و جرح الداعية بن عياش، كما تم جرح و قتل عدد كبير من القوات الفرنسية. و أمام هذه التطورات عقد مجلس حربي في الواحة، حيث أصر الزعماء على مواصلة المقاومة، على الرغم من الخسائر التي مني بها الثوار، إلا أن أغليبتهم صمموا على مواصلة الجهاد، حيث قال بن عياش "أنا مستعد لأن أموت ألف مرة على أن أسلم علم الثورة للفرنسيين"⁶.

كما أن العدو فرض عليهم حصارا فاعتصم الثوار داخل الواحة مدافعين عنها رافضين الاستسلام.

ويعود سبب الفشل إلى :

1. عدم احترام الثوار للخطة الموضوعية.
2. القصف العشوائي لفرنسا الذي أربك صفوف الثوار.

¹- وهي سياسة مدروسة والهدف منها هو ضغط البدوا والرحل على ثوار العامري، والامتناع عن تقديم لهم العون والمساعدة، لأن منعهم من التنقل للتل سيضر باقتصادهم

² _ . 43 p , op.cit , Hubert Cataldo

³ _ مصطفى حداد: «انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري»، مرجع سابق، ص 9.

⁴ _ 56p , op.cit , Charles Robert Ageron

⁵ _ أنظر الملحق رقم: 29.

⁶ توفيق قاسم: انتفاضة العامري، إذاعة الزيبان، 24 أبريل 2007.

3. مساعدة الخونة والقياد لفرنسا وتزويدها بمعلومات هامة عن الواحة، وعن أساليب القتال عند البوازيدي .

4. نجاح الحصار نظرا للموقع المفتوح للواحة ،مما أجبر الثوار على الاحتماء بقصر العامري¹، وتمكن فرنسا من السيطرة على مجريات المعركة².

أما أيام 12 و13 أفريل فقد تضمنت نشاطا للدوريات التي قادها العدو ليتمكن من رصد الخسائر التي ألحقت بالثوار بعد الهجوم الأول عليهم .

و في 14 أفريل 1876 استغل الثوار فرصة هبوب عواصف رملية شديدة وقاموا بالهجوم مرة أخرى ،وذلك من الساعة السابعة عشر والنصف إلى الساعة الثانية والعشرون³، و اقتحموا مخيما للفرنسيين بكل عزيمة و إيمان، و تمكنوا من خلال هذا الهجوم من جرح 3 ضباط فرنسيين ،إضافة إلى جرح بن قانة قائد قوم بسكرة، و قتل 27 جندي فرنسي و 4 من الخونة و جرح ثلاثة آخرين،وقد عرف هذا الهجوم بليلة "الزدمة"⁴ "الزدمة"⁴ أو "الخدعة في جنان الرومي"⁵ .

وفي 20 أفريل اشتبك الثوار مع القوات الفرنسية ، والتي فضلت التمرکز في المعسكر في انتظار وصول المساعدات ،حيث استغل الثوار حالة الارتباك التي تخللت صفوف العدو، وقاموا بالهجوم عليهم وذلك في فترة تناولهم لوجبة العشاء ،وقد سهل سي المكي بن عيسى عملية الهجوم ،الذي كان يفرق بين نغمات الأبواق⁶ وهذا بسبب خبرته حيث أنه كان مجندا في الجيش الفرنسي قبل عودته للواحة ،فما إن عزفت نغمة تناول الطعام حتى أمر الثوار بالهجوم،وقد تمكن الثوار من قتل أربع جنود،وجرح ثلاثة آخرون⁷.

¹ _ أنظر الملحق رقم :28.

² _ صالح صالح:حصنة تلفزيونية .

³ _ Hubert Cataldo , op.cit , p 42

⁴ _ توفيق قاسم : انتفاضة العامري .

⁵ _ أنظر الملحق رقم :30.

⁶ _ يعتمد الجيش الفرنسي على ثلاث نغمات للأبواق وهي (نغمة التدريب ،نغمة تناول الطعام ،نغمة إقتراب الخطر) ،فما إن عزفت نغمة وجبة العشاء حتى أمر الثوار بالهجوم : شهادة بوزيدي إسماعيل: (حفيد بوزيدي عبد الله ، أحد مجاهدي ثورة العامري) .

⁷ _ Hubert Cataldo : op.cit , p 43.

كما أن قوات العدو قامت بفرض حصار على الواحة ،في انتظار وصول المساعدات العسكرية ،وأمام هذا الحصار رأى زعماء الواحة ، ضرورة طلب الإعانة من الواحات المجاورة و بدأ بن عياش الزعيم الروحي للثورة في كتابة الرسائل إلى زعماء القبائل المجاورة طالبا منهم العون و المساعدة. ووصلت النجدة من أنحاء الزيبان ،حيث بلغت 500 متطوع، و هذا ما بعث الخوف في نفس الجنرال كارترى من حدوث ثورة عارمة فأرسل في طلب تعزيزات من بوسعادة و قسنطينة ،فأحكم الحصار على الواحة في انتظار وصول النجدة،وقد دام هذا الحصار حوالي شهر كثفت فيه فرنسا من القصف العشوائي على الواحة ¹.

و في 22 أبريل 1876 وصلت الإمدادات العسكرية للجيش الفرنسي الآتية من عدة مناطق، بما فيها القبائل الموالية للقوات الاستعمارية ،فوصلت قوات قسنطينة بقيادة العقيد ناروي (Narrie).الذي تمركز شرق الواحة ،إضافة إلى القوات القومية القادمة من بركة ².

و في 24 أبريل وصلت قوات من بوسعادة بقيادة روكبرون (Roquebrune) ³ و عسكرت كل قوة في المكان المخصص لها حسب الخطة الموضوعة، و قد أحاطت هذه القوات بالواحة من الشمال و الغرب بينما من الجنوب حاصرتها قوات القومية،التي تضمنت 320من الخيول ⁴.

وفي 27 أبريل شرعت القوات الفرنسية بقصف الواحة من جهاتها الثلاثة للواحة باستعمال 14 مدفعا ، وقد استمر القصف العشوائي لمدافع العدو إلى غاية 29 أبريل، فتضرر الثوار المحتمين في القصر كثيرا من هذا القصف ، ولم يسلم منه شيء العباد و الدور وحتى أشجار النخيل ،وبعد ثلاثة أيام من القصف المتواصل أجبر المقاومون على الاستسلام ، وأصبح مطلبهم الوحيد هو النجاة بأرواحهم ⁵.

¹ _ صالح صالحي :حصنة تلفزيونية .

² _ Hubert Cataldo op.cit ,p 42

³ _ أنظر الملحق رقم :31.

⁴ _ عمار بوحوش : مرجع سابق، ص 149.

⁵ _ Charles Robert Ageron : op.cit ,p57

المبحث الرابع : العقوبات التي فرضت على الواحة

بعد الهزيمة تكون وسائل الانتقام عند الاستعمار وأعوانه واحدة في كل زمان ومكان، وبعد كل انتفاضة يلجأ الاستعمار إلى السلب التدمير والتهجير والتشريد، واستعمال جميع الوسائل التي يمكن أن تمنع المقاومة من الظهور مرة أخرى، فباستسلام الثوار و انتهاء المعركة بدأت فرنسا بتسليط أبشع و أقسى العقوبات على الواحة و سكانها فقاموا بتخريبها بشكل كامل كما اقترفوا أبشع الجرائم من هدم المنازل¹ و حرق الأشجار و قطع النخيل، على غرار ما فعله هربيون بواحة الزعاطشة، ولكن هذه المرة بشعار جديد " الويل للمهزومين " .ومن الإجراءات التي اتخذها الاستعمار مايلي :

1- فرض غرامة مالية مضاعفة بـ 8 مرات للضريبة السنوية المعتاد دفعها وذلك بموجب القانون الصادر في الجريدة الرسمية في 12 اوت 1876 والتي فاقت 150.000 فرنك. كما أرغمتهم على تسليم 1122 بندقية، لكنهم لم يتمكنوا من تسليم سوى 452 بندقية . و أمام عجزهم عن تسليم الكمية المحددة ألزمتهم بدفع غرامة مالية قدرها 45200 فرنك، كما شملت الغرامات بعض القبائل المساندة و المتعاطفة مع الواحة و قد قدرت بـ 44200 فرنك² ، كما فرضت عليهم ضريبة حرب قدرت بـ 100 000 فرنك ،تدفع في مدة لا تتجاوز 4 سنوات .³

أما قوات القبائل المجاورة التي ساعدت الثورة فقد تقرر أن تدفع غرامة قدرها 50 100 فرنك مقابل البنادق التي لم تسلم وعددها 501 بندقية . إضافة إلى دفع دية مقدرة بـ 6000 فرنك للقوات القومية التي قتلت أثناء الاجتياح ودفع 3000 فرنك مقابل ما قتل من الخيول .⁴

2- مصادرة الأملاك العقارية، و نهب الأثاث المنزلي و المؤن و المصوغات بمختلف أنواعها، والتي قامت السلطات الفرنسية ببيعها فيما بعد لأعوانها ، كما أمرت بمصادرة نخيل واحة العامري و فوغالة ،حيث قدر التقرير العسكري المؤرخ في

¹ _ أنظر الملحق رقم :32 و33

² _ عبد الحليم صيد: أبحاث و آراء في تاريخ الزيبان ، مرجع سابق، ص ص 62 63

³ _ Charles Robert Ageron : op.cit ,p57

⁴ _ Hubert Cataldo : op.cit, p .43

21 جويلية 1876 أن قيمة الممتلكات المصادرة لعرش لبوازيد تم استخلاصها كما يلي : العامري 337 نخلة و فوغالة 1810 نخلة والبرج 144 نخلة بإضافة إلى ما يزيد عن 4000 من الإبل و 5000 من الغنم والخيول ¹، فقدرت الأملاك المستخلصة بـ 72000 نخلة. كما استولت على 700 خيمة، وقد منحت بعض هذه الممتلكات المصادرة لعرب الغرابة أعداء لبازيد بعد مساندتهم للقوات الفرنسية، في القضاء على الثورة، كما تميز لهم ².

3- استشهاد 400 مجاهد من بينهم قائد المعركة أحمد يحيى و مصادرة سلاحه و جوداه و بيعها بالمزاد العلني أمام محكمة طولقة بثمان قدر بـ 4 دواير، و قد اشتراها بولخراس شيخ قرية أوماش ³.

4- تشريد و تشتيت فروع البوازيد الأربعة ⁴ قصد إضعافهم و التخلص من خطرهم فنفي الجبابرة إلى تيارت ، وأولاد إدريس إلى ولاية المسيلة ⁵، وأولاد أيوب إلى تبسة وأولاد سعود إلى بركة ، كما نفي البعض منهم إلى سبيطة (تونس) شرقا و إلى تيهرت و التل الوهراني وفاس والدار البيضاء غربا و بمنطقة القبائل الكبرى يوجد هناك قرية البوازيد و سكانها يطلق عليهم ايبوزيدن -كما نفي البعض منهم إلى منطقة قرب جيجل ،ويطلق عليهم في الوقت الحالي بني فوغال ،كما نفيت جماعات أخرى إلى شاطودان ⁶، و من بين الأعوان الذين تولوا مهمة نقل البوازيد إلى الغرب الجزائري أوزلاقن و الباشا أغا ابن علي الشريف ،كما تم نفي قادة المعركة إلى كل من جزيرة

¹ _ مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري 1876 »، مرجع سابق، ص 225.

² _ مديرية المجاهدين لولاية بسكرة :ثورة العامري 1876 ، مرجع سابق.

³ _ مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري 1876 »، مرجع سابق، ص 10.

⁴ _ أنظر الملحق رقم :06.

⁵ _ عبد الحميد بو راو : « النزعة التاريخية التوثيقية والحس الملحمي في شعر الشعبي الجزائري في منطقة الجنوب الجزائري من خلال بعض النماذج محمد بن قيطون ،بالقاسم رغادة ،أحمد كرومي «الموروث الشعبي ،الملتقى الوطني للموروث الشعبي الوادي، الجزائر، 2006، ص 87.

⁶ - شلغوم العيد حاليا .

كيان وكورسيكا ، ولم يبقى في الواحة إلا 18 عائلة كان أربابها في سفر فلم تثبت ضدّهم أي تهمة ¹.

وقد تعرضت العائلات أثناء حملة تهجيرها إلى مجاعات قاسية و أزمات اقتصادية فتاة²، حيث صرح قائد منطقة سطيف قائلا : "منذ انتهاء حملة الحصاد أصبح المنفيون عاجزون في أغلب الأحيان عن الحصول على ما يسدون به رمقهم ، إلا ما يقدم لهم من صدقات ...ولهذا نقترح على الإدارة العسكرية ، استقدام هؤلاء إلى أقبوا (القبائل) للعمل كأجراء لدى الكولون هناك "وقد تحدث أجرون (Ageron) عن دور هؤلاء في تخطيط لغيلان شعبي جديد لرد الاعتبار بعد الإهانة التي تعرضوا لها فيقول "وفور اعتقادهم أنهم في مأمن من الرقباء يتحدثون عن ثورة سوف تحطم المسيحيين في ظرف شهرين ³ ."

كما أن أولاد سعود وأولاد زيد أحمد المنفيون إلى بركة لم يكن بإمكانهما البقاء في بركة ، وذلك بسبب فقر المراعي هناك وأيضا للقرب الكبير من العامري وفوغالة ، ولذلك تم إرسالهم إلى أولاد بوعون دائرة باتنة ⁴.

أما المنفيون لمنطقة القالة فإنهم وبعد نهاية موسم الحصاد لم يجدوا ما يسد رمقهم لذلك قام الحاكم العسكري للمنطقة بتوزيعهم في المناطق المجاورة ، أما الضابط المكلف بالشؤون الأهلية بجيجل فيقول حول هذه المسألة : "... لم يظهر حتى الآن أي تصرف مشين من قبلهم وأن أوضاعهم المادية تحسنت فأغلبهم مستعملين كخدم من طرف الأعيان المكلفين بمراقبتهم" ⁵.

أما عرش الجبابة فكانت الوجهة المسطرة له هي منطقة الغرب ، حيث أنهم لم يتمكنوا من العيش في المنطقة ، وهذا ما دفع بهم إلى الفرار للمناطق المجاورة للقطاع

¹ _ مصطفى حداد : « المقاومة الجزائرية في جبال الأوراس وتخومها الجنوبية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، انتفاضة العامري (الزاب الغربي 1876 و ثورة الأوراس الغربي 1879) » مرجع سابق ، ص 168

² - عبد الحميد بو رايو : مرجع سابق ، ص 88.

³ _ Charles Robert Ageron, op.cit , p59

⁴ - إبراهيم جغابة : مرجع سابق.

⁵ - مصطفى حداد : « المقاومة الجزائرية في جبال الأوراس » ، مرجع سابق ، ص 169.

الوهراني، ويقول في هذا الصدد الحاكم العسكري لوهران : "إن بيوت لبازيد التي نقلت إلى الغرب ،قد فر البعض منها إلى موطنها الأصلي"¹. وقد أحصى التقرير المؤرخ في 18 جوان 1882 عدد العائلات الماكثة في منطقة وهران ب 133 عائلة ،وهي موزعة كالتالي 54: عائلة في دائرة سعيدة و 53 عائلة في معسكر و 6 عائلات في تيارت².

وفي 10 جوان 1879 استفاد البازيد من قرار الحاكم العام العفو على الأشخاص الذين كانوا يعملون في الجيش خلال حدوث التمرد أو يعملون في الخدمة العامة ،و الذين يملكون مبررا بعدم وجودهم في الجزائر خلال التمرد³.

كما أنه في سنة 1879 تمت أول عملية بيع لواحة العامري ،وكانت المزايدة التي حدثت تشمل قطع منفصلة لكنها فشلت لعدم حضور أي مشتري ،وذلك تضامنا مع أصحاب الواحة الأصليين .

وفي 3 نوفمبر 1879 أقيمت ثاني عملية بيع على أساس الواحة كاملة ،وتمت عملية البيع لصالح السيد (Forciolle Treille) و السيد (Sarradin) وهما من المعمرين⁴.

وفي 7 أوت 1890 ، تم العفو عن مجموعات البوازيد المتواجدين في التل وسمح لهم بالعودة إلى الزيبان. ووزعت عليهم أراضي للحرث في منطقة الدوسن⁵.

و قد خيروا بين شراء البساتين أو الدور فاختروا الثانية ، و بقيت البساتين بيد المعمرين اللذين سخرروا الأهالي لخدمتها تحت الذل و الهوان كما أجبروا على ممارسة حياة الرعي و الخماسة في ممتلكاتهم ،كما أجبروا على ممارسة أعمال السخرة و المتمثلة في شق الطرقات و تعبيدها منها الطريق الرابط بين باتنة و بسكرة⁶ .

وفي سنة 1922، قدم البوازيد التماسا يطالبون فيه رفع الحراسة القضائية عليهم. وفي سنة 1917 قاموا بإجراء اتصالات مع السيد ترايل قصد إعادة شراء نخيلهم ، وذلك

¹ _ مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري 1876 »، مرجع سابق، ص 226.

² _ إبراهيم جغاية : مرجع سابق .

³ _ Hubert Cataldo : op.cit,p 43

⁴ _ Hubert Cataldo : op.cit,p44

⁵ _ جمعية أول نوفمبر:مرجع سابق، ص 186

⁶ _ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20،مرجع سابق، ص 234 .

بواسطة بن قانة. وقد طلب السيد ترايل قيمة 150.000 فرنك ، لكن البوازيد لم يكن بإمكانهم جمع غير 100.000 فرنك، ويبدو أن العملية فشلت لأنهم لم يتمكنوا من الحصول على قرض 50.000 فرنك الباقية. وقد تم شراء واحة فوغالة من طرف نفس السيد ثم انتقلت الملكية إلى السيد (Bchère) وذلك بعد تصفيتها.¹

5- إلقاء القبض على الزعيم الديني للمقاومة ابن عياش بعد إصابته بجروح خطيرة رفقة 91 مجاهدا آخر أين عرضوا على محكمة عسكرية فأصدرت حكم الإعدام رميا بالرصاص بحق ابن عياش،² كما أمرت بسجن 68 ثائرا وتوزيعهم على سجون مختلفة في منطقة الشرق الجزائري. وأصدرت قرار النفي في حق 91 مجاهدا إلى كورسيكا³.

6- عزل الخائنين علي باي ومحمد ابن إدريس آغا تقرت و ورقلة، الأول لعجزه عن الدفاع عن تقرت ضد بوشوشة 1872، وقد أصدر قرار تجريده من جميع وظائفه في أبريل 1877،⁴ و الثاني رغم ولائه الأعمى لها و تمكنه من القضاء على حركة بوشوشة ووقوفه في وجه الزاوية التيجانية، إلا أن العقيد نولا اتهمه بالخيانة و الكذب فتم إبعاده عندما انتصرت الزاوية التيجانية عليه و على أولاد بن قانة تخلت القوات الفرنسية عن حلفائها التقليديين وحاولت التقرب من الزاوية التيجانية تحت شعارها المعتاد " نحن مع الأقوى " ⁵، هذا بالإضافة إلى تقسيم أعراش لبازيد والزيان والهدف من هذا التقسيم هو إضعاف سلطة بن قانة وتقوية نفوذ بن شنوف.⁶

7- بتاريخ 12 أوت 1876 أصدرت السلطات الفرنسية قرارا تم نشره في الجريدة الرسمية و يتضمن هذا القرار استخلاص الأموال المحصل عليها من واحة العامري و تتم كالاتي:

¹ _ 44 p, op.cit : Hubert Cataldo

² _ محمد العيد مطمر، ، مرجع سابق، ص 65

³ _ مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري »، مرجع سابق، ص 226.

⁴ _ 57 p, op.cit : Charles Robert Ageron

⁵ _ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860* 1900 ، مرجع سابق، ص 303

⁶ _ مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري »، مرجع سابق، ص 227.

أ. توضع الأموال المحصل عليها من سكان واحة العامري ،في صندوق خاص لصالح القوات الفرنسية .

ب. كل فرد من سكان واحة العامري اغتصبت أرضه و أصبح يطالب بها ما عليه إلا شراءها من جديد و بأسعار باهضة من السلطات الفرنسية و يتم دفعها للصندوق السابق ذكره و تصرف أمواله لتعبيد الطريق الرابط بين (توقرت وورقلة) و(بسكرة وباتنة) كما تستغل هذه الأموال لقمع الثورات ضد فرنسا ¹.

كما طالب مجلس الجماعة للبوازيد من الإدارة الفرنسية في 1906 شراء ممتلكاتهم السابقة التي قامت فرنسا ببيعها² ، ولكن الحاكم العام رفض الطلب ، وعاود البوازيد المحاولة في 03أفريل 1910 بمساعدة الحاكم العسكري لتوقرت فكان رد الحاكم العام "إنه على لبازيد الرجوع إلى الذين اشتروا تلك الممتلكات والتفاهم معهم وإن الإدارة تمتنع مستقبلا عن تقديم أي رد حول هذا الطلب "³.

8- تشتيت السكان على مناطق متباعدة وذلك بغرض تفكيك الرباط القبلي والاجتماعي، وتضرر الكثير من الأسر بفعل النفي الاضطرابي وعدم قدرة أفرادها على التواصل، ومنهم من مازال حتى اليوم .

9- كما أنه صدر مرسوم في 30 جوان 1876 لإنهاء حكم الجيش وسيطرته على المناطق الساحلية من الجزائر وإلحاق هذه الناحية بالوزارات المختلفة في باريس ،نتيجة عجزه في الكثير من المرات في القضاء على الثورات الشعبية لولا مساعدة فرق القومية له رغم التطور العسكري الكبير له.، ولكن الهدف الحقيقي من هذا التحويل هو إدماج الجزائر بفرنسا وجعلها مقاطعة فرنسية، وذلك لإتاحة فرصة للجالية الأوربية بالجزائر لتفرض وجودها على الحاكم العام بالجزائر، وتوجه أمور البلاد حسب مصالحها دون الظهور على الساحة.⁴

¹ _ Dorgeval : Recueil officiel des actes de la préfecture de Constantine 1878, Gouvernement General ,AB, p68

² _ أنظر الملحق رقم :05.

³ _ مصطفى حداد: « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري » ، مرجع سابق ،ص 226.

⁴ -عمار بو حوش :«الأرض والهجرة»،الأصالة،وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، عدد16، 1973،ص 87.

لقد تصدى سكان واحة العامري للاستعمار الفرنسي ولحملاته الشرسة وذلك على الرغم من الصعوبات والمضايقات التي تعرضوا لها ،كما أنهم حملوا لواء الجهاد وثورة بدء بزعيمها الروحي بن عياش .

وحقيقة أنه لم يكتب لها النجاح وتحقيق النصر وذلك لعدة ظروف إلا أنها تمكنت وبقلة حجمها من أن ترعب صفوف العدو في الكثير من المرات وأثبتت وبشكل لا يدعو لشك أنه عندما يتعلق الأمر بدفاع عن الأرض والعرض فإن الدفاع يكون مستميت .

الفصل الرابع

العلاقة بين ثورة واحة العامري و المقاومة الشعبية
بمنطقة الزيبان في القرن التاسع عشر

المبحث الأول :السياسة الاستعمارية .

المبحث الثاني : العلاقة الدينية.

المبحث الثالث :العلاقة الاجتماعية .

المبحث الأول : السياسة الاستعمارية

إن الأحداث التاريخية للجزائر ، دلت على أن جوهر المقاومة هو رفض الاستعمار ، بمعنى عدم تجاوب غالبية الشعب الجزائري مع السياسة الاستعمارية الشرسة ، التي طبقها الاستعمار الفرنسي في كامل المناطق ، والتي كان لها نتائج وخيمة وعواقب خطيرة على جميع الأصعدة اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا . فقد كشفت هذه السياسة الاستعمارية ذات الطابع الاستيطاني ، حقيقة التواجد الفرنسي والمتمثل في الاحتفاظ بالجزائر باعتبارها مركزا تجاريا وحربيا يفتح أفقا جديدة للفرنسيين لاستعمار إفريقيا .

لقد شملت سياستها الإدارية على النموذجين مدني وعسكري ، فكانت سلسلة القوانين التي قامت بإصدارها هي إحدى فصول هذه السياسة ، ومن أجل تطبيقها قامت بالاستعانة بجهاز القضاء ، حيث وظفت المحاكم لتطبيق هذه السياسة الجائرة وبمختلف تناقضاتها للوصول إلى الهدف الاستنزافي الذي عمدت الإدارة الفرنسية إلى تطبيقه بعد سيطرتها على جهاز القضاء ، قامت هذه الأخيرة بالاعتماد على إدارة البلاد بأبناء الوطن ، لأنه كان على الإدارة الفرنسية أن تعمل جاهدة على الاحتفاظ بالجزائر حيث يقول لويس بلانكي (BLANQUI) : " إنه من المستحيل أن نتخلى عن أرض سقيناها بدمائنا ، إننا امتلأنا أكثر من 800 كلم من السواحل القريبة من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ، وغير بعيدة عن جبل طارق و مالطا في بحر يحتوي المشاكل الكبرى لأوروبا والعالم " ¹ .

1. الاستيطان

لقد كان الاستيلاء على أراضي الجزائريين وتجريدتهم من ممتلكاتهم هو لب السياسة الفرنسية ، لأن الجزائر بموقعها الاستراتيجي الهام ، وإمكاناتها الاقتصادية الهائلة ، كانت دوما مطمعا للأوروبيين ² .

ولهذا ارتبطت سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر بتشجيع الاستيطان الأوروبي ، حيث شجعت الإدارة الفرنسية الأوروبيين بالهجرة إلى الجزائر ، خاصة بعدما منحهم امتياز

¹ - أحيدة عميراوي : « السياسة الإدارية الفرنسية في الشرق الجزائري من خلال مشروع لويس بلانكي » ، المصادر ، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، 6 مارس 2002 . ص 91 .

² - Charles robert AGERON: **France coloniale ou parti colonial**, paris, 1978, PP 8,9

أن يصبحوا ملاكا لأراضي وعقارات ، دون دفع أي مبالغ مالية ، فحملت هذه الرغبة في التملك أعدادا كبيرة من المستوطنين الذين نقلوا بنفقات الحكومة إلى أرض الجزائر، ولهذا ارتكزت الحركة الاستعمارية على ، استيطان الأراضي الجزائرية وجعلها ملكا خالصا للأوروبيين مع الإتيان بأكبر عدد ممكن منهم وتوطينهم في البلاد، لجعل الجزائر فرنسية¹. وقد أكدت اللجنة الإفريقية هذه التجاوزات الفرنسية في نزع الملكية العقارية للجزائريين بقولها : " لقد جمعنا في الدومين أملاك المؤسسات الدينية، ولقد صادرنّا ممتلكات فئة من السكان كنا قد وعدنا باحترام ممتلكاتهم ، وبدأنا باستعمال سلطتنا بفرض غرامات على الأهالي، ولقد ذهبنا أحيانا إلى أن أجبرنا الملاك السابقين على دفع نفقات هدم منازلهم، بل ونفقات هدم أحد المساجد، وانتهكنا دون وجل بيوت الله والمقابر"².

كما عبر المارشال جيرار وزير الحرب الفرنسي سنة 1832 عن تأييده لهذه السياسة بقوله : " ينبغي أن نقبل بأن تهجير السكان إلى نواحي بعيدة، وحتى إبادةهم وتخريب وحرق وتدمير زراعتهم قد تكون الوسائل الوحيدة لترسيخ سيطرتنا"³. ومن أجل تحقيق فرنسا لمشروعها الاستيطاني في منطقة الزيبان ، قامت بإصدار سلسلة من القوانين العقارية التي كانت تحمل شعار: طرد السكان الأصليين والاستحواذ على أراضيهم. حيث شهدت منطقة الزيبان حركة استيطان أوروبي بطيئة في السنوات الأولى ، من الاحتلال الفرنسي لها . فكانت أول دفعة للمستوطنين الأوروبيين سنة 1848 ،الذين تم إيواءهم في حصن سان جرمان (Saint Germain) ، لتشهد المنطقة قدوم الفوج الثاني عام 1850 ، كان على رأسهم الكولونيل بيار ديفورغ (Pierre Dufourg)

¹-شارل روبير أجرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1870*1919 ،ترجمة مسعود حاج مسعود و _يكلي ،ج1 ،دار رائد للكتاب ،الجزائر ، 2007 ، ص131.

² -علي الشلقاني : ثورة الجزائر، القاهرة ، دار الهناء، 1956، ص20.

³ - محمد العربي ولد خليفة:« مؤسسة الزاوية خزان المقاومة وحصن العقيدة والتراث » ، الملتقى الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية ،وزارة المجاهدين ،2007، ص54.

والإيطالي (Défur) وزوجته كازناف كريستينا (Cazeneve Christina)، كما حملت الدفعة جماعات يهودية منهم سكوتو أبراهام (Scotto Abraham)¹. ولكن بعد 1854 ارتفع عدد المستوطنين بشكل ملفت للانتباه، وقد تعددت جنسياتهم مابين إيطاليين، كورسكيين و إسبان، قبل صدور قانون كريميو (Crémieux)² في 24 أكتوبر 1870 حيث سمح هذا الأخير بحق التجنيس الفوري ليهود الجزائر، فبدأت الأفواج اليهودية تستوطن منطقة بسكرة قادمة من مختلف مناطق الوطن، فأتي إليها من قسنطينة عائلة عطلان أبراهام (Atlan Abraham)³، ومن بوسعادة عائلة مسلاتي شمويل (Chemouil Mesellati)، ومن واد سوف عائلة إياهو خلفه (Eliahou Khalfa)، ومن الطبيعي أن يكون استيطان هذا العدد الكبير من الأوروبيين، على حساب الممتلكات العقارية للأهالي⁴. لأن فتح أبواب الهجرة الاستيطانية، بهدف خلق قاعدة ديموغرافية لمناصرة القوة العسكرية، لا يتم إلا بسيطرتها على أملاك السكان الأصليين، و من أجل تحقيق ذلك لا بد لها من تفكيك البنية الاجتماعية لهم، وفي الأخير الوصول إلى الهدف الأسمى وهو الانفصال عن البلد الأم وتكوين دولة استيطانية⁵. ولهذا حرصت الإدارة الفرنسية على نزع هذه الممتلكات العقارية للسكان من خلال مجموعة من القوانين، حيث قام الدوق دومال سنة 1844 بمنح ما قارب 156 ألف هكتار للقائد بن قانه، كتقدير له على دوره الهام في احتلال بسكرة⁶.

¹ _ Abdelhamid Zerdoum : **Histoire de Biskra 1844 *1962**, entreprise des arts graphiques et de bureautique de biskra ,1998, p 12.

² _ هو أدولف إسحاق كريميو Adolph Issac Crémieux ولد سنة 1796، سياسي فرنسي يهودي الأصل، تولى منصب وزير العدل في الحكومة المؤقتة للجمهورية الثانية 1848، إعتزل النشاط السياسي بعد إعتقاله إثر إنقلاب العسكري في 2 ديسمبر 1851، وبعد سقوط حكومة لويس نابليون الثالث، عين كوزير للعدل مرة ثانية، ويعتبر مرسوم كريميو **Dècret Crémieux** أهم قانون قام بإصداره .

³ _ أرشيف مدينة بسكرة

⁴ _ Abdelhamid Zerdoum : **Histoire de Biskra**, op .cit ,p p 16.17

⁵ _ أحميدة عميراي: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، مرجع سابق، ص 159.

⁶ _ أحمد حسين سليمان: مرجع سابق، ص 120.

وفي سنة 1844 صدر مرسوم ينص على بطلان شراء الأراضي مع تحديد شراء الأراضي بين الأوروبيين والجزائريين ،والذي دعم بقرار 31 أكتوبر 1845 و تعلق بمصادرة الأراضي المتروكة (الأراضي البور) ، بحجة الإهمال.

و مرسوم سنة 1846 الذي فرض على كل فرد سندات ملكية. ثم قانون 1850 الذي ينص على أن الأرض ملك للدولة إلا إذا استشهد من يدعي الحق فيها بعقد مكتوب¹.

أما في سنة 1851 تم في مدينة بسكرة إنشاء مجموعة من البساتين، وفتح مراكز لتدجين المزروعات المحلية على بعد نصف كلم من بسكرة ، وهدف المشروع هو القيام بمجموعة من التجارب الزراعية ، لإنتاج بعض المزروعات التي لا يمكن إنتاجها في فرنسا. كما سيرت هذه المراكز بأيدي عاملة بنظام الخماسة ، وقد اضطر هؤلاء الأفراد إلى دفع إيجار الأراضي التي كانت في السابق ملكا لهم².

وفي سنة 1863 صدر القانون الإمبراطوري (Sénatus Consulte) في عهد نابليون الثالث والذي مكن الأوروبيين من السيطرة على أجود الأراضي ، حيث نص هذا الأخير على : " أن كل العقود وجميع قرارات التقسيم ، وكل عمليات مصادرة الأراضي السابقة والتي أبرمت بين الدولة والأهالي بخصوص ملكية الأرض، تبقى سارية المفعول كما تبقى حقوق الدولة مصونة فيما يتعلق بأمالك البايك، وكذلك الأملاك العمومية المحددة في المادة 2 من قانون 16 جوان 1851 وكذا الأملاك التابعة لقطاع الدولة مثل الأخشاب والغابات".³

كما قدم إسماعيل أوربان (Ismail Urban) تفسيراً للأهداف الحقيقية لهذا القانون الإمبراطوري ،والمتمثلة في تثبيت الحدود الترابية لأراضي القبائل، وهذا التثبيت مجرد وسيلة لتحقيق الهدف الأساسي المنشود ألا وهو توزيع الأراضي بين الدواوير وإنشاء

¹ -علي تابليت :مرجع سابق، ص.33

3 - بعض هذه المنتجات منها: الفول السوداني، الحنطة الخروع، القطن، الحنطة ، البن، وقصب السكر، والخيزران ، عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية (1837*1939) ترجمة مسعود حاج مسعود ، ج1، الجزائر ، دار هومة ، 2005، ص275.

³ _ عبد الحميد زوزو :المرجع السابق ، ص 286.

الملكية الفردية ¹. ففي منطقة مشونش ، التي يقطن بها 1441 فرد تقرر جمعها في دوار واحد، ويضم المناطق التالية : مشونش، بنيان، أديسا ، كما استقادت من 3170 عنزة و805 خروف . أما الأراضي التي منحت لها، فجعلها عبارة عن جبال صخرية قاحلة عارية من الغطاء النباتي، و بساتين النخيل والأشجار المثمرة المتواجدة على جانبي الوادي الأبيض. فكانت عبارة عن أملاك خاصة بلغت مساحتها 37317 هكتار و86 آر والباقي قامت اللجنة برسمه على النحو التالي ² :

المجموع		الأراضي البلدية
9840 هكتار	المراعي	
	المقابر	
	المساجد	
2 هكتار	الدكاكين	الأراضي الحكومية
65 هكتار	الأوقاف	
	الغابات	
399 هكتار		الأراضي الزراعية الجماعية
574 هكتار		الأراضي العمومية : عيون ، ينابيع ، مجاري ، آبار مياه ، طرق

¹ - شاوش حباسي :المرجع السابق ،ص 287.

² - عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي،مرجع سابق ، ص288.

ومن خلال هذه التقسيمات الجائرة ، نكتشف أن الهدف الاستعماري من هذا القانون هو تفكيك الملكية الجماعية للأراضي الزراعية ، والقضاء على كل الأشكال التنظيمية السابقة وذلك بتحطيم العلاقات الاجتماعية¹. كما أن الهدف الثاني الذي رسمه هذا القانون هو التجزئة العرقية بين العروش ، وهذا بالإضافة إلى تسهيل المراقبة والحماية².

وعلى الرغم من النتائج الباهرة التي حققها هذا القانون ، والذي وسع وبشكل قانوني ملكية الأراضي للمستوطنين إلا أن أجرون حمل المكاتب العربية فشل هذا القانون في إيصاله إلى الملكية الفردية بقوله: " لقد أنشأ القانون الإمبراطوري تشريعا جديدا غير أنه لم يرق إلى مستوى الحق الفردي المعلن عنه والمراد الوصول إليه ، فإن الملكية الفردية لم تر النور، لأنها كانت تلك رغبة المكاتب العربية التي كانت تخشى تفتت الملكية وانقلاب ظروف الإنتاج " ³.

كما ساعد قانون وارني (Warnier) الصادر في 26 جويلية 1873 في تدهور الأمور أكثر، إذ يعتبر تدعيما للمشروع السابق ، وقد كانت فرنسا تهدف من خلال هذا القانون إلى توفير أماكن جديدة للمهجرين ، والقضاء على بعض الحالات العدائية التي نشبت بين الأهالي حول توزيع الأراضي بسبب القانون الإمبراطوري⁴. ونتج عن هذه السياسة أن صرحت عن الخطر الذي أصبح يهدد الوضعية الزراعية في مقاطعة قسنطينة ، فقد أثبتت الإحصاءات الزراعية لسنتي 1876*1877 الوضعية السيئة التي آلت إليها الأمور⁵.

¹ - مجاوي محمد: «مقاومة قبائل بني عامر في عصر الأمير عبد القادر»، المصادر، مركز الدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ، الجزائر ، ع 9، 2004، ص 113.

² - مصطفى حداد: «انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري »، مرجع سابق، ص 221.

³ - شارل روبير أجرون: مرجع سابق، ص 148.

⁴ - Charles Robert Ageron, Les Algériens Musulmans et la France, op.cit,p 78

⁵ - Guignard : Recueil officiel des actes de la préfecture de Constantine 1878 , gouvernement général ,AB, p142

وعلى الرغم من العدد الكبير والمتنوع لهذه القوانين الاستيطانية، إلا أن عملية نزع الممتلكات لم تكن بالأمر السهل ، لأن السكان أظهروا كل مشاعر الرفض والعداء وعدم الخضوع، وقد كتب علي بن الشريف إلى الحاكم ماك ماهون يشرح له هذا العداء والرفض للأهالي بقوله: " لقد تمت السيطرة على البلد، غير أنه لم يستسلم ، فمشاعر الكراهية تجاهنا لم تبلغ أبدا الحد الذي هي عليه اليوم، حتى في سنة 1845، حيث بلغت الانتفاضة درجة كبيرة من الخطورة، إن أية انتكاسة تصيبنا، في أي منطقة كانت سوف تشعل فتيل الانتفاضة العامة، إن السبب الرئيسي في نظري هو السخط الذي لا يفتأ يزداد وسط العائلات الكبيرة، وهي تشاهد نفوذها يتقلص من يوم لآخر... فقد غدت قادرة على إثارة الناس ضدنا بتحريك مشاعر الدين والاستقلال"¹.

إن اغتصاب الأراضي الزراعية من مالكيها أخذ أشكالا مختلفة وتم وفق إجراءات تعسفية قاسية ، وهو ما يثبت أن نزع الأراضي لم يكن سهلا ولا ناتجا عن استسلام فأصبحت للسياسة الاستيطانية أكثر من راية ، بل أصبحت آلة حرب مهمتها تدمير جميع أشكال المقاومة.²

والحقيقة هي أن اقتصاد سكان الزيبان كان يرتكز على الإنتاج الفلاحي، وعليه فإن الأرض كانت دوما مورد رزق وحيد ورئيسي ، ولذلك فإن مصادرة أخصب الأراضي وأجودها، بمثابة أزمة حقيقية وسبب جوهري في بؤسهم وإفلاسهم ، لأن الكثير منهم اضطر إلى بيع أملاكه والتضحية بأغنامه ، بل وحتى الاقتراض ورهن الغلال قبل حصادها ، إضافة إلى أن الأرض كانت رمزا للهوية بالنسبة لهم وعلى المسلم أن يدافع عنها³ ، لأن الحضارة الفرنسية لم تنقل للمنطقة سوى أساليب التشريد والمصادرة الجماعية لأموال العروش ، وجردتهم من أراضيهم الخصبة وعملت على طردهم إلى الجبال والصحاري، فكانت كل هذه العوامل سببا للثقاف السكان وانسياقهم نحو رفع راية الجهاد ، وذلك للمحافظة على ذاتهم أولا وأموالهم ثانيا⁴.

¹ _ شارل روبيير أجرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا، مرجع سابق، ص19.

² _ جيلالي صاري وآخرون: مرجع سابق، ص124.

³ - أميدة عميراي: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، مرجع سابق، ص159.

⁴ - يحيى بوعزيز: كفاح الجزائر من خلال وثائق، مرجع سابق، ص184.

2. حرب الإبادة

لقد كان شعار قادة الحملة العسكرية في الجزائر يقوم على فكرة التفتيل الجماعي والتدمير الكلي، حيث عبر عن هذا الشعار المارشال بيجو بقوله: " احتلال الجزائر بالسيف والمحراث، السيف على رقاب العرب، والمحراث بيد المستعمر الفرنسي ". كما فسر أوربان (Urbain) السياسة الهمجية للقوات الفرنسية بقوله: " إننا الآن، وسنظل مدة طويلة نواجه شعبا لا يتحمل هيمنتنا وهو يبحث بكل ما في وسعه عن أية وسيلة تمكنه من التخلص منا، إن جيشنا هو ملاذنا الوحيد لفرض هيمنتنا ما لم تواجهنا بعض التعقيدات على الساحة. و مهما يكن، فإن مشاعر الاستقلال والتطرف الديني تبقى متربصة بنا " ¹.

لقد كان نمط الاستعمار الفرنسي استيطاني، يعتمد على إحداث نظام حكم وإقامة سيادة على حساب الدول المستهدفة، بغرض نشر المدنية في أوساط شعوبها، لأنها كانت دوما في نظره متخلفة، ولكن هذه الحقيقة لا يمكن أن تنطبق على الجزائر كما يؤكد ذلك مصطفى الأشرف: " وجدت فرنسا وجها لوجه أمام مجتمع حسن التنظيم له حضارته الخاصة الشبيهة إلى حد ما بحضارات البحر الأبيض المتوسط، وهذا المجتمع لا يخلو من عيوب، ولكن حبه للحرية وتمسكه بالأرض، وإتحاد كلمته، وأصالة ثقافته، وصدق وطنيته، وغزارة موارده الطبيعية، ونبيل مثله العليا، كل ذلك أعطى البرهان الساطع والدليل القاطع على أصالته والحقيقة هي أن الأعمال الشنيعة والمجازر الرهيبة التي ارتكبها جنود الاحتلال في حق الأهالي، لا تمت إلى الحضارة أو المدنية وفي وسيلة نقلها بأي صلة " ².

فبعد توقيع الداي معاهدة التسليم، حولت القوات الفرنسية الجزائر إلى مجزرة حقيقية، فرسم هذا الجيش بوسائله التدميرية أبشع الصور في الهدم وإراقة الدماء، وهتك الأعراض. وأفضل مثال على ذلك ما قام به دورفيغو (Duc De Rovigo) في قرية العوفية عام 1832، حيث تم القضاء على القبيلة بأكملها، بعد أن اتهم بعض أفرادها بقتل أحد أعوان النظام الفرنسي، فواجهت القبيلة الموت على يد هذا السفاح وبجرم لم تقترفه.

¹-شارل روبير أجرون: مرجع سابق، ص 13.

²-مصطفى الأشرف: مرجع سابق، ص 22.

و مجزرة العوفية تعتبر إحدى صور الإخضاع بالعنف والإبادة ، التي ميزت الاستعمار الفرنسي بالجزائر ولم تتوقف الجرائم الفرنسية عند هذا الحد بل واصلت سلسلة مجازرها ، فكانت هذه الوسيلة الدموية هي وسيلة ترهيب وإخضاع.¹

وما يمكن أن يترجم هذه السياسة الهمجية والبربرية التي مارستها القوة العسكرية الفرنسية ضد الشعب الجزائري هو التقرير الذي نشرته اللجنة الإفريقية سنة 1833 جاء فيه : " لقد قتلنا رجالا يحملون منا ورقة أمان ، وذبحنا سكان قرى عن آخرهم لمجرد الشك فيهم ، ثم تبين لنا فيما بعد براءتهم ، لقد حكمنا رجالا يعرفون بالتقوى في البلاد ، ورجالا محترمين لأنه كان لديهم الشجاعة الكافية ليأتوا إلينا ويتعرضوا لغضبنا لا لشيء سوى السعي من أجل إخوان لهم بئسين ، لقد جاوزنا في البربرية هؤلاء البرابرة الذين جئنا لتمدينهم " ².

ومع وصول بيجو إلى السلطة زاد من القوة والبطش ، وشملت المخططات العسكرية التدمير الشامل للشعب الجزائري بدءا بتدمير الاقتصاد وصولا إلى التدمير الجسدي ، وقد لعب الخونة وأصحاب الضمائر الميته دورا بارزا في حرب الإبادة التي انتهجها الجيش الفرنسي في الجزائر ، و رسم بها أبشع صور القمع والاضطهاد ، وهذا ما أكدته أحد قادة المنطقة في مقاطعة الشرق بقوله : " ففي وقت قصير وفي مقاطعة قسنطينة أحرز حلفاؤنا المسلمون نصرا عظيما ضد أعدائنا من السكان والمناطق الجزائرية دون أن يدعموا من طرف قواتنا ، اليوم حلفاؤنا يتبعون عمليات جنرالاتنا ، وقد بعثوا إلى الجنرال قائد قسنطينة 500 أذن من الجهة اليمنى " ³.

وهذا نموذج حي وملموس للسلوك البربري الذي حمل على عاتقه رسالة نشر الحضارة في إفريقيا ، وعليه فإن التوسع الاستعماري في الجزائر كانت مراحلها تتم بروح عدوانية تسلطية وبصبغة استغلالية من أجل الوصول إلى الهدف الحقيقي ، والمتمثل في

¹ _ سليمان الهادف قريبي :مرجع سابق ، ص 23.

² _ علي الشلقاني:مرجع سابق، ص20.

³ _ أميدة عميراوي :« السياسة الإدارية الفرنسية » ، مرجع سابق ، ص 94.

إقامة دولة فرنسية على الأراضي الجزائرية . وعليه فإنه من المنطقي والمتوقع أن ترى السياسة الفرنسية القمعية الجزائريين الذين لم ترحمهم يطالبونها بحقهم في الحرية .

3- القضاء

لقد أثبتت الإدارة الفرنسية من خلال هذا الجهاز الذي كان دوماً ' رمزا للعدالة '، على أنه وسيلة من وسائل الضغط والقهر ضد الأهالي لإرغامهم على الاستسلام ، ويعتبر قرار 9 سبتمبر 1830 التاريخ الذي قرر فيه القائد العام تأسيس مجلس القضاء ، والذي يتكون من رئيس وقاضيين ووكيل مالكي ، ودعم بقرار 22 أكتوبر 1830 الذي أكد الشروع في التنفيذ الفعلي للقرار السابق .

كما تعتبر الأوامر الملكية الصادرة في 28 فيفري 1841 ، التي ألحقت بأوامر 1842 التاريخ الحقيقي لتأسيس جهاز العدالة الفرنسي في الجزائر، وذلك من وجهة نظر الإدارة الاستعمارية ، إضافة إلى جهاز العدالة المعمول به منذ العهد العثماني ، قامت فرنسا بإنشاء مؤسسات قضائية فرنسية ، متمثلة في محاكم من درجة أولى ومحاكم جماعية إضافة إلى محاكم الاستئناف¹.

وقد عملت هذه المؤسسات بعد أن منحت لها مطلق الصلاحيات في الحكم ، في جميع القضايا التي تتعلق بالجزائريين ، كما لها كل الحق في النظر في جميع أحكام الجنايات والجنح، ولكن وفق أحكام القانون الفرنسي ، كما قام مرسوم 1866 الذي ينص على أن مهمة القضاة المسلمين أصبح مقتصرًا على تنفيذ أحكام الصلح فقط ، والنظر في قضايا الأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والميراث).

والحقيقة أن السياسة الاستعمارية من الناحية القضائية كانت تهدف إلى تقليص وإلغاء المنظومة القضائية الجزائرية لصالح المنظومة القضائية الاستعمارية ' حسب رأي دو قيدون : " إن العدالة تدخل في إطار السيادة وعلى القاضي المسلم الانحناء أمام القاضي الفرنسي وعلى كل واحد أن يفهم أننا الغالبون "².

¹ _شارل روبير أجرون: مرجع سابق، ص378.

² - تاريخ الجزائر CD-ROM، مرجع سابق.

إن رفض الجزائريين التخلي عن القوانين الإسلامية وامتناعهم عن عرض قضاياهم أمام المحاكم الفرنسية ، دفع بهذه الأخيرة إلى تطبيق قسوة القضاء وروحه غير العادلة على الأفراد الجزائريين حتى وصل بها الحد إلى إصدار أحكام بالسجن ضد أشخاص بتهمة اختلاس العنب¹.

ومن جهة أخرى طالب المستوطنون بضرورة تسليحهم خوفا على مصالحهم ، مطالبين الإدارة بإيجاد قانون يزرع الرعب في نفوس الأهالي بسبب ارتفاع الجرائم والجنح التي تسببت فيها السنوات العجاف ، فأصدر الحاكم العام قرارا عام 1879 ينص على : « الأشخاص الذين لا يمكن تقديمهم للمحكمة نظرا لعدم توفر الدليل على إدانتهم، يجب معاملتهم كمجرمين خطيرين، كما تقرر اتخاذ تدابير جديدة منها التغريم الجماعي والعقوبة بالنفي إلى خارج الجزائر »².

والحقيقة أن تلاعب الاستعمار الفرنسي بجهاز العدالة لم يقتصر على القوانين فحسب بل تعداها إلى ممثلي هذا الجهاز ، حيث أصبح تعيين القضاة يخضع لشروط ، جوهرها خدمة فرنسا ومصلحتها ، هذا بالإضافة إلى المستوى التعليمي والنزاهة وأهمها الوفاء لفرنسا.

أما في منطقة الزيبان نجد أن الدوق دومال أمر بتعين قاضي دائرة بسكرة عام 1844، وهو الشيخ على بن عمر، شيخ زاوية طولقة الذي انطبقت عليه ولحد كبير هذه الشروط ، حيث صرح قائد الدائرة بمناسبة تعيينه بقوله : " أنه ينتمي لعائلة عريقة ومخلصة جدا ، وهو ذو طبع مشرف وذهنية صارمة وعادلة وذو ثروة وحسن تقدير " ³.

كما اعتمدت هذه السياسة القضائية على :

* إثبات تبعية القضاء الإسلامي الجزائري للقضاء الفرنسي .

¹ _شارل روبيير أجرون: مرجع سابق، ص431.

² -عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي،مرجع سابق، ص221.

³ -عبد الحميد زوزو : المرجع السابق، ص221.

* تحديد صلاحيات القضاء الإسلامي فيما يقع بين الجزائريين .

* الحرص على كسب العلماء والقضاة كوسيلة لإخضاعهم وامتصاص غضب الشعب واعتماد أسلوب الترغيب والترهيب معهم .

وبهذا فإن الاستعمار الفرنسي قد استعمل سلاح العدالة لقمع الجزائريين ، حيث يعتبر إلغاء القانون الإسلامي بمثابة تعدي على حقوق الجزائريين ، ووسيلة ضغط عليهم دفعتهم للثورة ، وقد قامت الإدارة الاستعمارية بإحداث نظام جديد من القضاء في المناطق النائية التي وصف سكانها بالطبع العنيد¹.

ولهذا عانت منطقة الأوراس الكثير من هذا القضاء اللاعادل لأن سكانها وجدوا أنفسهم مجبرين على تطبيق عقوبات فاقت الجرم المرتكب من الحبس والغرامة والحجز، وقد أوكلت مهمة إصدار الحكم النهائي للحاكم العام الذي يرسل أوامر مختومة منه بتهمة أن هذا الشخص يمثل خطرا على فرنسا كما فعلت مع الشيخ بوزيان قائد ثورة الزعاطشة وأحمد يحيى قائد ثورة واحة العامري.

وما زاد الطين بله الأوامر التي تصدرها في حق من يشكل خطرا على السيادة الفرنسية حيث تراوحت أحكامها ما بين السجن المؤبد أو النفي إلى مناطق بعيدة مثل كورسيكا أو كاليدونيا الجديدة أو كايان أو سانت مارغريت ، كما فعلت مع أبطال ثورة الصادق بن الحاج، و واحة العامري ، وقد تحدث بعض العائدين عن حياتهم في المنفى وعن الظروف الصعبة التي عاشوها ومعاناتهم الحقيقية في العيش في بلد أجنبي².

ويتأكد أن هذه السياسة القضائية كانت وسيلة من وسائل الإخضاع وبسط الهيمنة، خاصة إذا كان القمع الجماعي هو شعارها ، لأنها الوسيلة الأنفع والأصلح للحفاظ على أمن فرنسا واستقرارها والأهم بقائها ، كما أثبت هذا الشعار على أنه أداة ردع ورعب وقهر لا نظير لها.

¹ -عمار بوحوش : مرجع سابق، ص 62.

² عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي، مرجع سابق، ص 280.

4. الضرائب

تعتبر الضريبة من بين أهم الأساليب الاقتصادية التي اعتمدت عليها الإدارة الفرنسية بقصد الضغط على السكان وإجبارهم على الخضوع والاستسلام ، ولذلك تميزت الضرائب التي فرضت على السكان بالجور والقسوة خاصة إذا تعلق الأمر بالعائلات الفقيرة ، لأنها لم تكن تتوافق مع مقدورها المالي والمادي ، وذلك بسبب أن قيمتها كانت تقدر بضعفي ما كان يدفعه الأوروبي .

كما يعتبر تنوع الضرائب من بين الخصائص التي يتميز بها النظام الضريبي في الجزائر. حيث صرح عن ذلك رئيس المكتب السياسي للشؤون العربية لمقاطعة الشرق " لقد تمثل دورنا ، إلى حد اليوم، في التمسك الشديد بالضريبة التي وجدناها سارية أثناء احتلال البلاد ولقد احتفظنا في الشرق القسنطيني بالتنظيم الذي وضعه أحمد باي"¹.

وهذا دليل على أن النظام الضريبي الفرنسي هو وريث النظام العثماني ، الذي كان يعتمد على استخلاص الضرائب بشكل عيني والمتمثلة في كمية من الحبوب مع مراعاة لأهمية و جودة الأرض ، حيث أن الضرائب في عهد أحمد باي كانت تدفع نقدا وعينا وتقدر بقيمة صاع من الشعير وصاع من القمح².

وتتمثل الضرائب العربية في تلك الفترة ب :

الحكـور :كراء أرض العزل .

العشـور : ضريبة الحبوب .

الزكـاة : ضريبة الأنعام.

اللزـمة : تدفعها القبائل الصحراوية وألغيت من طرف راندون في 18 جوان 1858.

¹ _شارل روبير أجرون: مرجع سابق،ص465.

² _ ناصر الدين سعيدوني :«مذكرة حول إقليم قسنطينة» ،الأصالة ،عدد 70.71 ،جوان 1979، وزارة الشؤون الدينية

وكانت تتم عملية جبايتها في العهد العثماني بواسطة المحلة التي يقودها فرسان المخزن ، وقد كانت الكثير من القبائل تتهرب من دفعها ، فأصبحت سببا في إعلان الحرب ضد النظام العثماني أو الهجرة إلى المناطق النائية والجبليّة¹.

وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر أبقت الإدارة الفرنسية على النظام القديم ولكنها قامت بمجموعة من التعديلات أهمها الأوامر التي قام كلوزيل بإصدارها عام 1830 ومفادها مصادرة أراضي الأوقاف ، التي كانت منتشرة في جميع أنحاء القطر الجزائري حيث كانت هذه الأراضي تترك للفلاح مقابل تقديمه لضرائب عينية أو نقدية ، والتي تسلم للجباة كل آخر سنة ، والمقدرة ب 12 صاعا من القمح و 12 صاعا من الشعير على الجابدة أي بنسبة أقل من 50 % مما زرعه الفلاح ، أما الخسائر التي تتعرض لها المزروعات تكون على حسابه وحده لأن الإدارة الفرنسية كانت تتهمه بالإهمال².

والحقيقة هي أن الإدارة الفرنسية كانت تنتهج مبدأ اللامبالاة بمصير السكان لأن هدفها هو إحكام السيطرة عليهم حيث يقول أحد قادة الجيش الفرنسي حول الموضوع " ليس هناك أي شيء يدل دلالة قاطعة على تقدم سيطرتنا، سوى ارتفاع الضريبة "³.

وبهذا عمدت الإدارة الفرنسية إلى إثقال كاهل السكان بالضرائب المتنوعة ، فمع مرور الوقت وجد السكان أنفسهم مجبرين على دفع نوعين من الضرائب ، فبالإضافة إلى ضرائبهم التي تعودوا دفعها من قبل نقدا ، أصبحوا مجبرين على دفع الضرائب الفرنسية وقد قامت الإدارة بتقسيمها إلى قسمين⁴ :

■ الضرائب المشرعة بالقوانين الإسلامية أو ما يعرف بالضرائب العربية (الأهلية) والممثلة في : الزكاة ، العشور ، الحكور ، الزمة⁵.

¹ _ أحميدة عميراي: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، مرجع سابق، ص 48.

² _ أحميدة عميراي: «السياسة الإدارية الفرنسية»، مرجع سابق، 116.

³ _ صالح فركوس: إدارة المكاتب العربية ، مرجع سابق ، ص 143

⁴ _ Charles Robert Ageron Les Algériens Musulmans et la France, op.cit,p 707.

⁵ _ عبد الحميد زوزو :نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830*1900)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

، 1984، ص 117.

■ الضرائب الخاصة بالقانون الفرنسي، أو الضرائب الأوروبية والتي حددها مرسوم 28 أكتوبر 1847 تدفع من قبل الفرنسيين والأهالي والأجانب وأهمها :
ضريبة المساكن و كانت مقتصرة على البلديات ، ومتمثلة في قيمة الكراء لا تتعدى عشر قيمة السكن وضريبة الخدمات ، ضريبة المناجم ، ضريبة خاصة بغرفة التجارة وضريبة عائدات قنوات الري¹.

والواقع أن سبب تمسك الإدارة الفرنسية بالضرائب العربية يعود إلى الأهمية البالغة ،حيث صرح بذلك المندوب جاره في تقرير له أمام مندوبية المعمرين يوم 13 نوفمبر 1844 " إن مسألة الضرائب العربية تأخذ أهمية من الدرجة الأولى لأن هذه الضرائب تشكل أحد مصادرها الأساسية ، وهي تقدم من 17 إلى 18 مليون فرنك من أصل 54 مليون فرنك "².

وأمام هذا الوضع القاسي الذي أصبح فيه السكان مجبرين على دفع ضرائب أملاكهم ، فقد وصل معدل ما يدفعه الفرد عند نهاية الستينات من القرن التاسع عشر إلى 75.8 فرنك مقابل 1.5 فرنك يدفعه الفرد الأوروبي ، وحجم هذه الضرائب لا يفسر وحده المأساة الحقيقية لأن عملية جبايتها كانت أدهى وأمر حيث وصل الأمر ببعض الأفراد إلى بيع أسقف منازلهم بسبب عملية الحجز التي كانت فرنسا تتبعها للضغط على أفراد العائلة بالتسديد وبيع كل ما يملكون³. كما أصبح لا وجود للأهالي في نظر الإدارة الفرنسية فيما عدا دفع الضرائب.

وفيما يتعلق بالسياسة الضريبية الفرنسية فقد بدأ تطبيقها في منطقة الجنوب القسنطيني سنة 1844 ، بعد احتلال منطقة الزيبان ، حيث أجبر السكان على دفع كميات من الحبوب . وقد بلغت قيمة ضريبة العشور 4440 فرنك .

¹ _ أحمد توفيق المدني : مرجع سابق ،ص 284

² _ صالح عباد :المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر 1870.1900، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1984، ص 119

³ _ جمال قنان :« التوسع الاستعماري ظاهرة عدوانية تسلطية واستغلالية »،أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة والجدل السياسي ،جويلية ،منشورات المجاهدين ،2007.ص 64.

كانت الإدارة الفرنسية تصدر قرارات عشوائية لم تكن تخضع لدراسة حالة السكان ووضعيتهم القاسية ، بل عمدت إلى إلزام السكان بدفع مبالغ طائلة وهذا ما رفضه الأهالي لأن الضرائب المفروضة عليهم كانت تفوق إمكانياتهم المادية¹. ورغم علم السلطات الفرنسية بتدهور محصول التمور بسبب الأزمات المتعاقبة على الزيبان منها ، زحف الجراد سنة 1845 ، و موجة الجفاف التي شهدتها المنطقة سنة 1847 ، والتي دامت ما قارب 3 سنوات ، فعجز الفلاحون في المنطقة عن إنتاج قوت يومهم². كما تضاعف سعر القمح ليصل إلى 40 فرنكا والشعير إلى 25 فرنكا .

و في سنة 1848 أصاب النخيل مرض أطاح بالإنتاج إلا أن الضرائب المحصلة عام 1848 بلغت 1446350 فرنك³ ، كما تقرر في شهر مارس 1849 الزيادة في الضرائب المفروضة على بساتين النخيل والتي قدرت بـ15 إلى 45 سنتيم أي ضعفي ما كانت عليه ، لهذه الأسباب جاءت دعوة بوزيان للأهالي إلى الامتناع عن دفع الضرائب لأن فرنسا لن تتوقف عند هذا الحد ، بل إنها ستقوم برفع قيمتها إذا كان هناك استجابة⁴.

كما أن هذه السياسة ساهمت وبشكل كبير في إصابة المنطقة بمجاعات قاسية أهمها مجاعة 1867 ، والتي كانت نتيجة الجفاف الذي حل بالمنطقة ، حيث أصبح الفلاح لا يستطيع أن ينتج ما يضمن له قوت يومه ، فبمرور الوقت تضاعفت مأساة الفلاحين ، هذا ما اضطرهم إلى الهجرة لمناطق تتوفر على بعض الينابيع ، ومع حلول عام 1866 بدأت أسراب الجراد تتوافد لتزيد الطين بله ، وليتحول الوضع من سيئ إلى أسوأ⁵.

¹ _ عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي، مرجع سابق، ص 233.

² _ أندري برنيان وآخرون : مرجع سابق ، ص 337، 336.

³ _ صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية ، مرجع سابق ، ص 312

⁴ _ جلال يحيى : تاريخ المغرب الكبير للعصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، ج3، دار النهضة العربية، بيروت، ص 184

انظر أيضا ، op_cit , p 236 ، Abdelhamid Zouzou

⁵ _ يحيى بوعزيز : موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر ، دار الهدى ، 2004، ص 454.

وقد استغل لا فيجيري (La vigerie) مجاعة سنة 1867 ، والظروف الصعبة التي نتجت عنها ليشن حملة تبشيرية قوية في المنطقة أسفرت على إقامة بعض الجمعيات التبشيرية في الزيبان منها ¹ ، جمعية الآباء البيض والأخوات البيض سنة 1867 و أخوات القديس فانسون دي بول بنات الإحسان (Le Sœurs de st Vincent de Paul) سنة 1868 ².

و قد اعتبر المبشرون بمثابة جيش ثاني ، لأن هدفهم كان مقاومة الدين الإسلامي الذي كان المحرك الأقوى للجهاد ³.

ومن قسوة ما عاش سكان المنطقة أصبحوا يطلقون على هذه السنوات " بسنوات الشر " ، ولعل ما زاد في تفاقم هذه الأزمة هو حشد العرب في محتشدات لعزلهم عن الأوربيين خوفا من انتشار المرض ⁴ ، و استمر الحال على وضعه إلى غاية 1868 حيث عم بلاء الطاعون ⁵ .

ونفس الشيء يمكن ملاحظته في واحة العامري حيث عمدت الإدارة الفرنسية إلى سياسة ضريبية قاسية أوكلت مهمة استخلاصها إلى القايد بولخراس ، الذي مارس بهذه السلطة كل صور السلب والنهب والاستنزاف ، وقد عبرت جريدة (La Vige Algérienne) الصادرة في 23 مارس 1882 ، عن ثقل هذه الضرائب بمقال بعنوان صرخة إنذار بقولها : " لن نكون مبالغين إذا قلنا أنه لو طبق هذا الأسلوب الإستنزافي ، على بلد أوروبي ،ولو كان من أغنى البلدان ،فإن مرور سنوات قليلة يكفي لإحلال البؤس التام به " ⁶.

¹ _ المهدي بو عبدلي : « الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب له في المجال الروحي »،الأصالة ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ،الجزائر ، ع8، 1978،ص 312.

² _ محمد الطاهر وعلي : التعليم التبشيري في الجزائر 1830 - 1904 دراسة تحليلية تاريخية ، منشورات دحلب ، 1997، ص 42

³ _ محمد الطاهر وعلي: مرجع سابق ، ص 36.

⁴ _ Djilali Sari : op- cit .p 157.

⁵ _ مصطفى حداد : « المقاومة الجزائرية في جبال الأوراس ، ص 167.

⁶ _ Charles Robert Ageron Les Algériens Musulmans et la France, op_cit,p 258.

وعليه فإن السياسة الضريبية القاسية التي اتبعتها الإدارة الفرنسية في المنطقة كانت من الدوافع الحقيقية لإعلان الثورة ضدها وكوسيلة رفض لهذه السياسة . كما صرح بذلك لويس بلانكي بقوله : " إن فرنسا بسياساتها الضريبية في مقاطعة قسنطينة أصبحت نائمة على بركان " ¹.

و يقول فاران في هذا المعنى " يجب أن نستولي على مرا تعهم ومراعيهم وننقل كواهلهم بضرائب مرهقة حتى تتعذر عليهم الحياة ، عند ذلك إما أن يثوروا ، أو ينخرطوا في جيش فرنسا للدفاع عنها " ².

¹ _ أحيدة عميراي : « السياسة الإدارية الفرنسية » ، مرجع سابق ، ص 104.

² _ سليمان الهادف قريبي : مرجع سابق ، ص 23.

المبحث الثاني : العلاقة الدينية

1 . دور الطرق الصوفية

لقد برهنت الطرق الصوفية على مساهمتها الكبيرة والفعالة في تدعيم ومساندة ومؤازرة الانتفاضات الشعبية بالمنطقة وذلك من خلال العديد من الأشكال سواء عن طريق الدعاية لها أو الانخراط فيها . ولهذا أصبح الأوروبيون ينظرون إلى هذه الطرق على أنها جماعات سرية ذات مآرب سياسية¹.

فالزوايا بهذا المفهوم الأوروبي أصبحت تشكل خطرا على الفرنسيين لأنها لم تعد مكانا لتحفيظ القرآن أو مأوى للمحرومين ، ولكنها تحولت إلى مراكز للثورة ، لأن الزاوية وعلى مر المراحل التاريخية للمجتمع الجزائري استطاعت أن تحافظ على قيمه العربية والإسلامية ، فقد كانت هذه الأخيرة حصنا منيعا ضد الشوائب الدخيلة على عادات وتقاليد الشعب الجزائري²، وهذا ما يفسر حملها لراية الجهاد بعد دخول المستعمر، وقد تفتنت إدارة الاحتلال لخطورة هذا التنظيم ، ولمست دوره الهام في تأجيج نار المقاومة وقيادتها رغم غموض تنظيمها³.

وما يؤكد ذلك هو التقارير والدراسات التي قام بها قادة الاحتلال حول تنظيم الزوايا ونفوذها حيث يقول الباحث الفرنسي إمري : " بالرغم أن لهذه الطرق الصوفية صيغة دينية، فإنها كانت بالنسبة لدورها الاقتصادي والاجتماعي أشبه بأحزاب سياسية تستند إلى نظام غامض وتدرج محكم إنها منظمات سرية توجب العداء ضدها"⁴.

أما النقيب دونوفو (Deneveu) ، فقد وصف الأشكال التنظيمية في الزوايا بقوله : " إن الزوايا هي مراكز للتآمر وإشعال فتيل التمرد ، وهي معادية للوجود الفرنسي وتحظى بكثير من الاحترام بين الأهالي" كما وصفها أيضا قائلا : " إن تجمعات الإخوان هي هيئات

¹ - شارل روبيير أجرون: مرجع سابق، ص 549

² - عميراي أحميدة: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، مرجع سابق ، ص 32.

³ - صالح فركوس :إدارة المكاتب العربية، مرجع سابق ، ص 9

⁴ - محمد العربي ولد خليفة : مرجع سابق ، ص 55.

يكون أعضاؤها هيكلًا مترابطًا تم تشكيله من قبل ، تسكنه طاقة هائلة وتدفعه إدارة واحدة تجعله يتحرك بطريقة جماعية¹.

وهذا ما جعل الضباط الفرنسيين يعمدون إلى شلها وتحطيم بينتها ، وكان ذلك عن طريق ضربها في مواردها المالية ، حيث تمكنوا من معرفة المنابع المادية لهذه الزوايا والتي كانت في الغالب متمثلة في الزيارات والهبات والأوقاف ، فأُنصب اهتمامهم على تجريدتها من تلك الموارد وذلك بهدف جعلها مرتبطة به².

و رغم هذه الآراء إلا أن هناك من يرى أن الزوايا لم تكن تشكل خطرا كبيرا كما يرى البعض حيث تحدث ماك ماهون (Mac Mahon)³ حول هذا الموضوع في 11 جانفي 1874 بقوله : " لعننا نبالغ في تحميل الزوايا مسؤولية اندلاع الانتفاضات ونشوب الحرائق ووقوع الكوارث، إن معرفتنا بحقيقة الإخوان لا ينبغي أن تدفعنا إلى فرض الرقابة للتضييق بها على كل تصرفاتهم، نعم إن للطرق الدينية نفوذا كبيرا ولكن ليس إلى الحد الذي يدفعنا للغلو في تقدير أهميتها ووزنها⁴.

ولكن الحقيقة التي أصر المؤرخون الجزائريون على إيضاحها هي الدور الهام الذي لعبته الزوايا في قيادة المقاومة الشعبية ضد العدو الفرنسي ، على الرغم من المحاولات الفرنسية للتشكيك في هذا الدور.

إلا أن الزوايا استطاعت " أن تحقق انتشار جغرافيا وزمنيا كبيرا، وذلك بسبب انضمام فئات المجتمع وبمختلف مراتبهم وأجناسهم إليها فانضم إليها الأشراف والأعيان وحتى العامة من الناس⁵.

¹ _محمد العربي ولد خليفة: المرجع السابق، ص 60.

² _عبد القادر بوعرفة: مرجع سابق ، ص 109.

³ _هو Marie Edme Patrice Maurice ولد في 12 جوان 1808 ب Sully EN Saône ، قدم إلى الجزائر من سنة 1830 كملازم أول في مجلس القيادة ، ثم نقيب سنة 1833 ، أصيب في أكتوبر 1837 إثر احتلال قسنطينة ، بقي في مجلس القيادة إلى غاية 1840 ، وفي سنة 1848 أصبح جنرال ، وفي فترة 1852-1855 عين قائد على مقاطعة قسنطينة ، شغل منصب جنرال ولمدة 40 سنة ، تقلد منصب مارشال ، عندما بلغ من العمر 51 سنة ، وفي 24 ماي 1875 عين كرئيس للجمهورية ، وفي 1864 عين حاكم عام للجزائر ، توفي في 17 سبتمبر 1893. أنظر : Jeanne et Andre Brochier , op.cit , p 207.

⁴ _شارل روبري أجرون: مرجع سابق، ص 562.

⁵ _أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق ، ص 169.

لقد كانت الزوايا في الجزائر تشكل شبكة بسبب انتشارها عبر القطر الجزائري ، وأغلبها كان منتشرا في الأرياف ، وينتسب الكثير منها إلى القادرية و الدرقاوية و الرحمانية التي انطلقت منها الانتفاضات ضد الاحتلال بقيادة شيوخها ومريديها وتعتبر الطريقة الرحمانية من أقوى الطرق الصوفية في الجزائر، حيث أنها عملت منذ تأسيسها على تقديس الجهاد والثورة ضد الغزاة وربطه بالواجب الشرعي¹.

وقد وصف أجرون هذه الطريقة بقوله : " الرحمانية تبدو في شكل جمعية قوية بل في صورة حلف سياسي، كما نسب إليها حقا أو باطلا ووقوفها وراء جميع الحركات المتمردة على النظام، ما من انتفاضة وقعت في الجزائر إلا وكان الإخوان التابعون لمختلف الزوايا قد لعبوا فيها دورا حيويا " ². وتحدث الجنرال (Hanoteau) من جهته عن نفوذ الرحمانية حيث قال : " من غير المسموح به أن نخطئ في تحديد طبيعة التقدم الذي عرفه نفوذ الرحمانية، حيث يعود سببه إلى ارتداد مشاعر الاستقلال ضد الهيمنة الأجنبية، إن الروح الوطنية ، التي لم ترض باستسلام غير مشروط تحاول دعم طموحاتها بسند جديد اعتقدت أنها قد وجدته في المجتمعات السرية " ³.

كما شرح (Léon Roches) سنة 1844 أهمية قادة الطرق الصوفية في تفجير الانتفاضات الشعبية بقوله : " يتسرع كثير من الناس إلى القول بأن العرب ينفرون من الأشراف... هذا اعتقاد خطأ ، والحقيقة أن ارتباط الأتباع بأسيادهم لا يزال قائما، وما انتفاضة الجزائر برمتها ضد فرنسا إلا استجابة لنداء أولئك الأشراف " ⁴.

أما بالنسبة لمنطقة الزيبان فإن كل زواياها تنسب إلى الطريقة الرحمانية وأشهرها: زاوية بوزيان وعبد الحفيظ الخنقي وصادق بن الحاج ، وزاوية طولقة وزاوية الشيخ

¹ _ عبد القادر بوعرفة: مرجع سابق، ص 100.

² _ شارل روبير أجرون: مرجع سابق، ص 550.

³ _ شارل روبير أجرون: المرجع السابق ص 552.

⁴ _ Charles robert AGERON : Les Algériens Musulmans et la France, op . cit , p8

المختار الجيلاني بأولاد جلال¹.

وقد أرجع عبد الحميد زوزو كثرة الزوايا في المنطقة إلى كثرة رجال الدين بها من ناحية والموقع الجغرافي من ناحية أخرى بقوله : " أما القنطرة بحكم موقعها الجغرافي كانت مركزا حضاريا ومحطة ترحيل متصلة بالقبائل المجاورة ، وكانت منطقة عبور بني فرح ، أولاد زيان ، وبني معافة ، من التل والصحراء كما أنها كانت مقر إقامة رجال الدين الذين تجاوزت شهرتهم وسلطانهم الحدود المحلية² .

كما أثبتت الطريقة الرحمانية في الزيبان توفرها على طاقة معنوية عظيمة في عدة مناسبات أهمها ثورة الزعاطشة 1849 وثورة الصادق بن الحاج 1858 وثورة العامري 1876 ، وإن انتماء هؤلاء القادة الرحمانيين إلى نفس النطاق الجغرافي ، كما أن التقارب الزمني لهذه الثورات ، يدل على أن هناك علاقة تجمعهم خاصة إذا علمنا أن الهدف كان واحدا تمثل في رفع راية الجهاد .

وعليه فإن حجم التضحية التي قدمها أنصار الطريقة قد بلغ أوجه ، ولهذا أدرك العدو مدى روح التضحية التي يمكن للتربية الإسلامية أن تؤسسها في النفوس ، ونظرا لهذه الأهمية فقد اتبعت السلطات الاستعمارية مع هذه الطريقة وغيرها أسلوب الترغيب والترهيب لشل دورها وذلك من خلال :

- معاقبة القادة الذين يرفضون التعامل معها ولا يلتزمون الصمت والحياد تجاه سياستها القاهرة .
- الإساءة إلى سمعة بعض الشيوخ وذلك بمنحهم تعويضات مالية.
- اعتبار الزوايا بؤرة تعصب ولا بد من مراقبة نشاطها وضرورة استبدالها بالمدارس الفرنسية.

وقد نجح الاستعمار الفرنسي بهذا الأسلوب إلى حد بعيد ، في تحقيق أهدافه .

¹ هذه الزاوية شيخها هو سي علي بن عثمان الذي تعاون مع فرنسا وأظهر لها الطاعة والخضوع وتعتبر الزاوية الرحمانية الوحيدة في المنطقة التي أظهرت هذا الموقف المتخاذل، هذا التخاذل التي اعتمدت عليه فرنسا في إحلال القطيعة وزرع العداء إلى غاية وصول هذه الزوايا إلى الصراح فيما بينها، عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي، مرجع سابق، 356.

² _ عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ص 77.

2. الوازع الديني

إن المقاومة التي أبداهها الجزائريون واستماتتهم في الدفاع عن بلدهم مردها إلى الدور المميز و الفاعل الذي لعبه الزعماء الدينيون في استنفار الهمم وإحياء الحماس الديني في نفوسهم ، إضافة إلى نشر روح الصمود والإصرار على النصر أو الاستشهاد في سبيل الله ، وهذا ما جعل المقاومة الشعبية للزيبان في القرن التاسع عشر تتسم بطابع الحرب الجهادية ، خاصة وأن مفهوم الوطنية المتعارف عليه لم يكن قد تبلور حيث كان الجزائريون ، في تلك الفترة لا يفرقون بين مفهوم الوطن والدين خاصة إذا تعلق الأمر بهجوم مسيحي صليبي حاد¹.

و هذا ما يفسر عجز القادة العسكريين الفرنسيين في فهم ذلك التعصب الديني الذي نعت به المجاهدون ، وأن عجز فرنسا عن تقديم مبررات لسبب هذه الثورات هو عدم قدرتها على التمييز بين الدين والتعصب ، لأن الوطنية والدفاع عن أرض الأجداد والجهاد كان السبب الأقوى لاندلاع تلك الثورات . والذي لم يكن في حقيقة الأمر سوى التمسك بالقيم الدينية والحضارية العربية الإسلامية وهي القيم التي سوف يستمد منها الشعب الجزائري قوته وعزيمته ، طوال مسيرته النضالية².

لقد كان هذا التعصب الديني كما يدعون سببا في فشل الأساليب الاستعمارية في الإبادة والتنصير رغم حشد الإدارة الاستعمارية كل الإمكانيات لذلك وقد أكد الدكتور أبو القاسم سعد الله في تعريفه للتعصب الديني الذي ميز المقاومة الشعبية حيث يرى بأنه يحمل المعنى الديني المحض أي الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة أملا في العيش الكريم وابتغاء الحرية³.

¹ - شارل روبيير أجرون: مرجع سابق، ص 295.

² - عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي، مرجع سابق، ص 162.

³ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، مرجع سابق، ص 92 .

ويعتبر البعد الروحي الذي وحد السكان ودفعهم لمحاربة العدو الفرنسي هو الشعور الذي كان سائدا لدى كل الشعب رغم الإصرار الفرنسي على نكرانها ونعتها التعصب الديني " إن لقب شريف كفيل بأن يؤثر في القبائل ويقوم بدفعها إلى الثورة " ¹.

فالجهد كان صبغة رجال ملهمين حقا و لكن بسواعد الشعب ، وسبب ارتباط المقاومة المسلحة بشيوخ الزوايا ومقدمي الطرق يعود إلى أن معظم علماء دين ، كما أنهم كانوا يحتلون مكانة خاصة في المجتمع الجزائري لأنهم ينتمون إلى الزوايا ،التي أدرك الناس مكانها و وعوا دورها ، وقد عبر حمدان خوجة عن هذا الموضوع بقوله : " إن شيوخ الطرق الصوفية أمروا جميع المواطنين الجزائريين أيام الغزو الفرنسي بالتعبئة العامة وبالوقوف صفا واحد لمقاومة الغزاة المحتلين " ².

إن المكانة والاحترام التي كان يحظى بها هؤلاء القادة ، ليست بسبب ثروتهم أو سلطتهم، ولكن حصولهم على تلك المهابة كان بواسطة ورعهم ودعوتهم للخير والترغيب في المعروف ، والنهي عن المنكر من جهة ولتنظيمهم الداخلي الجيد المتفتح على المجتمع الجزائري ، وعلاقاتهم الجيدة مع الناس من جهة أخرى ³.

كما أن القادة العسكريين كانوا على الدوام ينظرون إلى الإسلام على أساس أنه الموجه الأول والأقوى للانتفاضات الشعبية ، لذلك عمدوا إلى التضييق على العلماء والقادة إلى أن وصل بهم الأمر لمنعهم من أداء فريضة الحج ، وهذا ما قام به الأميرال دي قيدون سنوات 1873، 1874 ، 1879 بحجة دعوتهم الناس إلى الامتناع عن حرث الأرض وزراعتها حتى لا يستفيد منها الكفار ⁴.

لقد فرضت رقابة صارمة التي فرضت على شيوخ الزوايا ، كان فيها نوع كبير من المبالغة والتعسف ، حيث أصبح لا يمكنهم إحياء مناسبة دينية أو تنظيم

¹ _صالح فركوس :إدارة المكاتب العربية ،مرجع سابق ، ص 71.

² _نفس المرجع ، ص 51.

³ _محمد العربي ولد خليفة :مرجع سابق ، ص 55 .

⁴ _ عبد القادر خليفي : «دور الطرق الصوفية في المحافظة على الهوية الوطنية »، الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية ، وزارة المجاهدين ، الجزائر ،2007،ص 141.

"وعدة " دون التفاوض مع الإدارة الفرنسية للحصول على إذن ، وقد كانت هذه الأخيرة تضع شروطا عديدة منها منع ضرب البارود مع دفعهم لبعض الرسوم¹. وقد تمثلت قوة الردع الفرنسية لهذه الروح الجهادية في عمليات القتل كما حدث مع بوزيان قائد ثورة الزعاطشة و يحيى بن محمد قائد ثورة العامري أو النفى كما حدث مع الصادق بن الحاج قائد الانتفاضة الكبرى بجبل أحمر خدو. لقد تعمدت نفيهم إلى بلدان غير إسلامية لأنها كانت ترى في نفيهم لبلاد إسلامي خدمة لهم ومن ثمة لا بد من قلع هؤلاء القادة من جذورهم بنفيهم إلى بلدان أوروبية. وعلى الرغم من كل هذا فقد برهنت السياسة الفرنسية كعادتها على فشلها وذلك بسبب تجذر روح المقاومة في الشعب الجزائري ، رغم محاولاتها المتعددة في القضاء عليها .

4 _صالح فركوس :إدارة المكاتب العربية ،مرجع سابق ، ص 84.

المبحث الثالث :العلاقة الاجتماعية

1. دور المكاتب العربية

تعتبر مشكلة إدارة الأهالي من بين أهم الأسباب التي حرصت الإدارة الفرنسية على تجسيدها ، فقد حاولت إيجاد حلقة وصل بين القيادة العسكرية والجزائريين لأن قوات العدو عندما حاولت أن تتوغل في الجزائر قصد بسط السيطرة والنفوذ على مختلف المناطق ، واجهتها صعوبات جمة بسبب رفض السكان التعاون معها ، لأن الإدارة الفرنسية كانت تنقصها معلومات تخصهم ، فتمت الاستعانة ببعض الشخصيات المحلية ذات النفوذ الكبيرة ولهذا قررت السلطات الاستعمارية إنشاء هيئة رسمية في سنة 1833 تتكفل بمراقبة السكان وجمع معلومات عنهم ¹ .

ولتحقيق هذه الغاية عملت على تسهيل عملية الاتصال برؤساء القبائل والتفاوض معهم ، وإقناعهم بقبول مبدأ التعاون مع فرنسا مقابل التزام هذه الأخيرة باحترام أساليب عملهم والعادات والتقاليد الموجودة عندهم ، وتوفير الأمن والطمأنينة في مناطق نفوذهم وحماية مصالحهم ، وأطلق على هذه الهيئة اسم " مصلحة الشؤون العربية " بقيادة لاموريسيير Lamoricière ² .

وقد أثبتت هذه الهيئة عجزها عن تسيير شؤون الأهالي ، ومرد ذلك إلى اهتمامها بمحاولات إخضاعهم وبسط النفوذ الفرنسي عليهم . كما تبين أن الشخصيات المختارة لم تقم بدورها كاملا في تزويد الإدارة الفرنسية بالمعلومات الضرورية ، فلهذا سعت هذه الأخيرة إلى إيجاد أسلوب جديد ، وذلك بعد التزايد الكبير لعدد العملاء ، فصدر مرسوم وزاري في 1 فيفري 1844 يعلن عن تأسيس المكاتب العربية ، كما وضع لها هيكلها الإدارية بحيث أصبحت هذه المكاتب هي الوسيلة الأنجع التي سيعتمد عليها الجيش الفرنسي لإخضاع الجزائريين، والقضاء على ما بقي من مؤسسات الدولة الجزائرية ³ .

¹ _ صالح فركوس :إدارة المكاتب العربية ،مرجع سابق ، ص ص 12 ، 13.

² _ Foucher (v) : les bureaux arabes en Algérie, paris, 1858, pp12.13.

³ _ صالح فركوس : المرجع السابق ، ص 13.

و سنورد بعض التعريفات لهذا التنظيم الإداري الجديد ، فقد عرفها النقيب (hugonnet) : " المكتب العربي هو حلقة وصل بين الجنس الأوروبي الذي استوطن بالقطر الجزائري منذ 1830 والجنس الأهلي والذي يقطن البلاد من قبل ولا يزال إلى الآن¹ . أما شارل ريشارد (charle Richard) فعرفها بقوله " إن مؤسسة المكتب العربي وسيلة عمل وهي أساس تفكيرنا، قبل أن تكون وسيلة لتعبيرنا² .

أما فيما يخص القيادة العسكرية فقد تم تأسيس إدارات فرعية لها على مستوى المقاطعات الثلاث الموجودة بالجزائر ، وفي كل مقاطعة توجد وحدات للمكاتب العربية من الدرجة الأولى ، و وحدات ثانوية من الدرجة الثانية . وفي سنة 1865 وصل عدد المكاتب العربية إلى 46 مكتبا ، منها 15 مكتبا في عمالة قسنطينة ، وكان يشرف على هذه المكاتب حوالي 200 من الضباط على مستوى المقاطعات الثلاث³ .

- وقد كانت المؤسسة العسكرية الفرنسية تهدف من وراء إنشاء المكاتب العربية إلى :
- التركيز على تحقيق التهدة الدائمة في أوساط القبائل وذلك بمراقبتها وحراسة المشبوه فيهم .
 - إخضاع القبائل للسلطة الفرنسية .
 - مراقبة رجال الدين والعمل على قمع الثورات ، حيث أن مراقبة هؤلاء الأشراف الذين كانوا في الأصل مجموعة من الطلبة تربطهم علاقة واحدة أو زاوية واحدة ، ولهذا قام الضابط **دنفو** بإعداد دراسة تستهدف معرفة أصول وطرق انتماءات هؤلاء الأشراف ، الذين كانوا دائما محل إزعاج للعدو ومعرفة العلاقة التي تربط هؤلاء الثوار وهدفهم . كما فرضت مراقبة دائمة ومستمرة على المساجد والزوايا وكل اللذين ينتمون إليها⁴ .
 - مساعدة القادة العسكريين بالبلاد في إدارة الأهالي .

¹ _ شارل روبير أجرون : مرجع سابق، ص 249.

² _ شارل روبير أجرون : المرجع السابق ، ص 19

³ _ collot clod : les institution de L'algerien durant la période coloniale (1830- 1962), paris, 1987, p38-39.

⁴ _ صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية ، مرجع سابق، ص 61.

- استخلاص الضرائب.
- ترسيخ فكرة الجزائر فرنسية¹.
- ومن أجل تحقيق هذه الأهداف أعطيت لهذه المكاتب كل الإمكانيات المادية وذلك من أجل أن تقوم بنشاطها الفعال ، وتسير مهامها في أحسن الأحوال . ونظر للأهمية العسكرية للمكاتب العربية ، فقد عملت المؤسسة العسكرية الاستعمارية على توسيع مهامها ليزداد نفوذها حتى أصبحت هذه المكاتب هي المركز الحقيقي للسلطة ، كما أنها أصبحت تكون إدارة مستقلة عن الجيش الفرنسي ، وأصبحت المهمة الرئيسية لرؤساء المكاتب بصفتهم أحد عناصر السلطة العسكرية ، هي جمع المعلومات التي تخدم الجيش الفرنسي، وتساعد على مد نفوذه في البلاد وتتمحور طبيعة هذه المعلومات حول.
- إحصاء الأراضي الزراعية ودراسة الموارد المائية لها.
- دراسة التنظيمات القبلية.
- تزويد موظفي الغابات بمعلومات تتعلق بهذه الثروة.
- ومع مرور الوقت تطور دور المسؤولين في هذه المكاتب من جمع المعلومات ومراقبة القبائل إلى تعيين وخلع الزعماء المحليين من العرب ، كما وصلت مهامهم إلى جهاز القضاء وذلك بعدة أشكال أهمها:
- استصدار قرارات في المسائل الإدارية والقضائية .
- القيام بدور القضاة والإشراف على تنفيذ الأحكام .
- فرض العقوبات والغرامات على الجزائريين².
- وعلى هذا الأساس ، فإن المكاتب العربية أصبحت هي الوسيلة الأكثر فعالية التي استطاع من خلالها ضباط المقاطعات والدوائر والنواحي من فرض سيطرتهم ، حيث قال عنها ياكون (yacono) : " إن سلطة رؤساء المكاتب كانت في بعض الأحيان تتجاوز وتفوق السلطات التي يمارسها أعضاء الحكومة نظرا للإمكانيات التي كانت تحت تصرفهم

¹ _صالح فركوس : المرجع السابق، ص 20.

² _ عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي، مرجع سابق، ص ص 219-221.

من ميزانية وعساكر وموظفين إذ تمتعوا بمطلق الحرية في فرض سلطتهم على الأرض والسكان معا¹.

وقد ذكر الكولونيل (pein) حاكم مقاطعة باتنة (1859، 1863) عن الرفاهية المترفة وحرية التصرف التي كان يتمتع بها رؤساء هذه المكاتب واصفا فترة حكمه على أنها أسعد أيام حياته " أنا بدوري كنت ملكا وكنت أتمتع بحرية لا حد لها لأن كبريات القبائل من فرسان الحضنة والقبائل الرحل من أولا نايل لا تعترف بقائد غيري، ولا تطيع سواي " ². كما لم يقتصر دور هذه المكاتب على ما سبق ذكره فقط ، بل تطور دورها إلى مراقبة رجال الدين والعمل على قمع الثورات الشعبية ، هذا الهدف الذي كان من بين أقوى العوامل المساهمة في القضاء على هذه المؤسسات . ومع مرور الزمن آتاهم ضباط هذه المكاتب بأنهم هم من كانوا يعملون على التحريض على تفجير الثورات المحلية وذلك في محاولة منهم للظهور بمظهر المنتصر³.

كما اتهموا أيضا بأنهم كانوا يبحثون عن الفوضى بشن الغارات على القبائل دون أي مبرر للحصول على ترقية في المناصب وقد اعتمد اتهام هذه المكاتب على أن فترة حكمهم من سنة 1844 إلى سنة 1870 كانت هي فترة المقاومة الشعبية .وقد نقص لهيب هذه الثورات بزوال هذه المؤسسات⁴.

كما جاء في جريدة (indépendant) حول هذا الموضوع مايلي : " لقد تحالفت المكاتب العربية مع الزعماء الأهالي للدفاع بالطرق الشرعية وغير شرعية، عن امتيازاتهم ونفوذهم ومستثمراتهم فلا هم فرنسيون ولا هم عرب وإنما هم تشكيلة سياسية " ⁵.

ولهذا فإن هذه المكاتب أصبحت لا تشكل سوى دوائر سلطوية لا جدوى منها. وأمام هذه الاتهامات التي وصلت إلى حد تحميلها مسؤولية كل ما يحدث ، وكرد فعل ومن أجل استيعاب هذا الغليان الذي ساهم المستوطنون في تأجيج لهيبه .

¹ _ collot clod : op cit, p 40

² _ عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الإستعمار الفرنسي، مرجع سابق، ص 204.

³ _ Agerom : op cit, p 21.

⁴ _ صالح فركوس : إدارة المكاتب العربية ، مرجع سابق ، ص 411.

⁵ _ شارل روبير أجرون: مرجع سابق، ص 44.

كما علق الجنرال (AUGERAUD) عن هذه السياسة بقوله : " لم تخرج سياستنا تجاه الأهالي ، حتى ذلك التاريخ عن إطار تسيير وإدارة محمية إقطاعية من طرف ضباط المكاتب العربية ويصدق ذلك بصفة أخص على القطاع القسنطيني أكثر من غيره " ¹. ولعل هذا ما حمل جريدة (Le Temps) على تحميل هؤلاء الرؤساء مسؤولية الانتفاضات ، كما احتوى المقال على شهادة أحد المستوطنين Béziy الذي قال : " في حالة اندلاع أي حركة عصيان فما عليكم إلا أن تستخرجوا ، عن طريق القرعة عشرة من ضباط المكاتب العربية ، وتقدموهم أمام مجلس المحلفين وأن تنتظروا النتيجة ... أضمن لكم أنها ستكون نتيجة جيدة " ².

ونتيجة لهذا السخط العام والتذمر الشديد من هذه المكاتب صدر قرار في 4 أكتوبر 1870 ينص بإلغاء هذه المؤسسة العقابية بالإضافة إلى إلغاء الحكم العسكري ³.

والحقيقة أن دور هذه المكاتب في منطقة الزيبان كان لا يقل بطشا وقسوة عن دورها في بقية المناطق ، ولذا فإن السياسة التي انتهجتها هذه المكاتب كانت أحد أهم أسباب اندلاع هذه المقاومة الشعبية، كمثل على ذلك هو أن السياسة الضريبية لهذه المكاتب كانت تقوم على تكليف القياد بإحصاء القطعان وتقدير الغلة ، وتقوم مصلحة الضرائب بتسجيل القوائم للأشخاص المعنيين بالدفع ، وفي الأخير يقوم القياد والأغوات تحت رقابة المكاتب العربية بجمع المبالغ وفي هذه المرحلة يمكن لضباط المكاتب أن يتحصلوا على ما يمكنهم من مبالغ زائدة عن قيمة الضريبة وقد عبر المستوطنون عن هذه السياسة بالقول : " ضباط المكاتب العربية ، أولئك تجار المعابد الذين يستمرون في إفقار الأهالي البائسين " ⁴.

¹ Charles Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France, op.cit , pp44 .45 _

² Abdelhamid Zerdoum : Histoire de Biskra , op.cit p p 207. _

³ _صالح فركوس :إدارة المكاتب العربية ،مرجع سابق، ص 412.

⁴ _شارل روبير أجرون: مرجع سابق، ص ص 247، 248

وبعد إلغاء المكاتب العربية في بلدية بسكرة أسندت الإدارة إلى لجنة مشكلة من قايد الدائرة وقاضي الشؤون العامة يساعده خمس نواب وضباط الأحوال المدنية .

2. دور العائلات الكبرى

بعد فشل السياسة العسكرية الفرنسية ، وذلك بسبب رفض الجزائريين لهذه السياسة ، كان لابد على فرنسا أن تغير من أسلوبها لذلك عمدت إلى إتباع سياسة التفرقة من جهة وتقريب بعض الزعامات المحلية لها من جهة أخرى ، فسعت جاهدة في البحث عن من يعترف لها بالسيادة ويظهر لها الطاعة والولاء ، حيث وضح بعض الضباط الفرنسيين أهمية الاستعانة بهذه الفئة من أجل التحكم في الأوضاع الأمنية وقد عبر عن ذلك الضابط لاباسي (Lapasset) قائلاً : " إن استهداف شريحة معينة من الشعب الجزائري ، وذلك بقصد خلق شرح في المجتمع الجزائري وتفكيكه و ذلك عن طريق التفرقة والتجزئة حتى تتمكن فرنسا من ترتيب شؤونها " . حيث أن هذه الشريحة ستقتصر مهامها على:

- مشاركة القوات الفرنسية في حملاتها العسكرية.
- مراقبة القبائل الثائرة.

والحقيقة أن مبدأ " فرق تسد " الذي اعتمدت عليها الإستراتيجية الفرنسية يهدف إلى تحطيم النظام الاجتماعي وتكسير العلاقات العائلية ، وبهذا تكون مهمة إقامة نظام جديد مكان هذا النظام المحطم أمر يسير ، وقد صرح أحد الضباط الفرنسيين قائلاً : " إن ما سهل في انتهاج هذه السياسة والمتمثلة في تقديم الدعم لشيوخ المعارضة ، هو روح العداوة المتأصلة منذ غابر الأزمنة بين تلك العائلات الإقطاعية ، وكذا الكراهية المتبادلة بين هذه العائلات فالشعار السيادي لم يفرضه منطق الاحتلال بقدر ما كرسه العداوات التقليدية السائدة في المجتمع الأهلي¹ .

والأهداف الحقيقية لإتباع فرنسا هذه السياسة هي إحداث القطيعة بين القبائل وبين الثورات الشعبية وذلك من أجل ضرب الموارد الاقتصادية للثوار، بإحداث القطيعة هذا من جهة أما من جهة أخرى فإن الأهداف الفرنسية كانت منصبة حول التخلص من الزعامات

Charles robert AGERON : « l'Algérie Algérienne » de Napoléon III à Degaulle paris, 1980 pp59-71.

¹

الوطنية لأنها تشكل خطرا على التواجد الاستعماري ، وفقا لمنطق تقسيم السكان إلى فئتين متصارعتين ، يمكن فرنسا من وضع حد فاصل للفئات المتضامنة والموحدة لمحاربتها. وهذا ما سعت إليه فرنسا في منطقة الزيبان ضد ما أسمته " الأرستقراطية الإقطاعية "، حيث يرجح بعض المؤرخين أن سبب الانحطاط الذي عرفتة منطقة الزيبان مرده إلى التنافس الكبير والشديد بين العائلات الكبرى (بن قانة و بوعكاز) . فقد كانت الرغبة الجامعة في تولي الزعامة ، والفوز بلقب شيخ العرب والذي تعود جذوره إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي، أحد العوامل التي ساهمت في تأزم الوضع في المنطقة هذا من جهة ¹. كما أن منطقة الزيبان كانت مسرحا لتصفية بقايا المقاومة الشعبية وأهمها التنافس بين أنصار أحمد باي والأمير عبد القادر من جهة أخرى ².

وعليه فإن الدور الذي لعبه هؤلاء الحلفاء من ذوي الجاه والسلطان حسب قول لويس رين (louis Rinn) كان سببا رئيسيا في إنهاك وإحباط المقاومة الشعبية لأن التقارير التي كانت ترصدها هذه الزعامات المحلية عن مصادر تموينهم ، و جميع تحركاتهم وأهم تحالفاتهم ، حيث قال عن ذلك بيجو: " إن استعانتنا بهذه العائلات الكبيرة، يعد وسيلة ناجحة لتعيين مواقع الثوار، وبذلك نتمكن من حصارهم والقبض عليهم بكل سهولة، وكذلك فإن الوسيلة تدخل في إطار المحافظة على الأمن " ³.

وقد عمدت الحكومة الفرنسية على منحهم الامتيازات و التكريمات حيث كانت تدفع لهم مبالغ هامة من أجل أن يردوا العدوان عليها وقد قدر فارني هذه المبالغ بـ 21 فرنكا، كما أن الإدارة الفرنسية كانت تدفع لهذه الزعامات قسما من الضرائب بقدر تعاونهم مع السلطة الاستعمارية ⁴.

3. العامل الاجتماعي

¹ _ Agerom R : op.cit, p251.

² _ وأهم محطات هذا التنافس هو معركة "مراح جازيه" قرب بسكرة جانفي 1831 عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي ،مرجع سابق، ص 80 .

³ _ نفس المرجع ، ص 79.

⁴ _ Agerom R : op.cit ,p 253.

لقد لعب العامل الاجتماعي الدور الفاعل والبارز في هذه المقاومات التي تميزت بالطابع الشعبي ، والتعبئة الواسعة إضافة إلى الدفاع عن الأرض والملكية، وتعود أسباب قوة العامل الاجتماعي إلى:

أ. البنية الاجتماعية

حيث نلاحظ أن البنية الاجتماعية التي اعتمد عليها قادة المقاومة في المنطقة ، ساهمت وبشكل كبير في تحقيق انتصار على أبرع القواد العسكريين في ذلك الزمان بل ربما في التاريخ ، وبديهي أن الإمكانيات العسكرية لم تكن متكافئة بين الطرفين بالمرّة ، فالقوات الفرنسية كانت تمتلك أحدث وسائل القتال من مدافع وغيرها من الوسائل العسكرية وعليه فإن هذه الجماهير الشعبية بإيمانها وإرادتها حققت نجاحا أقوى من المدافع والدبابات الفرنسية ، ومن هنا نستخلص أن الضعف كان في الوسائل العسكرية في ظل وجود بنية اجتماعية أصلية أقوى منها.

ب. الإصرار على المقاومة رغم القمع الفرنسي

رغم الفشل الذي أصاب المقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان ، والذي أرجعه بعض الدارسين إلى عدم القدرة على الاستفادة من تجارب الماضي وتراكمات الأجيال ، حيث ظلت هذه المقاومة عبارة عن محاولات لم ترق إلى المستوى الذي يحقق أهدافها ، إلا أن هناك حقيقة تاريخية هامة حول رد الفعل الجزائري التي يمكن أن نخلص إليه وهي سمة الاستماتة التي أبداهها سكان الزيبان وما جاورها من قرى و مداشر ، وإلى مشاركة باقي المناطق الأخرى باختلاف الزمان والمكان ضد المحتل ، وعليه فإن سكان الزيبان لم ييأسوا ولم يملوا من رفض التواجد الفرنسي مستعملين كل الوسائل والإمكانيات المتاحة لهم رغم ضعفها ، حيث أن الاختلاف في العدة والعدد جعل الهزيمة تكاد تكون منطقية ، وقد عبر عن ذلك رئيس مقاطعة قسنطينة كارترى قائلا : " إن الأهالي يملكون القدرة على الصمود و تفشيل العدو ومنعه من تحقيق أهدافه بوسائل تقليدية اكتسبها الثوار على مدى الصراع ، وأن قوة فرنسا ليست قادرة على مواجهتها أو منعها على الأقل من تحقيق أهدافها " ¹.

¹ - عبد الرحمان الجباللي: تاريخ الجزائر العام، ج 4. ص 82.

والحقيقة التي لا يمكن نفيها هي أن القمع الفرنسي لهذه المقاومة كان رهيبا ، وتجاوز في نظر الكثير مقدار الجرم المرتكب بل هو أشبه بعمليات انتقام منه إلى معاقبة تتناسب مع ما ارتكب من جرائم¹.

كما أن القادة العسكريين أصروا دوما على إضمار روح الكراهية والاحتقار ضد المقاومة والزعامات وقد عبرت جريدة l'Echo d'oran عن هذه المشاعر بـ : " يجب أن نجعلهم على الأقل عاجزين عن الإساءة ، وأن نجعلهم ضعفاء وفقراء ونقلص أعدادهم لكي لا يكونوا خطرا دائما علينا"² □

إن بسط الذعر وزرع مشاهد الرعب وحرق الواحات لضمان أمن المستوطنين هو هدف السياسة الفرنسية وذلك بشهادة أحد القادة بقوله : " يجب أن يبسط الذعر جناحيه في أجواء الأوكار التي تأوي القتلة وموقدي النيران ، ويجب تصعيد القمع حتى يرسخ في ذاكرة القبائل ، مشاهد رعب دائم لضمان الأمن للمهاجرين"³.

وكرد على هذه الهمجية الاستعمارية ، جاء على لسان أحد مجاهدي ثورة الصادق بن الحاج بعد مثوله للمحاكمة: " حقيقة كنا نتألم كثيرا من جراء ذلك القمع ولكن كنا قادرين على إنزال الألم بهم رغم وسائلنا العسكرية البسيطة ، وذلك بسبب أن أملنا في القدرة الإلهية كان كبيرا ، كما أن رجاءنا هو الجنة وهذا هو عامل قوتنا "

وقد أبرز لنا ثوار الزيبان حقيقة مواجهة القوى الاستعمارية وسياساتها القاهرة والظالمة مهما كانت قوتها ، ورفضهم التام والمطلق لمبدأ القعود عن الجهاد و المقاومة ، بدعوى عدم تكافؤ القوى ، وهي الحجة التي ظل الثوار يرفضونها ويمقتونها ، لأن للجهاد قدسيته خاصة عند المسلمين ، الجهاد يشجب الشرعية من المتخلف والمتعاس ويدخله في دائرة الجرم . كما اعتبروا القعود عنه وسيلة للهروب وهو تبرير للهزيمة قبل اندلاع المعركة . إن إيمان هذه الجماهير الشعبية بفكرة عدم الخضوع والاستسلام والطموح بالفوز هو القاسم المشترك لكل هذه الثورات. فكانت مواجهتهم للخوف والإقبال على

¹ _ المرجع نفسه ، ص 84.

² -شارل روبيير أجرون: مرجع سابق، ص 50.

³ _ شارل روبيير أجرون: المرجع السابق ص 51.

نيل الشهادة ورفض فكرة عدم تكافؤ القوى ، هي الدافع الحقيقي والأسمى في هذه الثورات ، وما الهزائم التي ألحقها الثوار بوسائلهم التقليدية على القوة العسكرية الفرنسية إلا دليل على قوة الدافع الإيماني لدى الثوار لأنه التفسير الوحيد لتلك الانتصارات¹.
أمام الإصرار الفرنسي على إلحاق العقاب بهم لأن العقاب الذي يستحقه هؤلاء السكان وبالمنظور الفرنسي لا يمكنه أن يؤجل . وأكد أجرون على أن السياسة الفرنسية في قمع الثورات كانت دوما بذرة الأمل لإعادة الكرة والنهوض من جديد . إن معالم الاحتقار و الإهانة التي كان يلمسها الجزائريون في نظرات وعبارات ، المنتصرين والتجاوزات والعنف الممارس من طرف الأفراد، هي بركان الانتقام الذي حمل السكان على إعادة الكرة من جديد ورفض منطق التخاذل والخوف².

¹ _عبد القادر بوعرفة:مرجع سابق ، ص 88.

² _ شارل روبيير أجرون: مرجع سابق،ص 108.

نستخلص من هذه الدراسة التي تناولت في عمومها أحداث المقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان أنها لم تكن انتفاضات عشوائية منطلقها الدفاع عن العرش أو اقتصادية بسبب الجوع والفقر كما يدعي الكتاب الفرنسيون ، بل كانت مقاومة نابغة من وعي الشعب بأصالته ورفضه للاستعمار الفرنسي .

وهكذا تصدى أهالي الزيبان لهجمات الفرنسيين الشرسة وأعوانه الخونة الذين حاولوا أن يمهّدوا لها الطريق نحو أعماق الصحراء ، لكن ذلك جوبه بعزيمة وتضحية من قبل المجاهدين عوضت التفوق المادي والعسكري للاستعمار وأذنا به . وقد التف الأهالي حول القيادات التي حملت لواء الجهاد وعبرت عن رفضها المطلق لوجود قوة كافرة انتهكت الدين والعرض وأرادت تغيير معالم المجتمع بما حملت من عادات وتقاليد بعيدة كل البعد عن قيم الجزائريين وقناعاتهم ، بالنظر إلى شكل المقاومة في الزيبان وأهدافها يمكن استخلاص النتائج التالية :

✓ منذ احتلال مدينة بسكرة سنة 1844 شهدت المنطقة مقاومة عنيفة للغزو الفرنسي ولكنها سرعان ما خفت لأسباب مختلفة لعل من أهمها الوسائل الوحشية التي استعملها الفرنسيون في قمع الانتفاضات المتتالية ، وما أن جاءت سنة 1876 حتى قامت ثورة العامري كتعبير عن روح التحدي والمقاومة وكذا كرمز لروح الرفض للاستعمار مهما كانت وسائله وأساليبه .

✓ الدور الكبير الذي لعبته الطريقة الرحمانية في مقاومة العدو الفرنسي في المنطقة ، حيث أن زعماء هذه الثورات كان معظمهم من أتباع هذه الطريقة ، أمثال الشيخ عبد الرحمان بوزيان قائد ثورة الزاب الشرقي ، و أحمد بن عياش الزعيم الديني لثورة العامري ، حيث أن أتباع هذه الطريقة يعتبرون أن رفع راية الجهاد ضد المستعمر من بين أهم مبادئهم التي يجب الدفاع عنها، كما أن الزوايا كانت تمثل المدرسة التقليدية لسكان

الزيان ، وساعدت بشكل كبير على رفض الثقافة الدخيلة والتمسك بالشخصية العربية الإسلامية .

✓ النظرة المحدودة لقادتها وانعدام التنسيق فيما بينهم والذي كان من الممكن أن يزيد المقاومة قوة وصلابة ، إضافة إلى نقص خبرتهم العسكرية والتخطيط المحكم والخداع والمراوغة ، وربما يعود ذلك إلى أن قادة هذه الثورات كانوا ينتمون إلى عائلات دينية و أرستقراطية ، فمثلا نجد أن الشيخ بوزيان أعلن الثورة ضد المستعمر وهو يعلم جيدا التفوق العسكري الكبير للعدو ، وهذا بشهادته عندما قال للقائد سيروكا " أنه وأهل الواحة سيقاتلون إلى آخر رجل " ، كما أنه قد عايش القمع الوحشي للمستعمر في سنوات جهاده مع الأمير عبد القادر وعلى الرغم من ذلك فقد خاض ضمار المعركة دون دراسة معمقة لوسائل العدو ولخططه ، ولعل ذلك يعود إلى أن هدفه لم يكن في تحقيق النصر أو الهزيمة وإنما انصب اهتمامه كزعيم للمنطقة حول رفع الظلم الاستعماري الذي كانت تعانيه المنطقة في تلك الفترة ، ومن هذا المنطلق استمدت ثورته ذلك التضامن الجماهيري الذي لم يسبق أن شوهد في انتفاضة أخرى .

أما بالنسبة للشيخ عبد الحفيظ الخنقي فإن فشل مقاومته لا يعود إلى قلة التضحيات الجسام التي قدمها الثوار أو ضعف قواتهم أمام العدو ، ولكن سبب الفشل يعود إلى عدم درايته وبصورة دقيقة لأسلحة المستعمر ومحاولة وضع خطط تكتيكية قابلة لتغير في أي وقت وتحت أي ظرف ، بل إن أسلوب المواجهة بقى نفسه من بداية المعركة لنهايتها وهذا ما سهل على العدو القضاء عليها .

أما مقاومة الشيخ الصادق بن الحاج ما يعاب عليها أن الطاقة البشرية المفجرة لها اكتفت بعنصر القرابة أو الجوار ، وهذا ما أدى بالأمر إلى التأزم عند اشتداد لهيبها و وجد مفجروها أنفسهم معزولين عن باقي

المناطق التي كان من الممكن أن تساعدكم لتحقيق الأهداف المرجوة من الثورة .

✓ نلاحظ أن جل الثورات كانت في المنطقة قد رسمت معالمها في الأرياف وهذا بسبب الارتباط الوثيق للجزائري بأرضه واعتبار الاستيلاء عليها بمثابة الخط الأحمر الذي لا يمكن السكوت عليه . وعليه فإن الحافز الوطني قد لعب دوره في قيام هذه الثورات ، حيث أن سياسة مصادرة الأراضي الزراعية التي اعتمدت عليها الحكومة الفرنسية ، قصد توطين الأوروبيين ، ساعدت على تفجير الثورات بالمنطقة و برهنت على التعلق الراسخ للسكان بأرضهم .

✓ القوات التي اعتمدت عليها هذه الثورات ، كانت متكونة من الفلاحين المتطوعين ، ولهذا استطاعت الجيوش الفرنسية القضاء على هذه الثورات نظر لتنظيم جيوشها ووحشية الاضطهاد الذي مارسه الجيش الفرنسي ، وضعف التنظيم والتسلح لدى الثوار .

✓ إن التشتت و الصراعات الداخلية والفك الإقطاعي والقبلي الذي كانت تعيشه منطقة الزيبان كانت كلها عوامل حاسمة في فشل هذه الانتفاضات .

✓ الأسباب التي قامت من أجلها هذه الثورات أبرزت فكرة الوطنية عندهم ، وكذبت الإدعاءات الفرنسية التي كانت تقول أن هذه الثورات كانت تقوم لأسباب اقتصادية ، و هذا بهدف إفراغها من محتواها وأهدافها .

✓ لقد لعبت السياسة الاستعمارية الفرنسية المتمثلة في فرض سلسلة من القوانين القمعية والإجراءات التعسفية ، على سكان الزيبان لتحقيق جملة من أهدافها الدنيئة ، والمتمثلة في تفجيرهم وتجويعهم ومحاولة إزلالهم وتجهيل أبنائهم ورغبة في القضاء على الإسلام وتتنصيرهم ، دورا بارز في اندلاع هذه الثورات .

✓ رغم تمكن الفرنسيين من احتلال كثير من المواقع الساحلية مع بداية الغزو ، إلا أنهم لاقوا صعوبات كبيرة أثناء توغلهم في الداخل بسبب المقاومة العنيفة ، ونتيجة لهذه المقاومة العنيفة حاول الفرنسيون فرض سيطرتهم على البلاد بإتباع عدة أساليب منها :

- استمالة بعض العائلات وإعطائهم مناصب قيادية مثل ما حدث مع عائلة بن قانة و وعكاز .
- جذب القبائل الموالية لفرنسا في محاولة لنشر نفوذها .

✓ إن المقومات الجغرافية لمنطقة الزيبان بصفة عامة ، حيث المناخ الصحراوي الجاف و القاسي وكثرة المسالك في واحات النخيل الكثيفة والتي كان القادة العسكريين لا يعلمون عنها شيئا ، أهم أسباب التفوق لدى الثوار قبل أن تحطم القوات الفرنسية هذه التحصينات الطبيعية بدباباتها وتعكس بها موازين القوى.

✓ إن نتائج هذه الثورات جاءت لتثبت للعالم أن المجازر الفظيعة والأعمال الشنيعة التي ارتكبها الجيش الفرنسي في حق الأهالي ، لا تمثل أي حضارة ولا أي مدنية كما يدعي ، إنما مثلت نفوس أشبه ما تكون بذئاب متعطشة لسفك الدماء وقتل الأرواح وتخريب كل ما تلمحه عين ، فقد كانت الخسائر عظيمة عظيمة وصمود سكان المنطقة .

✓ هذه الثورات ، رغم إمكانياتها المحدودة مقارنة بإمكانات العدو فإنها استطاعت أن تحقق انتصارات كبيرة على قواته ، و كلفته أعداد ضخمة من القتلى خاصة في صفوف الضباط مثل معركة

مشونش 1844 و واد براز 1849 ، إلا أنه في معظمها كانت الكلمة الأخيرة دائما للعدو ولأساليبه الشرسة في القمع ، ولكن رغم كل ذلك فإن ثوار الزيبان قدموا تضحيات جسام على الرغم من فشلهم في تحقيق النصر العسكري ، إلا أنهم حققوا نجاحا معنويا رسخ في نفوس السكان الروح الثورية الراضة للاحتلال .

وأخيرا يمكنني القول أن المقاومة الشعبية التي قادها أهالي الزيبان كانت تمثل إرادة شعب ، ولذلك لم يكن اضطرارهم إلى التسليم بل استمرت شعلة الكفاح تتقد بدم الشهداء عبر الواحات ورمال الصحراء .

▪ أرشييف مدينة بسكرة .

- Guignard : Recueil officiel des actes de la préfecture de Constantine 1878 , gouvernement General ,AB.
- Dorgeval : Recueil officiel des actes de la préfecture de Constantine 1878 , gouvernement General ,AB.

2_ المراجع

❖ العربية

1. أجرون شارل روبيير: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1870*1919 ،ترجمة مسعود حاج مسعود و بكلي ،ج1 ،دار رائد للكتاب ،الجزائر ، 2007.
2. الأشراف مصطفى:الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
3. الإفريقي ليون : وصف إفريقيا ، ج 2 ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،1983.
4. باي أحمد و خوجة حمدان و بوضربة : مذكرات ، ترجمة محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر،1981.
5. برنيان أندري ، نوشي أندري ، لاکوست إيف : الجزائر بين الماضي والحاضر ،ترجمة إسطنبولي رابح ومنصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1984.
6. البكري أبي عبيد الله:المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي،القاهرة، (ب ت ط).
7. بوحوش عمار:التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1997.
8. بورنان سعيد:شخصيات بارزة في كفاح الجزائر(1830،1962)، ج1، ط2، دار الأمل، الجزائر ، 2004.
9. بوعزيز يحيى: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، 1999.
10. (—،—): ثورات الجزائر في القرنين 19 و20، ط1، دار البعث ،الجزائر ،1980.
11. (—،—):موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر ،دار الهدى ،2004
12. تبرماسين عبد الرحمان:سي الصادق بن الحاج الانتفاضة الكبرى (1844*1859)، ط1، جمعية الشروق الثقافية، الجزائر، 2004 .
13. الجبلالي عبد الرحمان : تاريخ الجزائر العام، ج 4.

14. حباسي شاوش: من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830 * 1962 ، دار هومة ، الجزائر ، 1998 .
15. حبة عبد المجيد العقبي لمغيري : تذكرة أولى الألباب بملخص تاريخ بسكرة و الزاب، مخطوط، موجود بمكتبة عبد الحليم صيد، بسكرة..
16. حثروبي محمد صالح :قطف الجنان في تاريخ الزيبان ،دار الهدى ،الجزائر ،2000.
17. ابن خلدون عبد الرحمان: كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.ج6 ، دار العلم للنشر، بيروت، 1965.
18. خمار أحمد : تحفة الخليل في نبذة من تاريخ بسكرة النخيل ، مطبعة الفجر ، الجزائر ، 2008.
19. خير الدين محمد: مذكرات، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، (ب ت ط).
20. الزبيري محمد العربي:مقاومة الجنوب لاحتلال الفرنسي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، 1976.
21. زوزو عبد الحميد : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية و الاقتصادية والاجتماعية (1837*1939)، ترجمة مسعود حاج مسعود ،ج1، الجزائر، دار هومة، 2005.
22. (—،—): ثورة الأوراس 1879، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
23. (—،—): نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830*1900)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
24. سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية (1830*1900)، ج 1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1992 .
25. (—،—): محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
26. (—،—): الحركة الوطنية الجزائرية (1860*1900) ، ج1، القسم 2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 2000.
27. (—،—): تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج3، دار الغرب الإسلامي ، 1998.
28. سعيدوني نصر الدين : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصرة) ،ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.
29. الشارق عبد الله بن محمد :سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول ،المطبعة التونسية،تونس، 1929.
30. الشلقاني علي :ثورة الجزائر ،دار الهناء ،القاهرة ،1956.

31. صاري جيلالي ، قداش محفوظ ، بن حراث عبد القادر : الجزائر في التاريخ المقاومة السياسية 1900*1954 ، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر ، 1987.
32. صديق محمد الصالح : الجزائر بلد التحدي و الصمود ،موفم للنشر والتوزيع ،الجزائر ،1999.
33. صيد عبد الحليم: أبحاث في تاريخ الزيبان ، ط1، مطبعة سوف الوادي،الجزائر، 2000 .
34. عباد صالح:المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر (1870*1900)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
35. عثمان مسعود : أوراس الكرامة أمجاد وأنجاد ، دار الهدى ، الجزائر ،2008.
36. عميراوي أحيدة : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر ، مطبوعات جامعة منتوري، ، الجزائر 1999 .
37. (—،—): من تاريخ الجزائر الحديث ، ط2، دار الهدى، عين مليلة ، الجزائر ، 2004.
38. (—،—):من الملتقيات التاريخية الجزائرية ،ط2،دار الهدى ،الجزائر ،2007
39. العنري محمد صالح:فريد منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (تاريخ قسنطينة)، مراجعة وتقديم :يحيى بوعزيز،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر.(ب ت ط)
40. عوض صالح : معركة الإسلام والصليبية في الجزائر (1830 * 1962)، ج1،ط1، مطبعة دحلب ، الجزائر ،1989.
41. فركوس صالح: الحاج أحمد باي قسنطينة (1826*1850)،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،2007.
42. (—،—):إدارة المكاتب العربيةوالإحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844 م*1971م ،منشورات جامعة باجي مختار ،الجزائر ،2006 .
43. (—،—):أصالة وتعريب،مشروع فرنسا الصليبية والمجاهدة الإسلامية ،دار الكوثر للنشر ،الجزائر ،1991 .
44. قنان جمال: دراسات في المقاومة والاستعمار ،المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار ، الجزائر ، 1998.
45. (—،—):قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر ، الجزائر ،1994.
46. منور العربي:تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر ،دار المعرفة ،2006.
47. المدني أحمد توفيق: كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1984.

48. مياسى إبراهيم: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، دار هومة ، الجزائر 2005.
49. (—،—): من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
50. وعلي محمد الطاهر : التعليم التبشيري في الجزائر 1830 * 1904 دراسة تحليلية تاريخية ، منشورات دحلب ، 1997 .
51. يحيى جلال: تاريخ المغرب الكبير للعصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ج3، دار النهضة العربية، بيروت.
52. (—،—): السياسة الفرنسية في الجزائر 1830*1960، ط1، دار المعرفة ، القاهرة 1959.
- ❖ الأجنبية

1. AGERON Charles robert: France coloniale ou parti colonial, paris, 1978.
2. (—, —): l'Algérie Algérienne de Napoléon III à De Gaulle , paris ,1980.
3. (—, —): Les Algériens Musulmans et la France 1871 -1919, thèse t.i.p.u.f, 1968.
4. Ageromain R : la politique indigène de Bugeaud ,paris ,1955.
5. _Ben Gana Bouaziz :LE CHIEKH EL ARAB , étude historique sur la famille Ben Gana , Algérie, 1930.
6. Bidichon, Projet d'une exploration Politique commerciale Et Scientifique d'Alger à Tambouctou par le Sahara, 1849.
7. collot clod : les institutions de L'algérien durant la période coloniale (1830-1962), Paris, 1987.
8. Foucher (v) : les bureaux arabes en Algérie, paris, 1858.
9. Hubert Cataldo : Biskra Et Les Ziban, collection français d'Afrique, France, 1988.
10. Halim Cherfa : l'héroïque bataille de zaatcha , l'imprimerie el maraaf , Alger ,2007.
11. Jeanne et André Brochier : Livre d'or De L'Algérie , Baconnier Frères Alger, 1937.
12. _Rinn Louis: Marabouts et Khouans ,étude sur L'Islam en Algérie, Alger – Jordan , 1884 .
13. _Sari Djilali :À La Recherche De Notre Histoire ' casbah Editions , Alger, 2003.
14. Stora Ben jamin : Algérie histoire Contemporaine 1830*1988 , Casbah édition, 2004.
15. Thiriez Philippe : En Flânant les aurés ,éditions numidia ,Alger, 1986
16. Zerdoum Abdelhamid : Les turcs à Biskra 1660- 1844, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra ,1998.

- 17.(____,__): Histoir de Biskra 1844 -1962 , entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra ,1998.
- 18.(__, __): leçons d'histoire et polémique a Biskra 1830*1962, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra, 2000.
19. (__, __): Les français a Biskra 1844-1962, entreprise des arts graphique et de bureautique de Biskra, 1998.
20. (__, __): Les Biskris et la France, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra, 1998.
- 21.Zou zou Abdelhamid AURES AU TEMPS DE LA France COLONIALE EVOLUTION POLITIQUE ECONOMIQUE ET SOCIALE 1837*1939, tom 1, DE, édition d distribution Houma, Alger, 2002.

3_الملتقيات

1. الإبراهيمي أحمد طالب : «مقاومة الأوراس في عهد أحمد باي »،الملتقى الوطني الأول حول مقاومة الأوراس في عهد أحمد باي ،الجمعية الثقافية لتخليد المعركة الكبرى فرغوس أكباش،الجزائر،2006.
2. بو رايو عبد الحميد : « النزعة التاريخية التوثيقية والحس الملحمي في شعر الشعبي الجزائري في منطقة الجنوب الجزائري من خلال بعض النماذج محمد بن قيطون ،بلقاسم رغادة ،أحمد كرومي »،الموروث الشعبي ،الملتقى الوطني للموروث الشعبي الوادي، الجزائر،2006.
3. بوزيد بومدين: «الطرق الصوفية والاحتلال ، جدل الرفض والقبول ورمزية صاحب الوقت » الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية ، وزارة المجاهدين ، الجزائر ،2007.
4. بو عرفة عبد القادر: «جهاد شعبي أم مقاومة قراءة في المرجعيات الفكرية لحركة الجهاد في الخطاب الصوفي » الملتقى الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية ، وزارة المجاهدين ،2007.
5. تلمساني يوسف: «موقف الزاوية التيجانية من الاحتلال والمقاومة »، الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية ، وزارة المجاهدين ، الجزائر ، 2007.
6. حداد مصطفى: « انتفاضة البوازيد من سكان واحة العامري و المناطق المجاورة سنة 1976 » ، الملتقى الوطني للمقاومة الشعبية بالزيبان ، مديرية المجاهدين لولاية بسكرة ، الجزائر، ديسمبر 1989،

7. خليف عبد القادر : «دور الطرق الصوفية في المحافظة على الهوية الوطنية»، الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.
8. سويسي محمد الصغير: " المقاومة الشعبية في الزاب الشرقي بقيادة عبد الحفيظ الخنقي"، الملتقى الوطني للمقاومة الشعبية بالزيبان، مديرية المجاهدين لولاية بسكرة، الجزائر، ديسمبر 1998.
9. قنان جمال: «التوسع الاستعماري ظاهرة عدوانية تسلطية واستغلالية»، أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة والجدل السياسي، منشورات المجاهدين، 2007.
10. مزهودي مسعود: «تاريخ بلاد الزاب»، ملتقى تاريخ بلاد الزاب، مديرية المجاهدين لولاية بسكرة، 1989.
11. ولد خليفة محمد العربي: «مؤسسة الزاوية خزان المقاومة وحصن العقيدة والتراث»، الملتقى الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.

4_ الرسائل الجامعية

1. أوجرتي محمد: «أسرة بن قانة ومكانتها السياسية والاجتماعية خلال العهد العثماني»، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، 2005/2004.
2. عمراني معاذ: «أسرة بني جلاب في منطقة واد ريغ خلال القرنين 19 و20م، دراسة سياسية اجتماعية»، رسالة ماجستير، التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر، 2003.
3. قاسي فريدة: «الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1832*1847»، رسالة ماجستير، التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، 1999.
4. قريري سليمان الهادف: «القوى الوطنية في الجزائر ومقدمات الثورة التحريرية 1945-1954»، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الإسكندرية، 1988.

4_المقالات

❖ العربية

1. بالغيث الأمين، «ثورة الزعاطشة في المصادر الفرنسية»، مصادر، المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ع2، 1999.

2. برو توفيق : « جذور الاستعمار وجرائمه في الجزائر »، سيرتا، دار البعث قسنطينة، الجزائر، ع 6، 7، 1982.
3. بو حوش عمار : « الأرض والهجرة »، الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ع 16، 1973.
4. بوعبدلي المهدي: « الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب له في المجال الروحي »، الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ع 8، 1978.
5. بوعزيز يحيى : « مظاهر المقاومة ورواها في الشرق القسنطيني ضد الاستعمار الفرنسي في القرن 19 »، الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ع 79، 1980.
6. (—، —) : « من تاريخ كفاح الجزائر في القرن التاسع عشر أربعة أحداث في ثلاث وثائق »، المجلة التاريخية المغربية، سير مدي زغوان، تونس، ع 2، 1974.
7. (—، —) : « اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها »، الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ع خ، 1979.
8. تابليت علي : « مصادرة أملاك أهل زعاطشة »، مجلة الثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ع 115، 1982.
9. جعيط عيسى : « مقاومة سكان الواحات للاحتلال الفرنسي في القرن 19 ثورة الزعاطشة أسبابها وتطوراتها »، مجلة الدراسات التاريخية، وزارة التعليم العالي و البحث العلمي معهد التاريخ، الجزائر، ع 9، 1995.
10. حداد مصطفى: « المقاومة الجزائرية في جبال الأوراس وتخومها الجنوبية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، انتفاضة العامري (الزاب الغربي 1876 و ثورة الأوراس الغربي 1879) »، المجلة التاريخية المغربية، سير مدي - زغوان، تونس، ع 65، 66، 1992.
11. (—، —) : « انتفاضة لبازيد من سكان واحة العامري والمناطق المجاورة سنة 1876 »، الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، ع 81، 1984.
12. راشد أحمد إسماعيل: المقاومة الوطنية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي»، البيان، جامعة آل البيت، عمان، ع 04، 2002.
13. الزبيري محمد العربي : « المقاومة في الجزائر 1830*1848 »، الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ع 31، 1976.
14. سعيدوني ناصر الدين: مذكرة حول إقليم قسنطينة، الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ع 70.71، جوان 1979.

15. سليمان أحمد حسين: «نزع الملكية العقارية للجزائريين 1830*1871»، مصادر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ع 06، 2002
16. سويس محمد الصغير: « ثورة الزعاطشة دوافع وأسباب الفشل»، الخلدونية، الجمعية الخلدونية للدراسات و الأبحاث التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر، ع3، 2004.
17. الطاهر الإبراهيمي: «نظرة في مشهد وصفي خلدوني لزاب بسكرة»، الخلدونية، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة ، الجزائر، ع 2، 2003.
18. العربي إسماعيل: « الترتيبات التكتيكية لحصار قرية الزعاطشة أكتوبر نوفمبر 1849»، مجلة الدراسات التاريخية ، وزارة التعليم العالي و البحث العلمي معهد التاريخ، الجزائر، ع 9 ، 1995.
19. عمير اوي أحميدة: « السياسة الإدارية الفرنسية في الشرق الجزائري من خلال مشروع لويس بلانكي »، المصادر، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، ع6، مارس 2002.
20. فيلالي مختار: «الطريقة الرحمانية ودورها في مقاومة الاستعمار »، التراث ، جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس، ع 12، 2004.
21. كرام سليم: « الشيخ عبد الحفيظ الخنقي فارس مقاومة الكرامة في وادي إبراز»، الخلدونية ، الجمعية الخلدونية للأبحاث و الدراسات التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر، ع3، ديسمبر 2004.
22. مجاوري محمد: «مقاومة قبائل بني عامر في عصر الأمير عبد القادر»، المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ع 9، 2004.
23. المريوش أحمد: «التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري وردود فعل سكان الهقار 1916»، المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ع 11، 2005.
24. مصمودي فوزي: « معركة مشونش ببسكرة 1844 الخالدة » ، الخلدونية، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر ، ع 03، ديسمبر 2004.
25. (—،—): « بسكرة عروس الزيبان و بوابة الصحراء »، الفصل، ع 31، ديسمبر، 2002.
26. مطمر محمد العيد: «مقاومة واحة العامري 1876 »، الخلدونية، الجمعية الخلدونية للأبحاث و الدراسات التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر، ع 03، ديسمبر 2004.
27. (—،—): « الإحتلال الفرنسي للأوراس»، أضواء الأوراس التاريخية، ع ت، 2006.
28. محمد البشير المغيلي: التكوين الاقتصادي لنظام الوقف، المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ع 6، 2002.

29. مياسى إبراهيم : «ثورة الزعاطشة 1849»، مجلة الدراسات التاريخية ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ومعهد التاريخ، الجزائر، ع 11 و 12، 2000.
30. (—،—): «احتلال بسكرة 1844» ، الخدونية ، الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة، الجزائر، ع 02، 2003 .
31. يعقوب صالح: «البوازيد عبر التاريخ شجرة سيدي بوزيد» ، الخدونية ، وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، ع ت ، 2000.
- ❖ الأجنبية

1. FERAUD (Charles): «Notes Historique sur la province de Constantine, les bendjellab sultans de Touggourt », RA, n°23, 1879.
2. Feraud (ch): LE SAHARA DE CONSTANTINE Note et Souvenirs ,Alger, 1886.
3. (—, —): «Notes Historique sur la province de Constantine, les bendjellab sultans de Touggourt », RA, n°26, 1882.
4. (—, —): «Notes Historique sur la province de Constantine, les bendjellab sultans de Touggourt », RA, n°28, 188
5. (—, —): «Notes Historique sur la province de Constantine, les bendjellab sultans de Touggourt », RA, n° 30, Alger ,1886.
6. Feraud(L) :Les Descendants D un Personnage des mille et une nuits en Algérie , RA,n°32,1878.
7. Geneviève Désiré Vuillemin : «Les premiers projets du transsaharien et lafrigue du nord 1878*1881», R. H. M, n° 7.8, Tunis,1977.

6_الصحف

1. الشروق اليومي، الجزائر، ع 330، 2001 .
2. النبأ، الجزائر، ع 164، 1994.
3. دنيا الإسلام، الجزائر ، فيفري 1989.

7_المنشورات

1. جمعية أول نوفمبر: تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي (1837، 1954)، دار الشهاب باتنة، الجزائر، 1980.
2. جمعية الناصرية للتنمية الثقافية و الاجتماعية لخنقة سيدي ناجي: الذكرى المئوية الرابعة لنشأة خنقة سيدي ناجي (2002/1602) بحوث في تاريخها و سكانها و ترجمات لبعض من أعلامها، شركة دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2002.
3. الخيزري عبد القادر بن الحاج : شجرة الأشراف الفاطميين من سيدي بوزيد بن علي ، 1947.

4. زوايا ولاية بسكرة : مديرية الشؤون الدينية والأوقاف ،الجزائر ،2003.
5. المركز الوطني لوثائق الصحافة والإعلام:كيف تحررت الجزائر (الذكرى 35 لثورة أول نوفمبر)، الجزائر، 1989.
6. مديرية المجاهدين لولاية بسكرة ، ثورة العامري 1976 حقائق تاريخية حول ثورة البوازيد ضد الإستعمار الفرنسي، أكتوبر 1996.
7. مديرية المجاهدين لولاية بسكرة :قاموس الشهيد من ولاية بسكرة (1954،1962) ، جويلية 2005.

8_المراجع الإلكترونية والتلفزيونية

➤ <http://www.m-moudjahidine.dz/histoire/Biographie/b123.htm>

e08/06/2006 10:00

- تاريخ الجزائر (1883*1900): CD-ROM، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر .
- صالح صالحي : ثورة البوازيد ضد فرنسا في العامري 11أفريل1876، حصة تلفزيونية،إخراج عبد الحميد هويلي
- توفيق قاسم :انتفاضة العامري، إذاعة الزيبان ،24 أفريل2007.

9 _ الروايات الشفوية

1. شهادة إبراهيم جغابة :أحد مجاهدي ثورة العامري ،شريط مسجل ،بمناسبة الذكرى المئوية لثورة العامري 1976.
2. شهادة بوزيدي إسماعيل: (حفيد بوزيدي عبد الله أحد مجاهدي ثورة العامري)، بسكرة ، أجرى معه الحوار في بسكرة ، 13أوت 2008.
3. بن عيسى سعيد : (نقلا عن السيدة بن عيسى يمينه عمته : إحدى سكان واحة الزعاطشة 1849)، ليشانة ،أجرى الحوار معه في ليشانة يوم 4أوت 2008.

فهرس الموضوعات

الصفحة

المقدمة

1 قائمة المختصرات.....

2 تمهيد

3..... 1. أصل تسمية الزاب.....

4..... 2. الحدود الجغرافية لبلاد الزاب.....

9..... 3. الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية.....

14..... الفصل الأول: الاحتلال الفرنسي لمنطقة الزيبان

15..... المبحث الأول : الأوضاع العامة لمنطقة الزيبان قبل الاحتلال الفرنسي

27..... المبحث الثاني: سقوط بسكرة في أيدي الفرنسيين 04 مارس 1844

31..... المبحث الثالث : رد فعل سكان الزيبان من الاحتلال الفرنسي

31..... 1. معركة مشونش 15 مارس 1844

34..... 2 . معركة بسكرة ماي 1844.

39..... الفصل الثاني : المقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان (1849*1859).....

40..... المبحث الأول : ثورة الـــــــزعاطشة 1849.....

42..... المطلب الأول: أسباب اندلاع ثورة الزعاطشة

45..... المطلب الثاني: الاستعداد للثورة ومراحلها.....

45..... 1: الاستعداد للثورة.....

47..... 2 : مراحل الثورة ..

55..... المطلب الثالث: نتائج الثورة.....

59 المبحث الثاني : ثورة عبد الحفيظ الخنقي 1849.....

61..... المطلب الأول : معركة واد براز 17 سبتمبر 1849

61..... 1. سبب اندلاع المعركة :

62..... 2. مجريات المعركة :

64..... المطلب الثاني: نتائج المعركة :

64..... 1:نتائج المعركة :

66..... 2: مواصلة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي للمقاومة ..

المبحث الثالث : انتفاضة الشيخ الصادق بن الحاج 1859.....	67
المطلب الأول :مساندته لثورة الزعاطشة 1849.....	67
المطلب الثاني :الانتفاضة الكبرى 1859.....	70
1. أسبابها.....	70
2. سير الثورة ونتائجها	72
أ. سير الثورة	72
ب. نتائج	76

الفصل الثالث: ثورة العامري 1876.....	79
المبحث الأول :أصل البــــــــــــــــــــوازيد.....	80
المبحث الثاني:.. أسباب اندلاع ثورة واحة العامري.....	86
المبحث الثالث :. مجريات الثورة.....	91
المبحث الرابع :. العقوبات التي فرضت على الواحة.....	99

الفصل الرابع : العلاقة بين ثورة واحة العامري والمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن

التاسع عشر.....	106
المبحث الأول:السياسة الاستعمارية.....	107
1. الاستيطان.....	108
2. حرب الإبادة	114
3. القضاء.....	116
4. الضرائب	119
المبحث الثاني: العلاقة الدينية.....	125
1. دور الطرق الصوفية	125
2. الوازع الديني.....	129
المبحث الثالث: العلاقة الاجتماعية.....	132

132.....	1. دور المكاتب العربية
137.....	2. دور العائلات الكبرى
139.....	3. العامل الاجتماعي
143.....	الخاتمة
	الملاحق .
	قائمة المراجع .
	الفهرس